حسن الظن بالله

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي









موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الكتاب رقم (١٣)

حُسنُ الظّنّ بالله تعالى

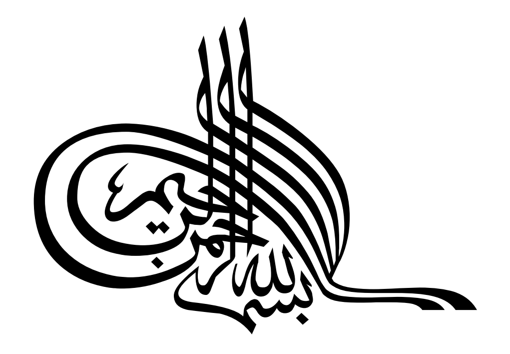
تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين




شبكة
الألوكة


بسم الله الرحمن الرحيم



فهرس المحتويات






شبكة
الألوكة



مُقَدِّمَة

الحمد لله ذي الرضا المرغوب، يعفو ويصفح ويغفر الذنوب، يُملي ويمهل لعلّ العاصي يتوب، يعطي ويرضى ويحقق المطلوب، يُطعم ويَسقي ويستر العيوب، يُغني ويشفي ويكشف الكروب. وأشهد أن لا إله إلا الله ذو الجناب المرهوب، خلق السماوات والأرض في ستة أيام وما مسّه من لُغوب، يُضلّ من يشاء، ويهدي من يشاء، ويقلّب الأبصار والقلوب. وأشهد أن نبيّنا محمدًا عبده ورسوله ذو المقام الموهوب، لا يأكل الصدقات، ولا يرتكب الهفوات، وخاتَم النبوّة بين كتفيه مضروب. من أطاعه فقد أطاع الله، ومن تبع نهجه فقد أرضاه، ومن عصاه فهو في النار مكبوب. اللّهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه عدد الرمال والحصى، وكلما أطاعه عبد أو عصى، ونوِّرْ بصلاتنا عليه بصائرَنا والقلوب.

يا صاحبَ الهمِّ إنّ الهمَّ منفرجٌ ... أبشر بخير فإنّ الفارجَ اللهُ
إذا بُليتَ فثقْ بالله وارض به ... إنّ الذي يكشف البلوى هو اللهُ
واللهِ ما لك غير الله من أحدٍ ... فحسبك الله في كل لك اللهُ

أما بعد؛ فإنّ حسن الظن بالله تعالى عِمادُ الدين والدنيا، وكيف لا نُحسن الظن بمن لا يأتي الخير إلا من قِبَله، ولا يدفع الشرّ إلا هو، تبارك





وتعالى ووعزّ وتقدّس، وهذه رسالة في هذا الموضوع وما يتعلق به من فروع، وبالله التوفيق.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

٧/ ١٠/ ١٤٣٨

aldumaiji@gmail.com



التعريف

حسن الظن بالله تعالى هو برهان الرضا بربوبيته وتدبيره وثمرة الإيمان بأسمائه وصفات جلاله وجماله، والقلب الذي يفارقه حسن الظن بمولاه قفرٌ خَرِبٌ ترتاده وحوش الشياطين وخيالات السوء والشر. وكيف لا يحسن الظن بمن لا يأتي الخير إلا منه، ولا يُدفع الشر إلا من قبله، ولا تقوم حاجة في الدنيا والآخرة إلا عليه، ولا رغبة إلا فيما عنده، كيف وقد تعرّف إلى عباده بتوالي الإنعام وإسباغ الآلاء، من العافية في الأبدان، والأمان في الأوطان، والأرزاق الدارّة، والبشائر المتتابعة، وفوق ذلك كله رضي لهم الإسلام دينًا، وبلّغهم تفاصيله، وسهل لهم الترقي في درجاته والعلو في كمالاته، وليس حتى الفردوس عمن أرادها من صالحي عباده بممنوعة؟ فلك الحمد يا ربنا على كل شيء.

أما حد حسن الظن عند أهل اللغة، فالحُسْنُ ضد القبح، وهو الجمال، وهو نعتٌ لما حَسُنَ. أما الظنّ فهو مأخوذ من مادة (ظ ن ن) التي تدل على معنيين: أحدهما اليقين، والآخر الشك. فمن الأول قول الله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي متيقنون اللقيا، ومن الثاني قوله سبحانه على لسان الكفار في تشكيكهم في البعث: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] أي نَشُكَّ شكًّا.

قال الراغب: «الظَّنُّ اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًّا لم تتجاوز حد التوهم». قلت: فما كان مستوي الطرفين فهو

الشك، وما كان راجحًا، فالراجح غلبة الظن، والمرجوح الوهم. وقال ابن منظور: «الظن شك ويقين، إلا أنه ليس بيقين عيان إنما هو يقين تدبّر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا عَلِمَ، وفي التنزيل: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] أي علمت».

وعلى هذا فحسنُ الظَّنِّ: ترجيح جانب الخير على جانب الشر(١)، وهذا من جهة المخلوق، أما جهة الخالق سبحانه فالواجب تمحيض حسن الظن بالله عز وجل وإلغاء جانب سوء الظن تمامًا، فالشر ليس إليه قط، وإن كان داخلاً في عموم مخلوقاته ولكن لا ينسب إليه؛ لأنه ينسبُ إلى مستحقّه وهو المخلوق الحقيقُ بذلك الشر، والذي تسبب لنفسه به، لذا لا ينسب الشر إلى الله تعالى تأدبًا معه في الخطاب، وصيانةً للظنون الكاذبة الجاهلة، فصار هٰهنا طرفان: الأول الظن في الله تعالى، فهذا كله حسن فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو.

الثاني: جهة النفس الأمارة، فهي أولى بسوء الظن، وإن كانت تُسَدَّدُ وتُوَفَّقُ بتوفيق الله لها، وإلا فلو تركها وخذلها لأمعنت في الشر ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ٤٦١) (٢/ ٥٧)، الصحاح (٦/ ٢٢٦٠)، التعريفات (١٤٤)، اللسان (١٣/ ٢٧٢) (١٣/ ١١٥- ١١٧) عن موسوعة نضرة النعيم بتصرف واختصار (٥/ ١٥٦٩، ١٥٩٦).

والظن في كثير من الأمور مذموم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد ذكر الزركشي رحمه الله ضابطين لمعنى الظن في القرآن العزيز بين اليقين والشك:

أحدهما: أنه حيث وُجدَ الظن محمودًا مثابًا عليه؛ فهو اليقين. وحيث وُجِدَ مذمومًا متوعَّدًا عليه فهو الشك.

الثاني: أن كل ظنّ تتصل به (أَنْ) المُخَفَّفة فهو شك، نحو قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢]، وكل ظنٍّ تتصل به (أَنَّ) المشددة فهو يقين، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]، والمعنى في ذلك أن: (أَنَّ) المشدّدة للتأكيد فدخلت في اليقين، والمُخَفَّفة بخلافها فدخلت في الشك[1].

---

(١) كليات الكفوي (٣/ ١٦٥) عن السابق (٥/ ١٥٩٨).



أقسام الظن وأحكامه

صفوة القول أن الظن لا يخرج عن أمور خمسة:

الأول: الظن المحرم، وهو سوء الظن بالله تعالى، ويقابله وجوب حسن الظن بالله تعالى.

الثاني: حُرمَةُ سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، والمطلوب حسن الظن بهم.

الثالث: الظن المباح، وهو الذي يَعرِضُ في قلب المسلم في أخيه بسبب مما يوجب الريبة، وهذا الظن لا يُحَقَّقُ.

الرابع: الظن المندوب إليه، وهو حسن الظن بالأخ المسلم، وعليه الثواب.

الخامس: الظن المأمور به، وهو الظن فيما لم يَنُصَّ عليه دليل يُوصلنا إلى العلم، وقد تعَبَّدَنا الله بالاقتصار على الغالب الظني، كقبول شهادة العُدُول، وتحرّي القبلة، وتقويم المستهلكات، وأرُوش الجنايات التي لم يرد نصّ في تقديرها، ونحو ذلك[١].

❊❊❊❊

(١) انظر: منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي (٤١٢) عن السابق (٥/ ١٥٩٨).



فضيلة حسن الظن بالله تعالى

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]، فهذه الآية الجليلة قد جمعت أمور حسن الظن بحذافيرها، فلم تغادر منها شيئًا، قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي من كان يرجو الله يوم لقائه، ويطمع في ثوابه، فإن أجل الله الذي أجّله لبعث خلقه للجزاء والعقاب لآتٍ قريبًا»(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي في الدار الآخرة، وعمل الصالحات، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه، ويوفيه عمله كاملاً موفّرًا، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصيرٌ بكل الكائنات، لهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»(٢).

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ومقاتل: من كان يخشى البعث والحساب والرجاء بمعنى الخوف(٣). وقال سعيد بن جبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: من كان يطمع في ثواب الله ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ﴾ يعني ما وعد الله من الثواب

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٦٠).

(٢) المصباح المنير (١٠٣٢).

(٣) وقد سبق في باب الرجاء أن من معانيه الخوف، وهو على خلاف الأصل فلا يُصار إليه إلا بقرينة.



والعقاب. وقال مقاتل: يعني يوم القيامة لكائن، ومعنى الآية: أن من يخشى الله أو يأمله فليستعد له، وليعمل لذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ١١٠]»[١]. وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يرجو بمعنى يخاف، من قول الهذلي في وصف عَسَّال:

إذا لَسَعَتْهُ النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها[٢].

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت فليعمل عملاً صالحًا فإنه لابد أن يأتيه، ذكره النحاس»[٣][٤]. وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكر

---

(١) مختصر تفسير البغوي (٧٢٠). وانظر: زاد المسير (٦/ ٢٥٦)، والدر المنثور (٦/ ٤٠٠).

(٢) تمامُه: .... وحالفها في بيت نوب عواسل
والشاعر هو أبو ذؤيب الهذلي، ومنازل قومه جنوب مكة، ولا زالوا في مهنة إنتاج العسل حتى اليوم.

(٣) وذكر الإجماع ليس بمسلّم، لما ثبت عن سعيد بن جبير وغيره، لذلك أطلق البغوي القولين، وإن كان المعنى الكلي العام يجمع الرجاء والخوف بجامع الطلب، فالرغب والرجاء طلب مأمول، والخوف والخشية طلب ترك أو نجاة، وإن أُورد على ذلك أن هاتين من آثارهما، أما حقائقهما فمتضادة، والله أعلم.

(٤) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٩٠)، وذكر تفسير الزجاج لمعنى رجاء لقاء الله برجاء ثوابه، وهذا تأويل باطل ممنوع، إلا إذا كان قد أراد تفسيره ببعض معانيه دون نفي اللقاء، والقرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ على جلال قدره ورسوخه في التفسير والفقه إلا أنه يختار تأويلات الأشاعرة، وهي في حقيقتها تحريفات وضلالات. رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له وعفى =





الخلاف: «والرجاء على هذا معناه الأمل، وأجل الله هو الأجل المضروب للبعث فهو آت لا محالة، و(من) قد تكون شرطية والجزاء ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ﴾، ويجوز أن تكون موصولة ودخلت الفاء في جوابها تشبيهًا لها بالشرطية، وفي الآية من الوعد والوعيد والترهيب والترغيب ما لا يخفى»(١).

وقال الزمخشري: «فإن قلت: فإن أجل الله لآت، كيف وقع جوابًا للشرط؟ قلتُ: إذا علم أن لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة، والوقت الذي تقع فيه تلك الحال، وهو الأجل المضروب للموت: فمكانه، قال: من كان يرجو لقاء الله فإن لقاء الله لآت؛ لأن الأجل واقع فيه اللقاء، كما تقول: من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب، إذا عُلِمَ أنه يقعد للناس يوم الجمعة»(٢).

فمن حسن ظنه بالله تعالى صحّ عقده، واستفرغ جهده في مرضاته، فهو

=

عنه وأعلى نزله. وانظر مأخذه هنا في تفسير الرازي (١٣/ ٢٧).

(١) فتح القدير (٤/ ٢٥٤).

(٢) الكشاف (٣/ ٤٢٧)، وهو تفسير حقيق بأن يُهذَّب من لدن صاحب سنَّة ولو انتدبت لذلك بعض أقسام التفسير في الجامعات، فقد حرمت بدعته وشبهاته كثيرًا من الناس من الاستفادة منه، وحُقَّ لهم ذلك، فليس أعز على المؤمن من سلامة معتقده! ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والله يغفر للزمخشري ويعفو عنه ويرحمه، وما قيل فيه ينسحب كذلك على تفسير الرازي فقد جمعا من الفوائد اللغوية والاشتقاقات والبديع ونحو ذلك ما لا يكاد يوجد عند غيرهما. لكنه طعام شهي مسموم، والله المستعان.



حسنٌ ظن ينفخ في القلب إحسان العمل، وتعظيم الرغبة، وإخلاص الوجه لله وحده، وتمحيض الاتباع لنبيه صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، فمن كان كذلك فقد أحسن في ظنه وفي عمله.

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي(١) رَحِمَهُ اللَّهُ في الآية وتأمل كيف حلّق بهذه العبارات الرقيقة لأن المقام يقتضيها: «يعني يا أيها المحب لربه، المشتاق

---

(١) تفسير السعدي على جلالته وعمقه وغزارته مع اختصار لفظه وحسن سبكه ورونقه وغزارة مائه وروائه إلا أنه لم يحظ بمكانته الحقيقة به بين التفاسير عند كثير من طلبة العلم، وهذا حرمان، فإن هذا التفسير هو خالص علم ذلك الحبر الذي هضم علوم شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم حتى صار قلمه ثالثًا لهما، ولكأنه حين يكتب تفسيره للآية قد اقتنى علم ابن تيمية ويراع ابن القيم فأضحى مزيجًا مفعمًا بالحياة والتدفق والغزارة والفقه الدقيق، وهذا مسلك لا يحسنه إلا الواحد بعد الواحد في الفئام من أهل العلم، وقد يزهد في هذا التفسير من لا يرى فيه نقولاً عن السلف بأسمائهم ولفظ عباراتهم، والجواب أنه لم يخرج عنها بل فقهها وميزها ونخلها ثم سكبها في هذا القالب الجميل المتين، وقد يرغب بعضهم عنه لاختصاره، فالجواب: أن هذا الاختصار ميزة في هذا الكتاب النفيس عديم المثال، فما لنا ولتشقيق الكلم وتقعير اللفظ وإطناب المقال وتطويل الحواشي إذا كان الاختصار. بل والاقتصار. مؤديًا للغرض؟ وهذا التفسير المميز (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) لو أدركه من سبقنا لعرفوا له قدره، ولقدّموه على كثير من التفاسير المشهورة، وهذا من بركة تأخّر زمن العالم، فإنه يقرأ لمن سلفه ويوازن ويقارن ويختار ثم يبسط قوله على مداد من نور وقبس من حكمة. رحم الله الشيخ عبد الرحمن وجمعنا به في عليين.

لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه، مستصحبًا الرجاء، مؤملاً الوصول إليه، ولكن ما كل من يدّعي يُعطى بدعواه، ولا كل ما تمنّى يُعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقًا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبًا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بما يصلح لحبه ومن لا يصلح»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي**(٢)**، وأنا معه**(٣) **إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه؛ ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ، ذكرته في ملإٍ خير منهم، وإن تقرّب إلي شبرًا؛ تقربتُ إليه ذراعًا، وإن تقرّب إلي ذراعًا؛ تقربت منه باعًا**(٤)**، وإن أتاني يمشي أتيتهُ هرولة**»(٥). فيالله! أين يذهب حسن الظن إن لم يجتمع في قلب من خوطب بهذا الخطاب الرباني؟! فهذه ثلاث رسائل قد تضمنها هذا الوحي العظيم والحديث المقدس:

---

(١) تفسير السعدي (٧٣٥).

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في المفهم (٥/٧): «معنى ظن عبدي بي: ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار». قلت: وهذا بعضٌ من كل، فإحسان الظن بالله محيط بكل أمور الدين والدنيا.

(٣) معه بالعلم والإحاطة والسمع والبصر والرؤية والتسديد والتوفيق وما يتبع ذلك من لوازم المعية الخاصة.

(٤) الباع: قدر ما بين مدّ اليدين، ومنه سمي البيع بيعًا في اللغة؛ لأن البزّاز يمد القماش بين يديه قدر الباع في العادة.

(٥) متفق عليه. البخاري (٧٤٠٥) بلفظه، مسلم (٢٦٧٥).



الأولى: أن الله عز وجل عند ظن عبده به، وقد أطلق سبحانه هذه العندية، فما بقي للعبد التوّاق إلا تعظيم الرغبة وحسن السؤال وإحسان العمل، وليبشر، فربه تعالى عند حسن ظنه فيه، ومن أصدق من الله قيلاً؟! ومن أصدق من الله حديثًا؟! وهي وصية رسول الله ﷺ لكل عبد في أضيق كرباته وشدائده فقال: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»**(١).

الثانية: فضيلة الذكر، وأن من بركاته معيَّة الرب تبارك وتعالى للذاكر، وهي معية خاصة، ليست كمعيته سبحانه لبقية خلقه المقتضية للرزق والعلم وفروع ألطاف الربوبية، بل هي معية خاصة معها المحبة والحفظ والنصر والتأييد والتوفيق والإسعاد، وقل ما شئت من بركات هذه المعية التي تحصل للذاكر على قدر إحسانه للذكر، فكلما كان حسن المعتقد، صادق التوجه، مُمَحَّض الاتباع، طاهر القلب والبدن والملبس والمكان، حلال المطعم والمشرب والمسكن والملبس، متدبرًا لذكره، معظمًا لمذكوره، متعبدًا بألفاظِ وأعمالِ تعظيمه؛ كانت المعية أتم وأكمل، وكان من ربه أقرب. وإن ذكر ربه في نفسه كافأه بأن يذكره في نفسه المقدسة العظيمة، فهل بعد هذا شرف؟! ولقد بكى أبي بن كعب حين بشره رسول الله ﷺ أن الله تعالى أمره أن يقرأ عليه سورة البينة، وقال: يا رسول الله، أوسمّاني الله لك؟!(٢).

فإن كان الذاكر في ملإٍ فالله تعالى وهو الشكور الحميد، يذكره في ملإ خير

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) رواه مسلم (١٦١٤).



منهم، وسواء كان الذاكر متفكرًا أو تاليًا أو مسبحًا أو مكبرًا أو مصليًا أو مذكرًا واعظًا أو معلمًا أو مجاهدًا ونحو ذلك، فكلهم ذاكرون لله تعالى كلٌّ على ما يسّر الله له، والحمد لله على إحسانه.

الثالثة: شريفةُ القرب، فلا أشرف من التقرب لملك الملوك ورب العالمين وإله الأولين والآخرين، ومن فضله عز وجل أن جعل الميدان واسعًا مستقيمًا واضحًا منيرًا، يسع جميع من أراد القرب منه، فمن تقرب إلى ربه ومعبوده شبرًا بما تيسّر له من قربة فالجزاء من جنس العمل والله أكبر وأكرم وأوهب، وعند الله للأتقى مزيدٌ، فإن تقرّب إلى ربه ذراعًا فصار أسبق ممن قبله كانت جائزته أكبر بأن يكون من ربه أقرب، فتكون ألطافه أكمل وأجمل وأعظم وأكبر، وعلى قدر قرب ربه سبحانه وتعالى منه يكون إشراقه وحياته وسعادته وانشراحه، فإن ازداد في التقرب والخير فالله أكرم، كما قال الصحابة لرسول الله ﷺ لما بشرهم بفضائل الذكر وعظيم أجره: يا رسول الله إذن نُكْثِر، قال: «**الله أكثر**»(١).

ومهما بلغت أماني الخلائق فالله سبحانه قادر على تحقيقها ولا ينقص ذلك من ملكه شيئًا، فهو جواد يحب الجود، كريم يحب الكرم، وكما قال سبحانه في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا على صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألة، ما نقص ذلك من ملكي إلا كما**

---

(١) الترمذي (٣٥٧٣) وقال: حديث حسن صحيح غريب، والحاكم (١/ ٤٩٣)، وقال الألباني في التعليق الرغيب (٢/ ٢٧١، ٢٧٢): حسن صحيح.



ينقص المخيط إذا أُدخل البحر»(١).

فإن سارع كمًّا وكيفًا في القربات جاءته الجوائز والألطاف والمكافآت، فإن تقرب إلى ربه ذراعًا كافأه ربه بأن يتقرب إليه باعًا، وإن أتاه يمشي مقبلاً محسنًا ظنه به، وقد أحسن عمله، فهو بين حسنة يرجو نوالها أو سيئة قد أطبق عليها بتوبة نصوح وأتبعها بصالحة، فذهب إلى ربه تعالى ماشيًا، فربه أكرم وأجل من أن يخيّب سعيه، بل يأتيه هرولة مُجلّلاً عليه رحمته مرخيًا عليه ستره ومغفرته، مُدْنِيه إليه تحت كنفه، فلله الحمد أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا كما ينبغي أن يحمد، وكما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه(٢).

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) قال العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في القواعد المثلى: «المثال الثاني عشر: قوله ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: **«من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»** وهذا الحديث صحيح، رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وروى نحوه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، وكذلك روى البخاري نحوه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب التوحيد، الباب الخامس عشر.

وهذا الحديث كغيره من النصوص الدالة على قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى، وأنه سبحانه فعّال لما يريد، كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]
=

=

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله ﷺ: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر**» متفق عليه، البخاري (١٠٩٤)، مسلم (٧٥٨)، وقوله ﷺ: «**ما تصدّق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه**» (مسلم ١٠١٤) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على قيام الأفعال الاختيارية به تعالى.

فقوله في هذا الحديث: «**تقربت منه**»، «**أتيته هرولة**» من هذا الباب، والسلف (أهل السنة والجماعة) يجرون هذه النصوص على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق بالله عز وجل من غير تكييف ولا تمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرحه لحديث النزول (الفتاوى ٥/ ٤٦٦): وأما دنوّه وتقرّبه من بعض عباده فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله واستواءه على العرش. وهذا مذهب أئمة السلف، وأئمة الإسلام المشهورين، أهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر. اهـ.

فأي مانع يمنع من القول بأنه يقرب من عبده كيف يشاء مع علوّه؟ وأي مانع يمنع من إتيانه كيف يشاء بدون تكييف ولا تمثيل؟ وهل هذا إلا من كماله، أن يكون فعّالاً لما يريد، على الوجه الذي يليق به؟

وذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى في هذا الحديث القدسي: «**أتيته هرولة**» يُراد به سرعة قبول الله تعالى، وإقباله على عبده المتقرب إليه، المتوجه بقلبه وجوارحه، وأن مجازاة الله للعامل له أكمل من عمل العامل، وعلّل ما ذهب إليه بأن الله تعالى قال: «**ومن أتاني يمشي**» ومن المعلوم أن المتقرّب إلى الله عز وجل، الطالب للوصول إليه لا يتقرّب ويطلب الوصول إلى الله تعالى بالمشي فقط، بل تارة بالمشي كالمشي إلى المساجد ومشاعر الحج والجهاد في سبيل الله ونحوها، وتارة بالركوع والسجود
=



وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن حسن الظن بالله تعالى**

=

ونحوهما، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**» (مسلم ٤٨٢)، بل قد يكون التقرّب إلى الله تعالى وطلب الوصول إليه والعبد مضطجع على جنبه كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «**صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنبك**» متفق عليه، البخاري (٤٨٢) مسلم (١٠٦٦).

قال: فإذا كان كذلك؛ صار المراد بالحديث بيان مجازاة الله تعالى العبد على عمله، وأن من صدق في الإقبال على ربه وإن كان بطيئًا جازاه الله تعالى بأكمل من عمله وأفضل، وصار هذا هو ظاهر اللفظ بالقرينة الشرعية المفهومة من سياقه.

وإذا كان هذا ظاهر اللفظ بالقرينة الشرعية؛ لم يكن تفسيره به خروجًا به عن ظاهره، ولا تأويلاً كتأويل أهل التعطيل، فلا يكون حجة لهم على أهل السنة، ولله الحمد.

وما ذهب إليه هذا القائل له حظ من النظر، لكن القول الأول أظهر وأسلم وأليق بمذهب السلف.

ويجاب عما جعله قرينة من كون التقرب إلى الله تعالى وطلب الوصول إليه لا يختص بالمشي، بأن الحديث خرج مخرج المثال لا الحصر، فيكون المعنى: من أتاني يمشي في عبادة تفتقر إلى المشي بتوقفها عليه لكونه وسيلة لها كالمشي إلى المساجد للصلاة، أو من ماهيّتها كالطواف والسعي. والله أعلم».

القواعد المثلى للعثيمين، الباب الرابع، وللشيخ عبيد الجابري شرح لطيف عليها باسم: فتح العلي الأعلى بشرح القواعد المثلى.

من حُسْنِ العبادة»(١) ومن أعظم الأدعية **«اللّٰهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**(٢). فهو سؤال الله سبحانه الإعانة على الذكر الدائم والشكر المتصل والعبادة الحسنة، ومن حسن العبادة حسن الظن بالمعبود سبحانه.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيامٍ يقول: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»**(٣)، فتدبر ميقات هذه الوصية النبوية العزيزة، حيث ألقاها ﷺ في أفئدة أصحابه وقد آن له الرحيل إلى من أحسن به الظن، فحري بكل مؤمن تعظيم تلك الوصية بإحسان الظن بمولاه تعالى، وخاصة عند اقتراب تقويض البنيان للارتحال عن هذه الدار، فالعبد المؤمن راجع إلى من هو أرحم به من الوالدة بولدها، فهل أعظم من هذا الذي أربى على الوالدة رَحمةً وبرًّا؟!

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله ﷺ: **«أن الله عز وجل قال: أنا عند**

---

(١) أبو داود (٤٩٩٣)، الترمذي (٣٦٧٩) وقد سقط الحديث من النسخة المطبوعة في الترمذي ضمن عشرة أحاديث أثبتها المحقق في آخر النسخة (تحفة الأحوذي)، والمسند (١٠٣٦٩) وقال محققه: حسن، وجامع الأصول (١١/ ٦٩٣) وقال محققه: حسن. عن موسوعة النضرة (٥/ ١٦٠٠).

(٢) أحمد (٦/ ٢٤٤، ٢٤٥)، وأبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في المشكاة (٩٤٩).

(٣) مسلم (٢٨٧٧).



ظن عبدي بي، إن ظنّ بي خيرًا فلَهُ، وإن ظنّ شرًا فلَهُ»(١)، وعن حَيَّانَ أبي النَّضْرِ قال: دخلتُ مع واثلة بن الأسقع على أبي الأسود الجُرشي(٢) في مرضه الذي مات فيه، فسلّم عليه وجلس، قال: فأخذ أبو الأسود يمين واثلة، فمسح بها على عينيه ووجهه لبيعته بها رسول الله ﷺ فقال له واثلة: واحدةٌ أسألك عنها، قال: وما هي؟ قال: كيف ظنّك بربّك؟ قال: فقال أبو الأسود، وأشار برأسه، أي: حَسَنٌ، قال واثلة: أبشر، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله عز وجل: أنا عند ظنّ عبدي بي، فليظنّ بي ما شاء»**(٣).

ثم أَمْعِنِ النظر في هذا الحديث العظيم، الذي تهب منه على القلب الكسير النادم نسائم الفرج والرجاء، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: **«أذنب عبدٌ ذنبًا فقال: اللّهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب،**

---

(١) أحمد (٢/ ٣٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١٥)، وأصل الحديث في الصحيحين، انظر: جامع الأصول (٤/ ٤٧٦)، (٩/ ٥٥٥).

(٢) وكان مجاب الدعوة، وكان الناس يستسقون به، أي يطلبون منه الدعاء لهم بالغيث وهم يؤمِّنون.

(٣) أحمد (٣/ ٤٩١)، الدارمي (٢٧٣١)، الحاكم (٢/ ٢٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١٦).



اعمل ما شئت فقد غفرت لك»[١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في المفهم: يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارنًا للسان لينحلّ به عقد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة، ويشهد له حديث: **«خياركم كل مفتّن تواب»**[٢]، ومعناه: الذي يتكرر منه الذنب والتوبة، فكلما وقع في ذنب عاد إلى توبة، لا من قال: أستغفر الله، بلسانه، وقلبه مصرّ على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار.

وقال القرطبي أيضًا: وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم، والإلحاح في سؤاله، والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه.

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في الحديث: إن الذنوب ولو تكررت مئة بل ألفًا وأكثر وتاب في كلّ مرة[٣] قُبلت توبته، أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحّت

---

(١) متفق عليه. البخاري، الفتح (١٣/ ٧٥٠٧)، مسلم واللفظ له (٢٧٥٨)، وفي رواية له في مسلم (٢٧٥٨): **«وفي الثالثة: قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»**.

(٢) نسبه الحافظ لمسند الفردوس عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (الفتح ١٣/ ٥٨٥).

(٣) أي بشروط التوبة المعتبرة، وهي الإخلاص، والإقلاع، والندم، والعزم على عدم العودة، ورد المظالم إن كانت.



توبته[(١)].

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه عَرَضَ له رجلٌ فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يُدني المؤمنَ، فيضعُ عليه كَنَفَهُ**[(٢)] **ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أيْ ربِّ، حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيُعطَى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم ألا لعنة الله على الظالمين**»[(٣)].

وقد عقد الإمام مسلم رَحِمَهُٱللَّهُ في صحيحه بابًا في كتاب التوبة سمّاه (باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها تغلب غضبه) ومما أورده تحته:

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي**»، وعنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ «**قال الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي**»[(٤)]، وعنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحمُ الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»، وفي رواية مرفوعة أخرى له: «**وأخّر**

---

(١) عن فتح الباري (١٣/ ٥٨٤، ٥٨٥).

(٢) كنفه: ستره وحفظه.

(٣) البخاري. الفتح (٥/ ٢٤٤١).

(٤) مسلم (٢٧٥١).



الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»[١]. وفي رواية سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»**[٢] أي أكمل المئة.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبيٍ، فإذا امرأة من السبي تبتغي[٣] إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذتْهُ فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول الله ﷺ: **«أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟»** قلنا: لا، والله وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: **«لله أرحم بعباده من هذه بولدها»**[٤].

فهل بعد هذه البشارة النبوية بسعة رحمة الله من بشارة؟! فالله سبحانه هو الرحمن الرحيم، وبالمؤمنين رءوف رحيم، وهو أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، وخير الغافرين، ووسعت رحمته كل شيء، وسبقت رحمته غضبه، وحلمه مؤاخذته، وعفوه عقوبته، وتدبّر قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه الكافر في تلطّف ورفق وفقه لا يليق إلا بالأنبياء الكرام صلوات الله عليهم وسلامه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥].

فانظر كيف قرن العذاب بذكر اسم الله الرحمن وهو مشتق من المبالغة في

---

(١) مسلم (٢٧٥٢).

(٢) مسلم (٢٧٥٣).

(٣) في البخاري: تسعى. قال النووي: كلاهما صواب.

(٤) البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

الرحمة، والمعنى - والله أعلم - أن من مسَّهُ العذاب يوم القيامة من الرحمن الذي هو أرحم الراحمين فهو غير حقيق بأية رحمة، فلا أبعد منه ولا أشقى، فلا يهلك على الرحمن الرحيم إلا هالك.

لذلك قال رسول الله ﷺ: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة؛ ما طمع بجنّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة؛ ما قنط من جنّته أحد»**[١] وهذا الحديث ميزان قسط بين الخوف والرجاء.

وقال معمر: قال لي الزهري: ألا أحدّثك بحديثين عجيبين؟ قال الزهري: أخبرني حُميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة[٢] عن النبي ﷺ قال: **«أسرف رجل على نفسه[٣] فلمّا حضره الموتُ أوصى بنيه فقال: إذا أنا مُتُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر عليّ ربي[٤] ليعذبني**

(١) مسلم (٢٧٥٥).

(٢) رضي الله ورحم وأكرم هذا الرجل المبارك الذي حفظ لنا سنة نبينا ﷺ، فإضافة لكونه أكثر الصحابة حديثًا؛ إذ جاوزت مروياته الخمسة الآلاف، فكثير من الأحاديث مدارها عليه وحده، فلم ترو إلا من طريقه، فرضي الله عنه وألحقنا به في السابقين المقربين.

(٣) أي بالغ في المعاصي والذنوب.

(٤) وبهذا وأمثاله استدل أهل العلم على أن من موانع تكفير المعين الجهل، فهذا الرجل شكّ في عموم قدرة الله، وهذا كفر محض، مع ذلك غفر الله له لخشيته وجهله، ودليل الخشية نص الحديث **«فغفر له بذلك»**، وفي رواية أبي سعيد في مسلم (٢٧٥٧) **«فقال: مخافتك. قال: فما تلافاه غيرها»**، وفي هذا حصر سبب العفو. أما =



عذابًا ما عذّبه به أحدًا. قال: ففعلوا ذلك به. فقال للأرض: أدِّي ما أخذت، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعتَ؟ فقال: خشيتك يا رب ـ أو قال: مخافتك ـ فغفر له بذلك»[١].

قال الزهري: وحدثني حُميدٌ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: **«دخلت امرأة النارَ في هرّة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلاً»**[٢].قال الزهري: ذلك، لئلا يتّكل رجلٌ، ولا ييأس رجل.

قال النووي في المنهاج: معناه: أن ابن شهاب ـ وهو الزهري ـ لما ذكر الحديث الأول، خاف أن سامعه يتّكل على ما فيه من سعة الرحمة وعظم الرجاء[٣]، فضمّ

=

دليل الجهل فقوله: **«لئن قدر علي ربي»** وإن كان سياق الحديث في ذم الجهل، إلا أنه قد يكون مانعًا من العذاب عند عدم التمكن من العلم، وذلك لعموم نصوص إيقاع الوعيد على من كان جاهلاً ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الملك: ٨، ٩]، وقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وانظر رسالة: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ للمؤلف.

(١) مسلم (٢٧٥٦).

(٢) مسلم (٢٦١٩).

(٣) ولاحظ أن الرجاء هو ثمرة حسن الظن، فهو آخيّته وعموده.



إليه حديث الهرّة الذي فيه من التخويف ضد ذلك، ليجتمع الخوف والرجاء، وهذا معنى قوله: لئلا يتكل ولا ييأس. وهكذا معظم آيات القرآن العزيز، يجتمع فيه الخوف والرجاء.

وعن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال النبي ﷺ: «**أيّما رجل شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة**» قلنا: وثلاثة؟ قال: «**وثلاثة**»، قلنا: واثنان؟ قال: «**واثنان**» ثم لم نسأله عن الواحد[1]. ولا يعني هذا أن يتعمد المرء إظهار حسناته فيكفي صلاحه ظاهرًا وباطنًا، وللقلوب على القلوب شواهد وشهادات.

وعن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»[2]. فأين أرباب الذنوب والسيئات[3] من هذا الفضل الجزيل؟! ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢].

وتأمل مليًّا وقِفْ طويلاً طويلاً عند حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم**

---

(١) البخاري، الفتح (٥/ ٢٤٤١).

(٢) مسلم (٢٧٥٩).

(٣) ذكر الحافظ ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ أن إطلاق الذنوب في القرآن الكريم إنما هو على الكبائر، أما السيئات فعلى الصغائر. المدارج (١/ ٣١٧) بمعناه.



استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب[١] **الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لقيتك بقُرابها مغفرة»**[٢]، و لئن أخذت بهذا الحديث في حسن الظن بربك لكفاك.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفرُ لهم**»[٣]، فمن أسمائه سبحانه العفو والغفور والتواب والحليم، فيحب سبحانه أن تظهر آثار أسمائه وصفاته على خلقه، لذلك ابتلاهم بالذنوب والمصائب ليعودوا ويتوبوا. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول الله تعالى في بعض الكتب: «أهل ذكري أهل مشاهدتي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي؛ إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأُطهرهم من المعايب»[٤].

ويا أُهيل الليل أبشروا فقد تناثرت على رءوسكم الألطاف، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كُل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثُلُثُ الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن**

(١) قُراب الأرض: ما يقارب ملأها.
(٢) الترمذي (٣٥٤٠) وحسنه، وللحديث شواهد، وصححه الألباني.
(٣) مسلم (٢٧٤٩).
(٤) منهاج السنة، ابن تيمية (٦/ ٢١٠).



يسألني فأُعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»(١)، وهل يخرج مؤمن عن رغبة هذه الثلاث: دعوة تُستجاب، ومسألة تُعطى، واستغفار يُغفر لصاحبه؟! وقد أثنى الله عز وجل مرتين في القرآن على أهل الاستغفار وقت السحر. وهو السدس الأخير من الليل. فقال جل شأنه: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وقال: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال ابن أُمِّ عبدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو ابن مسعود: «والذي لا إله غيره ما أُعطي عبدٌ مؤمنٌ شيئًا خيرًا من حسن الظنّ بالله عز وجل، والذي لا إله غيره لا يُحسن عبدٌ بالله عز وجل الظنّ إلا أعطاه الله عز وجل ظنه، ذلك أن الخير في يده»(٢).

وعن عبد الله بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «لما وقف الزبيرُ يوم الجمل دعاني فقمتُ إلى جنبه، فقال: يا بني لا يُقتل اليوم إلا ظالمٌ أو مظلومٌ، وإني لا أُراني إلا سأُقتل اليوم مظلومًا، وإن من أكبر همِّي لَدَيْني، أفَتَرى يُبقي ديننا من مالنا شيئًا؟ فقال: يا بني بِعْ مالنا، فاقض ديني، وأوصى بالثلث، وثلثه لبنيه ـ يعني بني عبد الله بن الزبير ـ يقول: ثلث الثلث ـ فإن فضَلَ من مالنا فضلٌ بعد قضاء الدين فثلثه لولدك.. قال عبد الله: فجعل يوصيني بدَينه ويقول: يا بني إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه مولاي. قال: فوالله ما دريتُ ما أراد حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله. قال: فوالله ما وقعتُ في كُربة من دَيْنه إلا قلت: يا مولى

---

(١) مسلم (٧٥٨)، ولشيخ الإسلام مجلد خاص بشرحه اسمه: شرح حديث النزول.

(٢) حسن الظن بالله، لابن أبي الدنيا (٩٦).



الزبير اقض عنه دَينه؛ فيقضيه»[١]. ألا رضي الله عن ذلك الرعيل فما أحسن ظنهم بالله عز وجل!

وعن سهل القُطَعِيّ قال: رأيت مالك بن دينار رحمه الله في منامي فقلت: يا أبا يحيى، ليت شعري، ماذا قدمت به على الله عز وجل؟ قال: قدمت بذنوب كثيرة، فمحاها عنّي حسن الظن بالله[٢].

وعن الإمام سفيان الثوري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] قال: أحسنوا الظن بالله[٣]. قلت: وهذا من تفسير الكل بالبعض.

وقال أحمد بن العباس النمري:

وإني لأرجـــو الله حتـــى كـــأنّني ... أرى بجميـل الظـن مـا الله صـانع

والمشهور: وإني لأدعو الله.. وكلاهما حق، فالله عند ظن عبده به، وهو ظن المحسنين لا المغرورين.

وقال ابن القيم رحمه الله في معرض بيان درجات الغنى بالله عز وجل: «وكذلك إذا شهد مشهدَ القيّومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كل

---

(١) البخاري، الفتح (٦/ ٣١٢٩).
(٢) حسن الظن بالله، لابن أبي الدنيا (٩٦).
(٣) السابق (٢٥)، وانظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣١٨) عن نضرة النعيم (٥/ ١٦٠٧).



شيء، وقائم على كل نفس بما كسبت، وأنه تعالى هو القائم بنفسه، المقيمُ لغيره، القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره، وإيصال جزاء المحسن إليه، وجزاء المسيء إليه، وأنه لكمال قيوميته لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عملُ الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل[1]، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يضِلُّ ولا ينسى، وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية»[2].

«والله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فهو سبحانه قد أخبر ـ وهو الصادق الوفيُّ ـ أنه إنما يعامل الناس بكسبهم، ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف المحسنُ لديه ظلمًا ولا هضمًا، ولا يخاف بخسًا ولا رَهقًا، ولا يضيع عمل محسن أبدًا، ولا يُضيّع على العبد مثقال ذرة ولا يظلمها ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه، وأنه يجزي بالسيئة مثلها ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها، ويُضاعفها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهو الذي أصلح الفاسدين وأقبل بقلوب المُعرضين، وتاب على المذنبين، وهدى الضالين، وأنقذ الهالكين، وعلّم الجاهلين، وبصّر المتحيّرين، وذكّر الغافلين، وآوى الشاردين، وإذا أوقع عذابًا أوقعه بعد شدة التمرد والعتوّ عليه،

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (١٧٩).

(٢) طريق الهجرتين (١/ ٩١).

ودعوة العبد إلى الرجوع إليه والإقرار بربوبيته وحقّه مرة بعد مرة، حتى إذا أصر العبد على عدم استجابته والإقرار بربوبيّته ووحدانيته؛ أخذه ببعض كفره وعتوّه وتمرده، بحيث يُعذرُ العبدُ من نفسه، ويعترف بأن الله سبحانه لم يظلمه، وأنه هو الظالم لنفسه. كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقال عمّن أهلكهم في الدنيا: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤، ١٥]، وقال أصحاب الجنة التي أفسدها عليهم لما رأوها قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩]، قال الحسن: لقد دخلوا النار وإنَّ حمده لفي قلوبهم، ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلاً»[(١)].

ويروى أن أعرابيًا سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فقال الأعرابي: والله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم بها. فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه. وقال الصنابحي: دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت. فقال: مهلاً، لِمَ تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه، إلا حديثًا واحدًا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أُحيط بنفسي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله حرّم الله عليه النار**»[(٢)].

---

(١) الداء والدواء (٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) البخاري (٤/٢٠١) ومسلم (١/٤٢) واللفظ له.



وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مثل مدّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك**[١] **كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيُخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلم. قال: فتوضع السجلات في كفّة والبطاقة في كفة. قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء**»[٢].

وقال ﷺ في حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط من رواية أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إن الله يقول للملائكة: من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار، فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: يا رب لم نَذَر فيها أحدًا ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: يا ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا به. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: يا ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا به**»، فكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]،

---

(١) وفي لفظ: «أظلمك» بالتذكير، وكلاهما صحيح.

(٢) الترمذي (٢٦٣٩) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في المشكاة (٥٥٥٩).



«قال: فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حُممًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له: نهر الحياة، فيخرجون منه كما تخرج الحِبَّةُ في حميل السيل، ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل أبيض» قالوا: يا رسول الله، كأنك كنت ترعى بالبادية، قال: **«فيَخْرُجُون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة يقولون: هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدّموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتم فهو لكم. فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين، فيقول الله تعالى: إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا. فيقولون: يا ربنا أيُّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»**[(١)].

وهذا حديث جليل عظيم، ويسمى حديث الجهنميّين، أو حديث الشفاعة، وقد وردت روايات في الصحيحين لهذا الحديث بزيادة: **«فيعرفونهم بأثر السجود»** وهي رواية أبي هريرة المتفق عليها[(٢)]. وهي زيادة مقبولة والأحاديث يفسر بعضها بعضًا، وحجة لأهل السنة القائلين بزيادة الإيمان ونقصانه،

---

(١) متفق على صحته، البخاري (١٣/ ٤٢٢)، مسلم (٣٠٢)، وقد جعل الغزالي رحمه الله هذين الحديثين خاتمة لكتابه الإحياء استبشارًا بفضل الله وحسن ظن بلطفه وكرمه.

(٢) البخاري (١١/ ٤٤٥)، مسلم (٢٩٩).





وباشتراط جنس العمل لصحة الإيمان وللنجاة يوم الدين[١]. قال إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه اللفظة **«لم يعملوا خيرًا قط»** من الجنس الذي تقول العرب بنفي الاسم عن الشيء لنقصه عن التمام والكمال، لا على ما أوجب عليه وأمر به.. وقد بيّنت هذا المعنى في مواضع من كتبي»[٢].

هذا ولا عقوبة إلا بعد إقامة الحجة وإبانة المحجة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، قال ابن تيمية: «إن نصوص الوعيد التي في الكتاب والسنة، ونصوص الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها في حق المعيّن، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع»[٣].

❁❁❁❁

(١) لا كما قاله الغزالي وتبعه الزبيدي بأن قلوب أولئك طافحة بالإيمان (شرح الإحياء ٥/ ٢٤٣)، وهل هذا إلا ردّ القول على رسول الله ﷺ الذي بين المقدار الضئيل للإيمان في قلوبهم؟! وللدكتور سفر الحوالي كلام مفيد حول كشف تعلّقات المرجئة بهذا الحديث الذي هو في حقيقته نقض لمذهبهم البدعي. انظره في (ظاهرة الإرجاء ٢/ ٧٤٦، ٧٥٨).

(٢) التوحيد، ابن خزيمة (٣٠٥) عن ظاهرة الإرجاء (٢/ ٧٥٢).

(٣) الفتاوى (١٠/ ٣٧٢).

الأسباب العشرة المانعة من العقوبة

إن من رحمة الله تعالى وهو الغفور التواب الرحيم أن شرع لعباده أسباب الرحمة، ونوّع لهم طرائق المغفرة، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه، فهو أرحم الراحمين، وخيرُ الغافرين، وأكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، وأحكم الحاكمين، سبقت رحمته غضبه، وحلمه مؤاخذته، وعفوه عقوبته، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا، ووسعت رحمته كل شيء، ولو لم يذنب العباد لخلق الله خلقًا ليذنبوا ثم يستغفروه فيغفر لهم لحبه للمغفرة والتوبة والعفو والصفح والستر، فلله الحمد كله أوله وآخره، علانيته وسره، فهل من خير إلا من قِبَلِه، وهل من حسن رجاء إلا فيه.

وإن من رحمته تعالى أنه جعل للذنوب مكفرات مسقطات لعقوبتها، أو مخففات لموجب مساخطه فيها، حريّ بكل ناصحٍ لنفسه، مُبْتَغٍ لسعادتها أن يفقهها ويعمل بها، حتى إذا جاءه اليقين كان عند ربه من المفلحين. قال ابن أدهم رحمه الله:

أمـــا والله لـــو علـــم الأنـــامُ ... لِمـــا خُلقـــوا لمـــا غفلـــوا ونـــاموا
لقـــد خُلقـــوا لِمَـــا لـــو أبصـــرتْهُ ... عيـــونُ قلـــوبهم ســـاحوا وهـــاموا
ممـــاتٌ ثـــم قـــبر ثـــم حشـــرٌ ... وتـــوبيخٌ وأهـــوال عظـــامُ
ليـــوم الحـــشر قـــد عملـــت عبـــادٌ ... فصـــلّوا مـــن مخافتـــه وصـــاموا
ونحـــن إذا أُمرنـــا أو نهينـــا ... كأهـــل الكهـــف أيقـــاظٌ نيـــامُ

فيا أقدام الصبر تحمّلي فقد بقي القليل، تذكري حلاوة الدعة يَهُن عليك مُرُّ السُّرَى، قد علمت أين المنزل، فاحْدُ لها تَسِرْ، وإن هممت فبادر، وإن عزمت فثابر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر من رضي بالصف الآخر[١].

وقد ذكر تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى عشرة أسباب مانعة من العقوبة بإذن الله تعالى، وقد ذكرها في عدة مواضع من كتبه، في الفتاوى وغيرها، وقد رأيت أنَّ أجمعَ موضع لها وأحسن عرض هو ما سطّره في منهاج السنة النبوية[٢]، وقد نقلتها في باب حسن الظن بالله ليعظم ذلك في قلب المؤمن وتثمر شجرة إحسان الظن في فؤاده بمحبته وذكره وشكره وحسن عبادته، وسأذكرها باختصار:

السبب الأول: التوبة[٣]:

فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوبة مقبولة من جميع الذنوب: الكفر والفسوق والعصيان، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا

---

(١) انظر: المدهش (١/ ٢٧٤).

(٢) (٢/ ٢٠٥-٢٣٥). أما السبب العاشر فذكره في الفتاوى.

(٣) ولها باب مستقل إن شاء الله تعالى.

يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: انظروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه، وعذبوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة!

والتوبة عامة لكل عبد مؤمن كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن توبة أنبيائه ودعائهم بالتوبة في مواضع كثيرة.

والله سبحانه يرفع عبده بالتوبة، وإذا ابتلاه بما يتوب منه فالمقصود كمال النهاية لا نقص البداية، فإنه تعالى يحب التوابين، ويحب المتطهرين، وهو يبدّل بالتوبة السيئات حسنات، والذنب مع التوبة يوجب لصاحبه من العبودية والخشوع والتواضع والدعاء وغير ذلك ما لم يكن يحصل قبل ذلك، ولهذا قال طائفة من السلف[(١)]: إن العبد ليفعل الذنب فيدخل به الجنة، ويفعل الحسنة فيدخل بها النار؛ يفعلُ الذنب فلا يزال نصب عينيه إذا ذكره تاب إلى الله ودعاه وخشع له فيدخل به الجنة، ويفعل الحسنة فيُعجبُ بها فيدخل النار. وفي الأثر يقول الله تعالى: «أهل ذكري أهل مُجالستي، وأهل معصيتي لا أقنّطهم من

---

(١) نقلت عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب»(١) والتائب حبيب الله، سواء كان شابًّا أو شيخًا.

السبب الثاني: الاستغفار:

فإن الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو من جنس الدعاء والسؤال، وهو مقرون بالتوبة في الغالب، ومأمور به، لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو، وقد يدعو ولا يتوب.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: : «**أذنب عبدٌ ذنبًا فقال: اللّٰهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب**(٢)**، قد غفرت لعبدي**»(٣). والتوبة تغفر جميع السيئات وليس شيء يغفر جميع الذنوب إلا التوبة، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] هي لمن تاب(٤).

---

(١) شيخ الإسلام حفيّ بهذا الأثر ويردده كثيرًا في ثنايا مصنفاته، ولم أجده، ولعله من آثار بني إسرائيل.

(٢) وفي هذه الجملة بيان أن المذنب قد قام في قلبه خوفه من الله تعالى بأخذه بذنبه.

(٣) متفق عليه، البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨).

(٤) وقد تكون بمحض فضل الله بلا سبب من عبده.

وأما الاستغفار بدون التوبة فلا يستلزم المغفرة، ولكن هو سبب من الأسباب.

السبب الثالث: الأعمال الصالحة:

فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل يوصيه: **«يا معاذ، اتق الله حيثما كنت، وأتبع الحسنة السيئة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**(١)، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ كفارات لما بينهنّ إذا اجتنبت الكبائر»**(٢). وقال: **«من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»**(٣)، وقال: **«الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»**(٤)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢]، وفي الصحيح: **«يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين»**(٥)، وفي الصحيح: **«صوم يوم عرفة كفارة سنتين، وصوم يوم عاشوراء**

---

(١) أحمد (٥/ ١٥٣)، الحاكم (١٧٨)، والترمذي (١٩٨٧) وقال: حسن صحيح.

(٢) مسلم (٢٣٣).

(٣) متفق عليه، البخاري (٢٦) ومسلم (٨٣).

(٤) ابن ماجه (٣٩٧٣)، والترمذي (٢٦١٦)، وصححه الألباني.

(٥) مسلم (١٨٨٦) وفي رواية له بلفظ **«القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين»**.

كفارة سنة»[١].

ومثل هذه النصوص كثير، وشرح هذه الأحاديث يحتاج إلى بسط كثير، فإن الإنسان قد يقول: إذا كفر عني بالصلوات الخمس فأي شيء تكفّر عني الجمعة أو رمضان، وكذلك صوم يوم عرفة وعاشوراء؟ وبعض الناس يجيب عن هذا بأنه يكتب لهم درجات إذا لم تجد ما تكفره من السيئات.

فيقال: أولاً: العملُ الذي يمحو الله به الخطايا ويكفر به السيئات هو العمل المقبول، والله تعالى إنما يتقبّل من المتقين، قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢] [هود: ٧] قال: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، الخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[٢].

---

(١) الترمذي (٧٥٢) وقال: لا نعلم في شيء من الروايات أنه قال: **«صيام يوم عاشوراء كفارة سنة»** إلا في حديث قتادة، وبحديث قتادة يقول أحمد وإسحاق.
قلت: والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي وابن ماجه (١٧٣٨).

(٢) هذه الكلمة الفضيلية الفذّة قد نقلها شيخ الإسلام ورددها كثيرًا، وبنى على مضمونها عامة كتبه، فهي بحق عليها نور النبوة لأنها قد جمعت أطراف الدين وانتظمتها في سلك واحد، فالمشرك والمرائي مخالف لمقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، والمبتدع مخالف لمقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله، وقد جمعت هذين الشرطين وهما شرطا قبول الأعمال ـ مع الإيمان ـ آية الكهف ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ١١٠].



فصاحب الكبائر إذا اتقى الله في عمل من الأعمال تقبل الله منه، ومَنْ هو أفضلُ منه إذا لم يتق الله في عمله لم يتقبله منه وإن تقبّل منه عملاً آخر(١)، وإذا كان الله يتقبل ممن يعمل العمل على الوجه المأمور به، ففي السنن عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن العبد لينصرف عن صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفُها، إلا ثلثها، إلا ربعها**» حتى قال: «**إلا عُشرها**»(٢). وقال ابن عباس: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها. وفي الحديث: «**رب صائم حظه من صيامه العطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر**»(٣)، وكذلك الحج والجهاد وغيرهما. وقيل لبعض السلف: الحاجُّ كثير، فقال: الدَّاجُّ كثير، والحاج قليل. ومثل هذا كثير.

---

(١) أي أن التقوى في آية المائدة ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] هي التقوى في ذات العمل بخصوصه، لا مطلق التقوى، مع أنه لم يتق الله في ذلك العمل إلا بعد وجود أصل التقوى. وكلما زادت التقوى في شعب قلب المرء ارتقت أعماله لرجاء القبول، قال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: لو أعلم أن الله يتقبل مني سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إلي من الموت ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فهنا قد عمم ابن عمر ولم يخص، وبالجملة فهي عائدة إلى شروط قبول العمل الثلاثة: الإيمان، الإخلاص، الاتّباع.

(٢) أحمد (١٨٨٧٩)، وأبو داود والبيهقي وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح أبي داود وفي صلاة التراويح (١/ ١١٩).

(٣) ابن حبان (٣٤٨١)، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٠).

فالمحو والتكفير يقعُ بما يُتقبل من الأعمال، وأكثر الناس يقصّرون في الحسنات، حتى في نفس صلاتهم، فالسعيد منهم من يُكتب له نصفُها! وهم يفعلون السيئات كثيرًا، فلهذا يكفّر بما يُقبل من الصلوات الخمس شيء، وبما يُقبل من الجمعة شيء، وبما يُقبل من صيام رمضان شيء آخر، وكذلك سائر الأعمال.

وليس كل حسنة تمحو كل سيئة، بل المحو يكون للصغائر تارة، ويكون للكبائر تارة، باعتبار الموازنة(١)، والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجهٍ يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفرُ الله له به كبائر، كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُصاحُ برجل من أمتي يوم القيامة على رءوس الخلائق، فيُنشر له تسعةٌ وتسعون سجلاً،**

(١) أي أن الحسنة الكبيرة تمحو وتكفّر السيئة الكبيرة، أو العديد من الصغائر، والحسنة الصغيرة تمحو السيئة الصغيرة، وقد يكون الجنس معتبرًا هنا، لذا فعلى التائب من الربا الإكثار من الجهاد في سبيل الله، أو تجهيز الغزاة أو إخلافهم في أهلهم بخير، لأن أكل الربا حرب لله ورسوله، فمن توبته - التي لا يعلم قبولها من ردّها - أن يكثر مما ذكرناه، كذلك التائب من شرب الخمر عليه أن يكثر من الصيام، والمفرِّط في الصلوات أن يكثر من النوافل، والتائب من الزنا أن يكثر من الصدقات على الأرامل والفقيرات حماية لهن من حماة الفجور ومباءته... ونحو ذلك.
ووجد عن السلف من يطرد الأمر ويعكسه، كما أُثر عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: أبلغوا فلانًا - وقد رأت أنه آكل الربا - أنه قد أحبط جهاده مع النبي ﷺ.



كلُّ سجل منها مَدُّ البصر، فيقال: هل تنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: لا ظلم عليك، فتُخرج له بطاقة قدرُ الكفّ فيها شهادة أن لا إله إلا الله، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فتوضع البطاقة في كِفَّةٍ والسجلات في كفّة فثقلت البطاقة وطاشت السجلات»[١]، فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق[٢]، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ولم يترجّحْ قولُهم على سيئاتهم كما رجح قولُ صاحب البطاقة.

وكذلك في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه فيها العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهثُ، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رَقيَ فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له**»[٣]، وفي لفظ في الصحيحين: «**أن امرأة بغيًّا رأت كلبًا في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له مُوقها فسقته**

---

(١) كنز العمال (١/ ٢٩٦) (١٤٢١).

(٢) وهو قيد مهم، فليس كل من تلفّظ بها نفعته، وكم من عباد القبور من يلهج بها وهو ينقضها؛ إذ قد قيدت بقيود ثقال. جعلنا الله جميعًا من أهلها، وانظر استيفاء ذلك في الدرة اليتيمة والجوهرة النفيسة (تيسير العزيز الحميد) للعلامة سليمان آل الشيخ رحمه الله.

(٣) متفق عليه، البخاري (١٧٣) ومسلم (٢٢٤٤).

به، **فغُفر لها»**[١]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي في طريق، وجد غصن شوك على الطريق فأخّرَهُ فشكر الله له، فغفر له»**[٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«دخلت امرأة النار في هرّة ربطتها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»**[٣]، فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغُفر لها، وإلا فليس كل بغيٍّ تسقي كلبًا يُغفر لها، وكذلك هذا الذي نحّى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه فغُفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص[٤]، وإن الرجلين ليكون مقامُهما في الصف واحدًا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كلّ من نحّى غصن شوك عن الطريق يغفر له، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا ينالُهُ الدمُ المُهْرَاقُ، ولا اللحم المأكول، والتصدُق به، ولكن ينالُه تقوى القلوب.

وفي الأثر: «إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدًا، وبين صلاتيهما كما

(١) متفق عليه، البخاري (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥).
(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٢) ومسلم (١٩١٤).
(٣) متفق عليه، البخاري (٦٢٩٠) ومسلم (٣٨).
(٤) وانظر الكتاب الأول من هذه السلسلة (مقدمات في أعمال القلوب).





بين المشرق والمغرب».

فإذا عُرف أن الأعمال الظاهرة يعظمُ قدرها ويصغرُ قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضلُ، ولا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله، عرف الإنسان أن ما قاله الرسول ﷺ كلّه حقٌّ، ولم يضرب بعضه ببعض. وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وفي الترمذي وغيره عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: يا رسول الله، أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر، ويخاف أن يُعاقب؟ قال: «**لا يا ابنة الصديق، بل هو الرجلُ يصومُ ويصلي ويتصدّق، ويخاف ألا يتقبّل منه**»[1][2].

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تسبوا أصحابي؛ فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»[3]. وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقِلَّة أهله وكثرة الصوارف عنه، وضعف الدواعي إليه؛ لا يمكن لأحد أن يحصل له مثله ممن بعدهم، وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور وعرف المحن والابتلاء الذي

(١) أحمد (٢٥٧٠٥)، وحسنه الألباني في تخريجه لشرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٦٥).

(٢) وتأمل كيف ذكر الأعمال الثلاثة على الترتيب: الصوم لأنه سر والغالب أنه لا يدخله الرياء، ثم الصلاة سيدة الأعمال، ثم الزكاة مطهرة الروح، وقد ثلّث العبادات في جوابه كما ثلّثت الصدّيقة في سؤالها.

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١).



يحصل للناس(١) وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة.

وهذا مما يُعرف به أن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لن يكون أحد مثله، فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد(٢).

قال أبو بكر بن عياش: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه. وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسول ﷺ مؤمنين به مجاهدين معه إيمان ويقين لم يشركهم فيه مَن بعدهم، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه رفع رأسه إلى السماء، وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء(٣) فقال: «**النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعد**(٤)**، وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون**(٥)**، وأصحابي أمنة لأمتي**(٦)**،**

---

(١) ومنهم إن شاء الله تعالى المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ، فلله كم جاهد في الله حق جهاده بلسانه ويد طاقته، ولا نزكيه على الله تعالى، إنما هو ما ظهر من ثناء الأمة ثناءً متواترًا من المخالف قبل الموافق.

(٢) بل وزن إيمانه بإيمان الأمة فرجح بها، وكذلك عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كما في حديث رؤياه ﷺ في دخول الجنة. رواه أحمد (٢٢٢٣٢).

(٣) وكان شيخ الإسلام إذا قعد في مصلاه بعد الصبح ينظر إلى السماء كثيرًا، ويثبت بصره في شيء كأنه يراه، كما رواه عنه البزار في الأعلام العلية.

(٤) وهي الساعة ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨].

(٥) أي من الفتن.

(٦) لعظيم بركة أتباعهم وصلاحهم وعلمهم وفقههم وولايتهم، رضوان الله عليهم، =





=
فهم خلفاء النبوة في البلاغ والجهاد.

والنبي ﷺ قد تجاوز ليلة المعراج هذه النجوم والمجرات كلها بروحه وجسده ﷺ، فلعله يرى شيئًا لا نراه، وكم شوش كلام أهل الفلك المعاصرين صفاء تصور أهل الإسلام عن الأرض والشمس والسماوات، فتخرصوا وظنوا ووصفوا نظريات فسروها على أنها مسلمات، ومن ثم درّست في محاضن التربية والتعليم عند المسلمين حتى صارت حقائق قطعية لا تقبل الجدل ولا النقاش، ومن يفكر فقط ـ خارج صندوقهم الحديدي ـ فهو عندهم رجعي ظلامي، وفي أحسن أحواله درويش لا يفقه عالمه!

ولك أن تعجب أخي الكريم إذا علمت أن نظرية الوصول للقمر لا زالت مرفوضة عند قطاع عريض من الفلكيين الإسلاميين والغربيين، ولا زالت رواية وكالة الفضاء الأمريكية ناسا المنشورة في ٢٠ يوليو ١٩٦٩ محل شك شديد لأنهم وجدوا فيها تناقضات لا يمكن أن تجتمع بحال!

ودعك من ذلك فالخطب في الوصول للقمر يسير، بل الأمر العظيم الذي له ما بعده، وكم حجب المؤمنين عن التدبر في ملكوت سموات ربهم! فلقد استقر عندهم منذ فجر الإسلام أن الأرض مركز الكون وأنها ثابتة لا تدور، بل الشمس هي التي تدور عليها، وأن السماوات محيطة بها إحاطة الكرة، وأن كل سماء محيطة بالسماء التي دونها كالكرة، وأن كل سماء أكبر اتساعًا وأشد ضياءً مما دونها، وأنها مبنية لها أبواب، وأنها قريبة نسبيًّا «مسيرة خمسمئة عام» أي بسير الجمال، فجاءنا أولئك المتهوكون وقذفوا قلوب أمتنا بسفسطات كوبرنيك ومن بعده التي ليس لها حتى الساعة من برهان واحد، بل قصاراها الظنون والمزاعم والتخرصات! والعجب أنك إن حركت شيئًا في هذا الموضوع المتعارض مع الفلك والجغرافيا الغربية لرميت بالعجائب. ورحم الله الإمام العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين جودل في
=



=

قوله بثبات الأرض فقال بكل علم ويقين: لو خالفني أهل الأرض قاطبة لما تابعتهم على خلاف ظواهر القرآن والسنة، فالأرض ثابتة.

وللعلم فلا زال كثير من أساطين الفلك والفيزياء المعاصرين (الغربيين) يشككون في النظريات الكثيرة لأهل الفلك، فمنهم على سبيل المثال هوكنج صاحب نظرية الثقوب السوداء، وألكساندر فريدمان صاحب نظرية الانفجار العظيم، وبول ديفيس وغيرهم على سبيل الإجمال، لا زالوا متمسكين بالتالي:

١. أن دوران الأرض ليس إلا نظرية لا تزال قابلة للنقض، ولم يوجد أي دليل على صحتها.

٢. لو قال أحد بسكون الأرض وثباتها ومركزيتها للكون فلن يقدر أحد على إيجاد أي دليل على خطئه.

وأقول :

أ. إن هذه النظرية مفروضة على التعليم والإعلام، مفروضة بقرار سياسي في المقام الأول، لئلا يشعر الإنسان بالعظمة، وأن الإله قد خلق له هذا الكون، ومن ثم التهرب من المسئولية الأخلاقية تجاه هذا الخالق العظيم، وهذا المكر الإلحادي قد بدأ منذ الثورة الفرنسية.

ب. إن الكون الذي يردد الناس سعته اللانهائية بسنواته الضوئية وملايين المجرات فيه ما هو إلا ظن نتج حسابيًا وحاسوبيًا، والسبب أنهم فرضوا نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس، وما تبع ذلك من ظنون.

ج. إن كل تساؤل يطرحه من يشكك في ثبات الأرض ومركزيتها للكون فله جواب منطقي وهو ما لن تجده عند الفريق المتهوك الحائر.

د. وعلى كل حال فالمقصود من كلامنا هذا ليس نفي تلك النظريات الفلكية المذكورة، إنما هو طلب التثبت من براهينهم قبل التسليم بها، مع أنها لو صحت فليس في ديننا ما

=



فإذا ذهبت أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»(١).

والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيمًا.

السبب الرابع: دعاء المؤمنين له:

فإن دعاء المؤمنين، واستغفارهم للمؤمن، وصلاتهم على الميت ودعاءهم وشفاعتهم له من أسباب المغفرة، كذلك استغفار الملائكة له وشفاعتهم، وقد وردت بذلك عدة آيات وأحاديث.

السبب الخامس: دعاء النبي ﷺ واستغفاره في حياته وبعد مماته؛ كشفاعته يوم القيامة، فإن رسول الله ﷺ قد استغفر لأمته إبّان حياته، وسيشفع لمن أذن له من أمته يوم القيامة، وقد صحّت عنه أحاديث الشفاعة مثل قوله ﷺ: **«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**(٢)(٣).

=

يناقيها بحمد الله فللأدلة الشرعية توجيهات تتماشى معها، وعليه فنقول: إن صحت فلها توجيهها، وإن لم تصح رجعنا إلى إشارات النصوص وإن لم تصرح بها، لأنها لو صرحت لكانت قاطعة في النزاع، وبالله التوفيق.

(١) مسلم (٢٥٣١)، وقد اختصرنا واقتصرنا في كلامه على الصحابة، وقد تركت كلامًا نفيسًا خاصة عن خال المؤمنين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلتراجعه في المجلد السادس من المنهاج.

(٢) الحاكم (٣٤٤٢)، وأبو داود (٤٧٤١) وصححه الألباني.

(٣) والشفاعة إنما تُطلب من الله، فنسأل الله تعالى أن يُشفّع فينا نبيه ﷺ، آمين.

السبب السادس: ما يُفعل بعد الموت من عمل صالح يُهدى له:

مثل من يتصدق عنه، ويحج عنه، ويصوم عنه، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن ذلك يصل إلى الميت وينفعه، وهذا غير دعاء ولده، فإن ذلك من عمله وكسبه بخلاف غيره. قال النبي ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**»(١).

السبب السابع: المصائب الدنيوية، التي يكفر الله بها الخطايا:

كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**ما يصيبُ المؤمن من وصَبٍ ولا نصبٍ ولا غمّ ولا همّ ولا حزن ولا أذى، حتى الشوكة يُشاكُها؛ إلا كفّر الله بها من خطاياه**»(٢)، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع، تُفيئُها الرياحُ، تقوِّمُها تارة، وتميلُها أخرى، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرْزَة**(٣) **لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة**»(٤) وهذا المعنى متواتر عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة.

السبب الثامن: ما يُبتلى به المؤمن في قبره من الضغطة والرَّوعة وفتنة الملكين(٥).

---

(١) مسلم (١٦٣١).

(٢) مسلم (٢٠٣)..

(٣) وهي الصنوبر.

(٤) مسلم (٢٨٠٩).

(٥) كما جاء في حديث عائشة مرفوعًا: «**إن للقبر لضغطة لو سلم منها أحد لسلم منها سعد بن**
=

السبب التاسع: ما يحصل له في الآخرة من كُرب وأهوال يوم القيامة، وهي شديدة جدًّا، وكُرَب يوم القيامة لا تشبهها كرب، كالفزع والحشر وإدناء الشمس على الخلائق والعطش وجواز الصراط المنصوب على متن جهنم وغير ذلك، كذلك اقتصاص الله تعالى لعباده المؤمنين من بعضهم قبل دخول الجنة، وفي الصحيحين «**أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيُقتص لبعضهم من بعض، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة**»[(١)].

السبب العاشر: رحمةُ الله وعفوُهُ ومغفرته بلا سبب من العباد، والأحاديث في هذا كثيرة[(٢)].

هذا وليحسن العبد ظنه بربه، فلا عذاب إلا بعد إقامة الحجة الرسالية، فالله تعالى يقضي يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع في جملة الخلق[(٣)].

=

معاذ» رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٢/ ٥٣٢) (١١١٤). وسنده صحيح.

(١) البخاري (٦٥٣٥).

(٢) ومنها حديث الجهنميين: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون... ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض من النار قبضة لم يعملوا خيرًا قط**» رواه البخاري (٦/ ٥٦) ومسلم (١/ ١١٤) وعمومات «**سبقت رحمتي غضبي**» رواه البخاري (٤/ ١٢٩) ومسلم (٨/ ٩٥)، ونحو ذلك.

(٣) طريق الهجرتين (٢/ ٩٠٠).

إحسان الظن بحكمة الله تعالى

القضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد: القدرُ قدرة الله(١)، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر(٢).

ومصدرُ الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزّته وحكمته، ولهذا يقرن الله تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاث كثيرًا، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢]، وقال في فصّلت بعد ذكر تخليق العالم: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]، وذكر نظير هذا في الأنعام فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي ألا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطُهُ بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه، وارتباطُه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب تعالى.

---

(١) مسائل ابن هانئ (٢/ ١٥٥) الفتاوى (٨/ ٣٠٨).

(٢) انظر: شفاء العليل (٦٣)، وقد بسطت القول في ذلك في كتاب (الرضا بالله تعالى فصل (القدر والشرع) ضمن هذه السلسلة.



وكذلك ارتباط أمره بعلمه وحكمته وعزّته، فهو عليم بخلقه وأمره، حكيم في خلقه وأمره، عزيز في خلقه وأمره.

ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنى، والحكمة من صفاته العُلى، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة. والحكمة هي سنة الرسول ﷺ، وهي تتضمن العلم بالحق، والعمل به، والخبر عنه، والأمر به؛ فكل هذا يُسمى حكمة[(١)].

«وإنما يتبين هذا ببيان وجود الحكمة في كل ما خلقه الله وأمر به، وبيان أنه كله خير من جهة إضافته إلى الله تعالى، وأنه من تلك الإضافة خير وحكمة، وأن جهة الشر منه من جهة إضافته إلى العبد، كما قال النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح: «**لبيك وسعديك، الخيرُ في يديك، والشر ليس إليك**»[(٢)].

فهذا النفي يقتضي امتناع إضافة الشر إليه تعالى بوجه، فلا يضاف إلى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله. فإن ذاته تعالى مُنزّهة عن كل شر، وصفاته كذلك، إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل وإحسان، لا تخرج عن ذلك البتة، وهو المحمود على ذلك كله، فيستحيل إضافة الشر إليه.

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٩٦ـ١٩٩) باختصار.

(٢) مسلم (٧٧١).



وتحقيق ذلك أن الشر ليس هو إلا الذنوب وعقوبتها، كما في خطبته ﷺ: «**الحمد لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا**»(١)، فتضمن ذلك الاستعاذة من شرور النفس، ومن سيئات الأعمال وهي عقوباتها، وهذه الاستعاذة النبوية قد اشتملت على الاستعاذة من أصول الشر كله، وهي شر النفس الكامن فيها، الذي لم يخرج إلى العمل، وشر العمل الخارج الذي سوّلته النفس. فالأول شر الطبيعة والصفة التي في النفس، والثاني شر العمل المتعلّق بالكسب والإرادة. ويلزم المعافاة من هذين الشرّين المُعافاة من موجَبهما وهو العقوبة، فتكون هذه الاستعاذة قد شملت جميع أنواع الشر بالمطابقة واللزوم، وهذا النوع من الكلام هو من جوامع كلمه البديعة العظيمة الشأن ﷺ التي لا يعرف قدرها إلا أهلُ العلم والإيمان(٢).

إذا عُرِف هذا، فذات الرب تعالى مستلزمة للحكمة والخير والجود، وذاتُ العبد مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمرٌ خارج عن نفسه. فمن أراد الله به خيرًا أعطاه هذا الفضل، فصدرَ منه(٣) موجَبُهُ من الإحسان والبر والطاعة. ومن أراد به شرًّا أمسكه عنه، وخلّاه ودواعي نفسه وطبعها وموجبها، فصدر منه موجبُ الجهل والظلم من

---

(١) أحمد (٣٧٢١)، وأبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢) بسند صحيح.

(٢) وللاستعاذة كتاب مستقل بمشيئة الله تعالى. وانظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٥١)، وبدائع الفوائد (٧١٦)، والداء والدواء (١٧٨).

(٣) أي من العبد.

كل شر وقبيح. وليس منعه لذلك ظلمًا منه تعالى، فإنه فَضْلُهُ، وليس من مَنَع فضله ظالمًا، لاسيما إذا منعه عن من لا يستحقه ولا يليق به.

وأيضًا فإن هذا الفضل هو توفيقه وإرادته من نفسه أن يلطف بعبده، ويوفقه ويعينه، ولا يخلي بينه وبين نفسه، وهذا محض فعله وفضله، وهو سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لهذا الفضل، ويليق به، ويثمر فيه، ويزكو به.

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فأخبر سبحانه أنه أعلم بمن يعرف قدر هذه النعمة ويشكره عليها، فإن أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المُنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعِم بها لم يشكرها أيضًا، ومن عرف النعمة والمنعم ولكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعِم عليه فقد كفرها ولم يشكرها، ومن عرف النعمة والمنعِمَ، وأقرَّ بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له، ويحبه، ويرضى به وعنه، لم يشكرها أيضًا، ومن عرفها، وعرف المنعِمَ بها، وأقرّ بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابّه وطاعته فهذا هو الشاكر لها.

فالخير كله من الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ



ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فالنعم كلها ـ من نعم الدين والدنيا، وثواب الأعمال في الدنيا والآخرة ـ من نعم الله ومنّه وفضله على عبده، وهو تعالى وإن كان أجودَ الأجودين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، فإنه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، لا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، ولا يناقض جودُه ورحمتُه وفضلُه حكمتَه وعدله.

ومن المعلوم أن أجلّ نعمه على عبده نعمةُ الإيمان به، ومعرفته، ومحبته، وطاعته، والرضا به، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والتزام عبوديته.

ومن المعلوم أيضًا أن الأرواح منها الخبيث الذي لا أخبث منه، ومنها الطيب، وبين ذلك، وكذلك القلوب منها القلب الشريف الزكي، والقلب الخسيس الخبيث، وهو سبحانه خلق الأضداد كما خلق الليل والنهار، والبر والبحر، والحر والبرد، والداء والدواء، والعلو والسفل، وهو أعلمُ بالقلوب الزاكية والأرواح الطيبة التي تصلح لاستقرار هذه النعم فيها، وإيداعها عندها، ويزكو بذرها فيها، فيكون تخصيصه لها بهذه النعم كتخصيص الأرض الطيبة القابلة للبذر بالبذر(١)، فليس من الحكمة أن يبذرَ البُرَّ في الصخور والرمال والسباخ، وفاعل ذلك غير حكيم. فما الظنُّ ببذر الإيمان والقرآن والحكمة ونور

---

(١) وقد يكون استدراجًا ومكرًا لحكمة ربانية، فيودعها ثم يسلبها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



المعرفة والبصيرة في المحالِّ التي هي أخبث المحالّ؟!

فالله عز وجل أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراثًا[(١)]، فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة، والنصيحة، وتعظيم المرسِل، والقيام بحقه، والصبر على أوامره، والشكر لنعمه، والتقرب إليه، ومن لا يصلح لذلك. وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رسله، والقيام بخلافتهم، وحمل ما بلّغوه عن ربهم.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن الله نظر في قلوب العباد، فرأى قلب محمد ﷺ خيرَ قلوب أهل الأرض، فاختصه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد، فرأى قلوب أصحابه خيرَ قلوب العباد، فاختارهم لصحبته»[(٢)].

فالرب سبحانه إذا عَلِمَ من المحل أهليةً لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده حبب إليه ذلك، ووضعه فيه، وكتبه في قلبه[(٣)]، ووفقه له، وأعانه عليه، ويسّر له طرقه، وأغلق دونه الأبواب التي تحول بينه وبين ذلك، ثم تولّاه بلطفه وتدبيره وتيسيره وتربيته أعظم من تربية الوالد الشفيق[(٤)] الرحيم المحسن لولده الذي هو

---

(١) أصلاً بالنبوة والرسالة، وميراثًا بالعلم والعمل.

(٢) أحمد (٣٦٠٠)، والبزار في كشف الأستار (١٣٠) وحسن سنده زائد النشيري في تخريجه لأحاديث وآثار طريق الهجرتين (١/ ٢٠٩).

(٣) ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧] فنسأل الله الكريم من فضله.

(٤) ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

أحب شيء إليه. فلا يزال يعامله بلطفه، ويختصه بفضله، ويؤثره برحمته، ويمدّه بمعونته، ويؤيده بتوفيقه، ويريه مواقع إحسانه إليه وبره به؛ فيزداد العبدُ به معرفةً، وله محبة، وإليه إنابة، وعليه توكلاً، ولا يتولى معه غيره، ولا يعبد سواه، وهذا هو الذي عرف قدر النعمة، وعرف المنعِم، وأقرّ بنعمته، وصرفها في مرضاته، فاقتضت حكمة الرب تعالى وجودُه وكرمُه وإحسانُه أن بذر في هذا القلب بذر الإيمان والمعرفة، وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح، وأطلع عليه من نوره شمس الهداية وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة، فأنبتت أرضه الزاكية من كل زوج كريم، كما في الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**مثلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضًا، فكان منها طائفةٌ طيّبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها طائفة أجادبُ أمسكت الماء، فسقى الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان**[١]

---

(١) قيعان: جمع قاع. قال ابن الأثير في النهاية (٤/ ٢٢٥): القاع هو المكان المستوي الواسع في وَطْأَة من الأرض، يعلوه ماء السماء فيمسكه ويستوي نباته. وفي تاج العروس للحسيني (١٠٤): القاع: أرض سهلة مطمئنة واسعة مستوية، حُرَّةٌ لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط، قد انفرجت عنها الجبال والآكام، ولا حصى فيها ولا حجارة، ولا تنبت الشجر، وما حواليها أرفع منها، وهي مصب المياه. وقيل: هو منقع الماء في حُرِّ الطين. وقيل: هو ما استوى من الأرض وصلب ولم يكن فيه نبات. وفي اللسان نسب عن الأزهري قوله: ولقد رأيت قيعان الصمان، وأقمت بها شتوتين، الواحد منها قاع، وهي أرض صلبةُ القِفَافِ، حُرَّةُ طين القيعان، تمسك الماء وتنبت العشب (٨/ ٣٠٤).

=

لا تمسكُ ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فَقُهَ في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[١].

فمثّل القلوب بالأرض التي هي محلّ النبات والثمار، ومثَّل الوحيَ الذي وصل إليها من بارئها وفاطرها بالماء الذي ينزل على الأرض، فمن الأرضِ

=

أما الأجادب. وفي بعض الروايات: إخاذات. فهي صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا يسرع إليها النضوب، كما ذكره البغوي في شرح السنة ونسبه للأصمعي كذلك، وانظر شرح النووي لصحيح مسلم (١٥/ ٤٦)، وقال عن القيعان إنها الملساء التي لا نبت فيها.

قلت: والقيعان لها في اللغة ثلاث معان، ولا زال هذا عند عامتنا: أحدها: الذي لا يمسك الماء لوقت طويل، لكنه كثير العشب مختلطه، لنقل السيول البذور والتراب إليه وجمعها فيه، وشواهده كثيرة في الصمان كما ذكره الأزهري، وهو المراد بالأجادب في هذا الحديث. والثاني: القاع الأملس الذي يخزن الماء في أعلاه، ولا ينبت شيئًا إذا جف، وتكثر هذه القيعان والخزانات المائية في الحِرَار. واستعمال القاع بهذين المعنيين شائع عند العامة، والقليل منهم من يستعمله في المعنى الثالث وهو المقصود من تلك الحروف النبوية، وهو: قاع الأرض السبخة التي لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، وهي كثيرة خاصة في أطراف حرار الحجاز، وهي المرادة بالقاع في هذه الألفاظ النبوية الشريفة. وقد ذكر ابن بطال في شرح البخاري (١/ ١٦٣) والعثيمين في شرح رياض الصالحين (١/ ١٨٤) أن القاع في هذا الحديث إنما هو الأرض السبخة.

وبهذا تجتمع المعاني بحمد لله؛ لأن من الناس من لا يذكر القاع إلا المعشب، وهذا قصور لغوي. والله أعلم.

(١) متفق عليه. البخاري (٧٩)، مسلم (٢٢٨٢).





أرضٌ طيّبة قابلة للماء والنبات، فلمّا أصابها الماء أنبتت ما انتفع به الآدميون والبهائم، وهذا بمنزلة القلب القابل لهدى الله ووحيه، المستعد لزكائه وثمرته ونمائه، وهذا خير قلوب العالمين.

ومن الأرضِ أرضٌ صلبة منخفضةٌ غير مرتفعة ولا رابية، قابلة لحفظ الماء واستقراره فيها، ففيها قوّة الحفظ وليس فيها قوّة النبات، فلمّا حصل فيها الماءُ أمسكته وحفظته، فوردهُ الناس لشربهم وشرب مواشيهم، وسقوا منه زروعهم، وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحي وضبطه، وأدَّاهُ إلى من هو أفهم له منه، وأفقهُ منه فيه، وأعرف بمراده، وهذا في الدرجة الثانية.

ومن الأرض أرضٌ قيعانٌ، وهي المستوية التي لا تُنبت، إما لكونها سبخة[(١)]، أو رمالاً، ولا يستقر فيها الماء، فإذا وقع عليها الماء ذهب ضائعًا، لم تمسكه لشرب الناس، ولم تنبت به كلأ لأنها غير قابلة لحفظ الماء، ولا لنبات الكلأ والعشب[(٢)]، وهذا حال أكثر الخلق، وهم الأشقياء الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسًا، ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين[(٣)]، بل لابد لكل مسلم

---

(١) وبعضهم يذكرها بالصاد (صبخة). وحروف الصفير ينوب بعضها عن بعض.

(٢) قلت: فالقسم الأول: هم أهل الفتوى والتعليم والعلم والعمل، والثاني: أهل الرواية للعلم كالمحدثين ومعلمي القرآن الكريم مع قلة العمل، والثالث: من حرم بركة العلم والعمل.

(٣) وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأكثر أهل الأرض كفرة ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].



أن يزكو الوحيُ في قلبه فينبت العمل الصالح والكلم الطيب، وينفع نفسه وغيره بحسب قدرته. فمن لم ينبت قلبُه شيئًا من الخير البتة فهذا من أشقى الأشقياء، فصلوات الله وسلامه على مَن الهدى والبيانُ والشفاءُ والعصمةُ في كلامه وفي أمثاله»(١).

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود: أن الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه، ومن يصلحُ لها ومن لا يصلح، وأن حكمته تأبى أن يضع ذلك عند غير أهله، كما تأبى أن يمنعه من يصلح له، وهو سبحانه الذي جعل المحلَّ صالحًا، وجعله أهلًا وقابلًا، فمنه الإعداد والإمداد، ومنه السبب والمسبَّب، ومن اعترض بقوله: فهلّا جعل المَحَالَّ كلَّها كذلك، وجعل القلوب على قلب واحد؟ فهو من أجهل الناس وأضلِّهم وأسفههم، وهو بمنزلة من يقول: لِمَ خلَقَ الأضداد؟ وهلّا جعلها كلّها سببًا واحدًا؟ فَلِمَ خلق الليل والنهار، والفوقَ والتحت، والحر والبرد، والدواء والداء، والشياطين والملائكة، والروائح الطيبة والكريهة، والحلو والمرّ، والحسن والقبيح؟ وهل يسمحُ خاطرُ من له أدنى مِسْكَة من عقل بمثل هذا السؤال الدّالّ على حمق سائله، وفساد عقله.

وهل ذلك إلا موجب ربوبيته وإلهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته، ويستحيلُ أن يتخلّف موجب صفات كماله عنها.

وهل حقيقةُ المُلْكِ إلا بإكرام الأولياء وإهانة الأعداء؟ وهل تمامُ الحكمة

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٩٩-٢١١) باختصار.





وكمال القدرة إلّا بخلق المتضادات والمختلفات، وترتيب آثارها عليها، وإيصال ما يليق بكل منها إليه؟ وهل ظهور آثار أسمائه وصفاته في العالم إلا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فهل يكون رزّاقًا وغفارًا وعفوًّا وحليمًا ورحيمًا، ولم يوجد من يرزقه، ولا من يغفر له، ويعفو عنه، ويحلم عنه، ويرحمه؟ وهل انتقامه إلا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فَمِمَّنْ ينتقم إن لم يكن له أعداء ينتقم منهم، ويُري أولياءه كمال نعمته عليهم، واختصاصه إياهم دون غيرهم بكرامته وثوابه؟

وهل في الحكمة الإلهية تعطيل الخير الكثير لأجل شر جزئي يكون من لوازمه؟ فهذا الغيثُ الذي يحيي به الله البلاد والعباد والشجر والدواب، كم يحبس من مسافر ويمنع من قصار[1] ويهدم من بناء، ويعوق من مصلحة، ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح؟ وهل هذه المفاسد في جنب مصالحه إلا كتفلةٍ في بحر؟ وهل تعطيله لئلا تحصل به هذه المفاسد إلا موجبًا لأعظم المفاسد والهلاك؟

وهذه الشمس التي سخّرها اللهُ لمنافع عباده، وإنضاج ثمارهم وأقواتهم، وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير، وفيها من المنافع والمصالح ما فيها، كم تؤذي مسافرًا وغيره بحرها؟ وكم تجفف رطوبة؟ وكم تعطّش حيوانًا؟ وكم تحبس عن مصلحة؟ وكم تنشّف من مورد، وتحرق من زرع؟ ولكن أين يقع هذا في جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية المكملة؟ فتعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كثير، وهو خلافُ موجبِ الحكمة الذي تنزه الله سبحانه عنه.

(١) القصّار: هو الذي يدقُّ الثياب بالقَصَرة ـ قطعة من الخشب ـ ويبيّضها.



قلت لشيخ الإسلام[١]: فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة عن المفاسد مشتملة على المصلحة الخالصة؟

فقال: خلْقُ هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع، فإن وجود الملزوم بدون لازمه محال، ولو خُلقتْ على غير هذا الوجه لكانت غير هذه، ولكان عالمًا آخر غير هذا. قال: ومن الأشياء ما تكون ذاته مستلزمةً لنوع من الأمور لا ينفكّ عنه، كالحركة مثلًا المستلزمة لكونها لا تبقى. فإذا قيل: لِمَ لم تخلق الحركة المعينة باقية؟ قيل: لأن ذات الحركة تتضمن النقلة من مكان إلى مكان، والتحوّل من حال إلى حال، فإذا قُدّر ما ليس كذلك لم يكن حركة. ونفسُ الإنسان هي في ذاتها جاهلةٌ عاجزةٌ فقيرةٌ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨] وإنما يأتيها العلم والقدرة والغنى من الله بفضله ورحمته، فما حصل لها من كمال وخير فمن الله، وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب

(١) ويعني به ابن تيمية، فهو شيخه عند الإطلاق، وشيخ الإسلام عند الإطلاق. قال الحافظ ابن حجر في تقريظه على الرد الوافر لابن ناصر الدين : «ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، صاحب التصانيف النافعة التي انتفع بها الموافق والمخالف؛ لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته.
فكيف وقد شهد له بالتقدّم في العلوم، والتميّز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره من الشافعيّة وغيرهم، فضلًا عن الحنابلة» (الجواهر والدرر: ٧٣٦).
وقال العلامة البلقيني وقد ذكر مناقبه: «ومن هذا شأنه كيف لا يُلقَّب بشيخ الإسلام، وينوّه بذكره بين العلماء الأعلام؟» (جلاء العينين – الهامش: ٩٧).



الظلم والشر فهو منها ومن حقيقتها. وهذه أمور عدميّة وليس لها من نفسها وجود ولا كمال، والأمور العدمية من لوازم وجودها، ولو جعلت على غير ذلك لم تكن هي هذه النفس الإنسانية بل مخلوقًا آخر.

فحقيقة نفس الإنسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة، والشر الذي يحصل لها نوعان: عدم، ووجود.

فالشر الأول: الشر العَدَمي؛ كعدم العلم والإيمان والصبر وإرادة الخيرات، وعدم العمل بها، وهذا العدم ليس له فاعل، إذ العدم المحض لا يكون له فاعل، لأن تأثير الفاعل إنما هو في أمر وجودي، وكذلك عدم استعدادها للخيرات والكمالات هو عدمٌ محضٌ ليس له فاعل، فإن العدم ليس بشيء أصلًا، وما ليس بشيء لا يقال إنه مفعول لفاعل، فلا يقال إنه من الله، إنما يحتاج إلى الفاعل الأمور الوجودية. ولهذا من قول المسلمين كلهم: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. فكل كائن فبمشيئته كان، وما لم يكن فلعدم مشيئته.

والمقصود أن ما عدمته النفس من كمالها فمنها، فإنها لا تقتضي إلا العدم، أي عدم استعداد نفسها وقوّتها هو السبب في عدم هذا الكمال. فإنه كما يكون أحد الوجودين سببًا للآخر، فكذلك أحد العَدَمين يكون سببًا لعدم الآخر. والموجود الحادث يضاف إلى السبب المقتضي لإيجاده، وأما المعدوم فلا يحتاج استمراره على العدم إلى فاعل يُحدث العدم، بل يكفي في استمراره عدم مشيئة الفاعل المختار له، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لانتفاء مشيئته، فانتفاء مشيئة كونه سبب عدمه، فظهر استحالة إضافة هذا الشر إلى الله عز و جل.

وأما الشر الثاني: وهو الشر الوجودي؛ كالعقائد الباطلة، والإرادات الفاسدة، فهو من لوازم ذلك العدم، فإنه متى عُدِمَ ذلك العلم النافع والعمل الصالح من النفس؛ لزم أن يَخْلُفَهُ الشرُّ والجهل وموجبها ولا بد، لأن النفس لا بد لها من أحد الضدّين فإذا لم تشتغل بالضد النافع الصالح اشتغلت بالضد الضار الفاسد.

وهذا الشر الوجودي هو من خلقه تعالى، إذ لا خالقَ سواه، وهو خالقُ كلِّ شيء، لكن كل ما خلقه الله فلا بد أن يكون له في خلقه حكمة لأجلها خلقه، لو لم يخلقه فاتت تلك الحكمة، وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة التي هي أحب إليه سبحانه من الخير الحاصل بعدمها، فإن في وجودها من الحكمة والغايات التي يُحمد عليها سبحانه أضعاف ما في عدمها من ذلك، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة العظيمة لأجل ما يحصل للنفس من الشر، مع ما حصل من الخيرات التي لم تكن تحصل بدون هذا الشر، ووجود الشيء لا يكون إلا مع وجود لوازمه وانتفاء أضداده، فانتفاء لوازمه يكون ممتنعًا لغيره، وحينئذ فقد يكون هديُ هذه النفوس الفاجرة وسعادتها مشروطًا بلوازم لم تحصل، أو بانتفاء أضداد لم تنتف.

فإن قيل: فهلا حصلت تلك اللوازم وانتفت تلك الأضداد؟ فهذا هو السؤال الأول، وقد بيَّنَّا أن لوازم هذا الخلق وهذه النشأة وهذا العالَمَ لا بد منها، فلو قُدِّرَ عدمُها؛ لم يكن هذا العالم، بل عالما آخر، ونشأة أخرى، وخلقًا آخر(١).

(١) وهذا يجيب على كثير من أسئلة الملاحدة والشكوكيين.



وبيّنّا أن هذا السؤال بمنزلة أن يقال: هلّا تجرد الغيث والأنهار عما يحصل به من تغريق وتخريب وأذى؟ وهلّا تجردت الشمس عما يحصل منها من حرّ وسموم وأذى؟ وهلّا تجردت طبيعة الحيوان عما يحصل له من ألم وموت وغير ذلك؟ وهلّا تجردت الولادة عن مشقّة الحمل والطلق وألم الوضع؟ وهلا تجرد بدن الإنسان عن قبوله للآلام والأوجاع واختلاف الطبائع الموجبة لتغيّر أحواله؟ وهلّا تجردتْ فصولُ العام عما فيها من البرد الشديد القاتل، والحر الشديد المؤذي؟

فهل يقبل عاقل هذا السؤال أو يورده؟ وهل هذا إلا بمنزلة أن يقال: لم كان المخلوق فقيرًا محتاجًا، والفقرُ والحاجة صفة نقص، فهلّا تجرّد منها، وخُلِعَتْ عليه خِلْعَةُ الغنى المطلق والكمال المطلق؟ فهل يكون مخلوقًا إذا كان غنيًّا غنى مطلقًا، ومعلومٌ أن لوازم الخلق لا بد منها فيه؟

ولا بد للعلوِّ من سفل، والسّفل من مركز[١] ولوازم العلو من السعة والإضاءة والبهجة والخيرات، وما هناك من الأرواح العلوية النيّرة المناسبة

(١) وهذا قريب من نظرية نيوتن في الجاذبيّة الأرضية، فقد سبقه أولئك الأئمة الأفذاذ، ولابن حزم وابن تيمية كلام نحو هذا كذلك، وانظر الرسالة العرشية لابن تيمية، كذلك لابن حزم السبق في نظريّة السببية وغيرها من نظريات العلم التجريبي الحديث. وكلام ابن القيم هنا هو في العلو والسفل المعنوي، وما يتبعه من علو حسي، ولاحظ تكراره للمركز، وهو باطن الأرض السفلى «سجين». أما نيوتن فكلامه على الحسِّي فقط.



لمحلها وما يليق بها ويناسبها من الابتهاج والسرور والفرح والقوة والتجرد من علائق المواد السفلية لا بد منها. ولوازم السفل والمركز من الضيق والحصر، ولوازم ذلك من الظلمة والغلظ والشر، وما هنالك من الأرواح السفلية المظلمة الشريرة، وأعمالها وآثارها لا بد منها.

فهما عالمان علوي وسفلي، ومحلان، وساكنان تناسبهما مساكنهما وأعمالهما وطبائعهما، وقد خُلِقَ كلّا من المحلّين معمورًا بأهليه وساكنيه، حكمة بالغة، وقدرة قاهرة، وكل من هذه الأرواح لا يليق بها غير ما خلقت له مما يناسبها ويُشاكلها[1] قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] أي: على ما يُشاكله ويناسبه ويليق به، كما يقول الناس: كلُّ إناء بالذي فيه ينضح.

فمن أرادتْ من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصديقين بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين، ولو أن ملكًا من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سِفْلَةَ الناس وسَقَطَهم وغرثهم الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة؛ لقدح الناس في ملكه، وقالوا: لا يصلحُ للملك، فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره، وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه، ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم؟ أفيليقُ بذلك الرفيق الأعلى والمحلّ الأسنى والدرجات العلى روحٌ سفليةٌ أرضية قد أخلدت إلى الأرض، وعكفت على ما تقتضيه طبائعها مما تشاركه فيه بل قد تزيد على

(١) المشاكَلَة: هي المشابَهَة.



الحيوان البهيم، وقصرت همتها عليه، وأقبلت بكلّيّتها عليه، لا ترى نعيمًا ولا لذة ولا سرورًا إلا ما وافق طباعها من كل مأكل ومشرب ومنكح من أين كان وكيف اتفق؟ فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد، وإلا فالقلبُ والطبع على شاكلة قلوب هذه الحيوانات وطباعها، وربّما كانت طباع الحيوانات خيرًا من طباع هؤلاء وأسلمَ وأقبلَ للخير[1] ولهذا جعلهم الله سبحانه شرّ الدواب فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢- ٢٣].

فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البريّة وأزكى الخلق، وبين شرّ البرية وشرّ الدّوابّ في دار واحدة، يكونون فيها على حال واحدة من النعيم أو العذاب قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥- ٣٦] فأنكر عليهم الحُكم بهذا، وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار، ليُنبّه العقولَ على أن هذا مما تحيله[2] الفطر وتأباه العقول السليمة، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]

---

(١) وهذه البهائم المعجمة والجمادات الساكنة مسبّحة بحمد ربها وفاطرها ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤] بل كانت الأحجار والأشجار والدواب تسلم على نبي الله ﷺ وتشهد له بالنبوة والرسالة.

(٢) أي تقول باستحالته.

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] بل الواحد من الخلق لا تستوي أعاليه وأسافلُه، فلا يستوي عقبُه وعينُه، ولا رأسه ورجلاه، ولا يصلح أحدُهما لما صلح له الآخر، فالله عز و جل قد خلق الخبيث والطيب، والسهل والحَزَن(١)

(١) الحَزَن: الصعب، من الحزونة وهي الخشونة، وضده اليُسر والسهولة. أما الحُزْنُ فهو الكآبه وضده السرور. وقد يطلق بفتحتين على الكآبة "حَزَن" كما في بعض روايات سنن أبي داود: «**اللّٰهم إني أعوذ بك من الهم والحزن**» أما رواية البخاري فعلى الجادّة، والله أعلم. وضبط تشكيل حركات الأذكار من الأهميّة بمكان، وهو من حسن المتابعة.

قال الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : (٨ / ٣٤١) «الحزن: بضم الحاء وسكون الزاي وبفتحهما» وقال في (٨ / ٤٦٦): «الحزن بفتحتين وبضم فسكون مثل رَشَد ورشُد».

أما أهل اللغة فقد جعلوا بابها واحدًا ومردُّه إلى الشدة والخشونة سواء في المشاعر أو المحسوسات، قال ابن فارس: «الحاء والزاء ـ قلت: ولم يقل زين كما يغلط طائفة ـ والنون أصلٌ واحد، وهو خشونة الشيء، وشدّة فيه، فمن ذلك: الحَزْنُ، وهو ما غلُظ من الأرض، والحُزْنُ معروف ـ قلت: وهو الكآبة ـ يقال: حَزَنَنِي الشيءُ يَحْزُنُنِي، وقد قالوا: أحزَنَنِي، وحُزَانَتُك: أهلُكَ ومن تتحزَّن له» (معجم المقاييس: ٢٤٢).

وفي كتاب العين للخليل بن أحمد (٣ / ١٦٠): «حزن: الحُزْن والحَزَن لغتان، إذا ثقّلوا فتحوا وإذا ضمّوا خفّفوا، يقال: أصابه حَزَنٌ شديدٌ، وحُزْنٌ شديد، ويقال: حَزَنَني الأمرُ يَحْزُنُني فأنا محزون، وأحزنني فأنا مُحْزَنٌ، وهو مُحْزونٌ لغتان أيضًا . ورُوي عن أبي عمرو: إذا جاء الحَزَنُ منصوبًا فَتَحوه وإذا جاء مكسورًا أو مرفوعًا ضَمّوه، قال اللهُ عزَّ وجلَّ:
=

والضار والنافع وهذه أجزاء الأرض منها ما يصلح جلاء للعين ومنها ما يصلح للأتون والنار، وبهذا ونحوه يُعرف كمال القدرة وكمال الحكمة، فكمال القدرة بخلق الأضداد، وكمال الحكمة بتنزيلها منازلها، ووضع كل منها في موضعه. والعالِمُ من لا يُلقي الحربَ بين قدرة الله وحكمته، فإن آمنَ بالقدرة قَدَحَ في الحكمةِ وعطَّلها، وإن آمن بالحكمة قَدَحَ في القدرة ونَقَصَها، بل يربطُ القدرة بالحكمة، ويعلَم شمولهما لجميع ما خلقه الله ويخلقه، فكما أنه لا يكون إلا بقدرته ومشيئته، فكذلك لا يكون إلا بحكمته.

وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة بهذا تفصيلًا، فيكفيها الإيمانُ

=

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: ٨٤] وقال عزَّ اسمُه: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: ٩٢] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] ضَمُّوا الحاء هنا لكَسْرة النون، كأنّه مجرور في استعمال الفعل. وإذا أفردُوا الصَّوْتَ والأمْرَ قالوا: أمْرٌ مُحزن، وصَوْتٌ مُحزن، ولا يقال: حازن. والحَزْنُ من الأرض والدَّوابِّ: ما فيه خُشونة، والأنثى حَزْنة وقد حَزُنَ حُزونةً».

وفي مختار الصحاح (١ / ١٦٧): «ح ز ن : الحُزْنُ و الحَزَنُ ضد السرور وقد حَزِنَ من باب طرب، وحُزْنا أيضا فهو حَزِنٌ وحَزِينٌ، وأحْزَنَهُ غيره وحَزَنَهُ أيضا مثل أسلكه وسلكه، ومَحْزُونٌ بني عليه، وحَزَنَهُ لغة قريش، وأحْزَنَهُ لغة تميم، وقرئ بهما، واحْتَزَنَ وتَحَزَّنَ بمعنى، وفلان يقرأ بالتَّحْزين إذا أرقّ صوته به، والحَزْنُ ما غلظ من الأرض وفيها حُزُونةٌ» وقال ابن دريد في جمهرة اللغة (١/ ٢٧٠): «الحَزْن: الغِلَظ من الأرض، مثل الحَزْم سواء. وقد فصل قوم فزعموا أن الحَزْن أغلظ من الحَزْم، وليس بالمعروف والجمع حُزون» قلت: والعامة عندنا لا يعرفون غير الحزم.

بما تعلمُ وتشاهد منه، ثم تستدلّ على الغائب بالشاهد، وتعتبر ما علمت بما لم تعلم، وقد ضرب الله الأمثال لعباده في كتابه، وبين لهم ما في لوازم ما خلقه لهم وأنزله عليهم من الغيث الذي به حياتهم وأقواتهم وحياة الأرض والدواب، وما خلقه لهم من النار التي بها صلاح أبدانهم وأقواتهم وصنائعهم من الشر الجزئي المغمور بالإضافة إلى الخير الحاصل بذلك فقال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

فأخبر سبحانه أن الماء بسبب مخالطته الأرض إذا سال فلا بد من أن يحمل السيل من الغثاء والوسخ وغيره زبدًا عاليًا على وجه السيل، فالذي لا يعرف ما تحت الزبد يقصر نظره عليه، ولا يرى إلا غثاءً ووسخًا ونحو ذلك، ولا يرى ما تحته من مادّة الحياة. وكذلك ما يُستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها إذا أُوقد عليها في النار لتتهيأ للانتفاع بها خرج منها خبَثٌ ليس من جوهرها ولا ينتفع به، وهذا لا بدّ منه في هذا وهذا.

وقد ذم تعالى من ضعُفَتْ بصيرته من المنافقين وعمِيَ عما في القرآن مما به تُنال كل سعادة وعلم وهدى وصلاح وخير في الدنيا والآخرة لمن لم يجاوز بصره وسمعه رُعُودَ وعيده وبروقَها وصواعقَها، وما أعد الله لأعدائه من عذابه ونكاله وخزيه وعقابه، الذي هو بالإضافة إلى ما فيه من حياة القلوب والأرواح ومن المعارف الإلهية ويبين طريق العبودية التي هي غاية كمال العبد يسير، وهو مقصود

لتكميل ذلك وتمامه، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾ [البقرة: ١٧- ٢٠] فهكذا حال كل من قصر نظره في بعض مخلوقات الرب سبحانه على ما لا بد منه من شرٍّ جزئي جدًّا بالإضافة إلى الخير الكثير.

ولو لم تكن في هذه النشأة الإنسانية إلا خاصته وأولياؤه من رسله وأنبيائه وأتباعهم لكفى بها خيرًا ومصلحة، ومن عداهم وإن كانوا أضعاف أضعاف أضعافهم فهم كالقش والزبالة وغثاء السيل، لا يعبأ بكثرتهم، ولا يقدح في الحكمة الإلهية، بل وجود الواحد الكامل من هذا النوع يغتفر معه آلاف مؤلفة من النوع الآخر، فإنه إذا وُجد واحد يوازن البريّة ويرجح عليها كان الخيرُ الحاصلُ بوجوده والحكمة والمصلحة أضعاف الشر الحاصل من وجود أضداده وأثبتَ وأنفعَ وأحبَّ إلى الله من فواته بتفويت ذلك الشر المقابل له. وهذا كالشمس فإن الخير الحاصل بها أنفع للخلق وأكثر وأثبت وأصلح من تفويته بتفويت الشر المقابل له بها، وأين نفعُ الشمس وصلاح النبات والحيوان بها من نفع الرسل وصلاح الوجود بهم؟! بل أين ذلك من نفع سيد ولد آدم وصلاح الأبدان والدين والدنيا والآخرة به؟!

وقد ضُرِبَ للنفس الإنسانية وما فيها من الخير والشر مثلًا بدولاب أو

طاحون شديد الدوران، أي شيء خَطَفَهُ ألقاه تحته وأفسده، وعنده قيّمُه الذي يُديره وقد أحكم أمره لينتفع به ولا يضر أحدًا، فربما جاء الغرّ الذي لا يَعرِف فيقترب منه فيخرق ثوبه أو بدنه أو يؤذيه، فإذا قيل لصاحبه: لِمَ لَمْ تجعلْهُ ساكنًا لا يؤذي من اقترب منه؟ قال: هذه صفته اللازمة التي كان بها دولابًا وطاحونًا، ولو جُعل على غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبة منه.

وكذلك إذا أوقدنا نار الأَتون[(١)] التي تحرق ما وقع فيها، وعندها وقّادٌ حاذق يحشوها، فإذا غفل عنها أفسدت، وإذا أراد أحدٌ أن يقرب منها نهاه وحذره، فإذا استغفله من قرب منها حتى أحرقته لم يقل لصاحب النار هلا قلّلت حرّها لئلا تفسد من يقرب منها وتحرقه؟ فإنه يقول: هذه صفتها التي لا يحصل المقصود منها إلا بها، ولو جعلتُها دون ذلك لم تحرق أحجار الكِلْس[(٢)] ولم تطبخ الآجر[(٣)] ولم تنضج الأطعمة الغليظة ونحو ذلك.

فما يحصل من الدولاب والطاحون ومن النار من نفعها هو من فضل الله ورحمته، وما يحصل بها من شرّ هو من طبيعتها التي خُلقت عليها، والتي لا تكون نارًا إلا بها، فلو خرجت عن تلك الطبيعة لم تكن نارًا. وكذلك النفس، فما يحصل لها من شرّ فهو منها ومن طبيعتها ولوازم نقصها وعدمها، وما يحصل لها من خير فهو من فضل الله ورحمته، والله خالقُها وخالق كل شيء قام بها مِنْ قدرةٍ وإرادة

(١) الأتون: الفُرْن، والموقد الكبير.
(٢) الكِلْس: الحجر الجيري.
(٣) الآجرّ: لبِنَات البناء.



وعلم وعمل وغير ذلك.

فأما الأمور العدميّة فهي باقيةٌ على ما كانت عليه من العدم، والإنسانُ جاهلٌ ظالم بالضرورة كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فإن الله أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، والظلم هو النقص كما قال تعالى: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص منه شيئًا، وهي ظالمة نفسها فهي الظالمة المظلومة، إذ كانت منقوصةً من كمالها بعدم بعض الكمالات أو أكثرها منها. وتلك الكمالات التي عُدمت كان وجودها سببًا لكمالات أخرى، فصار عدمُها مستلزمًا لعدمِ تلك الكمالات التي لا سعادة لها بدونها، فإن أحد الموجودين قد يكون مشروطا بالآخر فيستحيل وجوده بدونه، لأنّ عدمَ الشرطِ يستلزمُ عدم المشروط، فإذا عدمت النفس هذا الكمال المستلزم لكمال آخر مثله أو أعلى منه وهي موصوفة بالنقص الذي هو الظلم والجهل ولوازمها من أصل الخلقة؛ صارت مستلزمة للشر، وقوّة شرها وضعفه بحسب قوتها وضعفها في ذاتها.

وتأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] والنسيان سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فُسِّرَ بهما هٰهنا فهو أمر عدمي، ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذلك: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فإنه اعترف بنقص حظّ نفسه ـ بما حصل لها من عدم العلم والصبر ـ بالنسيان الذي أوجب فوات حظه



من الجنة. ثم قال: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويق العبد من ذلك؛ وإلا ضرّتْهُ آثارُها ولا بدّ، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه وإلا ضرّه ولا بدّ. وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس، وتصير عالمة بالحق عاملة به؛ وإلا خسر، فالمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير، والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتيه الحسنات؛ وإلا هلك ولا بد، إذ عاد كما كان ظالمًا لنفسه، ظلومًا بنفسه، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك للخير تحركت إلى الشر فضرّت صاحبها. وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفسًا، لأن ما ليس حسّاسًا متحركًا بالإرادة فليس نفسًا. فعن النبي ﷺ: «**أصدق الأسماء حارث وهمام**»[1] فالحارثُ: الكاسب العامل، والهمّام: الكثير الهمّ، والهمّ مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢] فأخبر سبحانه أن الإنسان خُلِقَ على هذه الصفة، وإنَّ من كان على غيرها فلأجْلِ ما زكّاهُ الله به من فضله وإحسانه.

---

(١) أحمد (١٩٠٣٢) وأبو داود (٤٩٥٠) وغيرهما، وقد أعلّه أبو حاتم بالإرسال. (علل أبي حاتم: ٢/ ٣١٢). وصححه الألباني.



وقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] قال طاووس ومقاتل وغيرهما: لا يصبر عن النساء، وقال الحسن: هو خلْقُهُ من ماء مهين، وقال الزجّاج: ضعف عزمه عن قهر الهوى. والصواب: أن ضعفه يعمّ هذا كلّه، وضعفه أعظم من هذا وأكثر، فإنه ضعيفُ البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر. والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في الحَدور. فبالاضطرار لا بدّ له من حافظ معين يقوّيه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلّى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه.

وخَلْقَهُ على هذه الصفة هو من الأمور التي يُحمد عليها الرب سبحانه، ويُثنى عليه بها، وهو موجَب حكمته وعزَّته، فكل ما يحدث من هذه الخلقة ويلزم عنها فهو بالنسبة إلى الخالق سبحانه خير وعدل وحكمة، إذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه، وعلمُه وعزَّتُه وحكمته ورحمته وبالنسبة إلى العبد تنقسم إلى خير وشر، وحسن وقبيح، كما تكون بالنسبة إليه طاعة ومعصية وبرًّا وفجورًا، بل أخصّ من ذلك، مثل كونها صلاة وصيامًا وحجًّا، وزنًى وسرقةً، وأكلًا وشربًا، إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه، وموجَب أمر الله ونهيه، ولله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ما خلقه وأمر به، وعلى مالم يخلقه مما لو شاءه لخَلَقه، وعلى توفيقه الموجب لطاعته، وعلى خذلانه الموقع في معصيته، وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، وأحسن كلَّ شيء خَلَقَه، وأتقن كلَّ ما صنع.

وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى فله في ذلك سبحانه أعظم

حكمة مطلوبة، وتلك الحكمة إنما تحصل على الوجه الواقع المقدّر بما خلق لها من الأسباب التي لا تنال غاياتها إلا بها، فوجود هذه الأسباب بالنسبة إلى الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة، ولهذا يقرن سبحانه في كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة، وبين اسمه العزيز تارة، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] فإن العزّة تتضمن القوة، ولله القوّة جميعًا، يقال: عزّ يَعَزّ بفتح العين إذا اشتد وقوي، ومنه الأرض العَزَاز وهي الصلبة الشديدة. وعَزَّ يَعِزّ بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه، وعزَّ يَعُزّ بضم العين إذا غلب وقهر، فأعطَوا أقوى الحركات وهي الضمّة لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفَها وهي الفتحة لأضعف هذه المعاني وهو كون الشيء في نفسه صلبًا ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه[1] فأعطَوا الأقوى للأقوى، والأضعف للأضعف، والمتوسط للمتوسط.

---

(١) لذلك فحديث الحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في دعاء القنوت الذي روى أصله بسند صحيح أبو داود (١٤٢٥) والنسائي (٣ / ٢٤٨) وزاد الطبراني في الكبير (٣ / ٧٣ / ٢٧٠١) والبيهقي في الكبرى (٢ / ٢٠٩) زيادة بسند صحيح «**ولا يَعِزُّ من عاديت**» فهي بكسر العين لأن أصلها من الامتناع، ولا يمتنع من الله ممتنع، وقد تتوجَّهُ الأخرَيتان ولكن على خلاف المشهور الأولى. وبكل الحركات الثلاث يكون المعنى صحيحًا، فلا يعُز، ولا يعَز، ولا يعِز من عاداه الله.



ولا ريب أن قهر المربوب عمّا يريده من أقوى أوصاف القادر، فإنْ قَهَرَهُ عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر. والعزّ ضد الذل، والذّل أصله الضعف والعجز، فالعزّ يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمّا له، بخلاف الكِبْرِ. قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر! فقال: لست بمتكبر، ولكني عزيز. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال ابن مسعود: «ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر»(١) فالعزة من جنس القدرة والقوة، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير**»(٢).

فالقدرة إن لم يكن معها حكمة، بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر في العاقبة، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته، ويقصدها بفعله؛ كان فعلها فسادًا، كصاحب شهوات الغي والظلم الذي يفعل بقوّته ما يريده من شهوات الغي في بطنه وفرجه ومن ظلم الناس، فإن هذا وإن كان له قوّة وعزّة لكن لـمّا لم يقترن بها حكمة؛ كان ذلك معونة على شرّه وفساده.

وكذلك العلمُ كمالُه أن تقترنَ به الحكمةُ، وإلا فالعالِمُ الذي لا يريد ما تقتضيه الحكمة وتوجبه، بل يريد ما يهواه؛ سفيه غاو، وعلمه عون على الشر والفساد، هذا إذا كان عالمًا قادرًا مريدًا، له إرادة من غير حكمة، وإن قدّر أنه لا إرادة له بحال فهذا أولًا ممتنع من الحي، فإن وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا

---

(١) وانظر رسالة: إذا ذُكر الصالحون فحي هلًا بعمر. للمؤلف.

(٢) مسلم (٢٦٦٤).

إرادة ممتنع، كوجود إرادة بدون الشعور، وأما القدرة والقوة إذا قدّر وجودُها بدون إرادة فهي كقوّة الجماد، فإن القوة الطبيعية التي هي مبدأ الفعل والحركة لا إرادة لها، وقد قال بعض الناس: إن للجماد شعورًا يليق به، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤] وبقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] وهذه المسألة كبيرة تحتاج إلى كلام لا يليق بهذا الموضع.

والمقصود: أن العلم والقدرة المجرَّدَين عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح، وإنما يحصل ذلك بالحكمة معهما، واسمه سبحانه الحكيم يتضمن حكمته في خلقه وأمره في إرادته الدينية والكونية، وهو حكيم في كل ما خلقه وأمر به.

وقد هدى الله أهل الحقّ لما اختلف فيه الناس من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فآمنوا بالكتاب كلّه، وأقروا بالحق جميعه، فآمنوا بخلق الله وأمره بقدره وشرعه، وأنه سبحانه المحمود على خلقه وأمره، وأنه له الحكمة البالغة والنعمة السابغة، وأنه على كل شيء قدير، فلا يخرج عن مقدوره شيء من الموجودات أعيانها وأفعالها وصفاتها، كما لا يخرج عن علمه، فكل ما تعلق به علمه من العالم تعلقت به قدرته ومشيئته.

وآمنوا مع ذلك بأن له الحجة على خلقه، وأنه لا حجّة لأحد عليه، بل لله الحجة البالغة، وأنه لو عَذَّبَ أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، بل كان تعذيبهم منه عدلًا منه وحكمة، لا بمحض المشيئة المجردة عن السبب



والحكمة.

ولا يجعلون القَدَرَ حجّة لأنفسهم ولا لغيرهم، بل يؤمنون به، ولا يحتجون به، ويعلمون أن الله سبحانه أنعم عليهم بالطاعات، وأنها من نعمته عليهم وفضله وإحسانه. وأن المعاصي من نفوسهم الظالمة الجاهلة، وأنهم هم جُناتُها، وهم الذين اجترحوها، ولا يحملونها على القضاء والقدر، مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما في العالم من خير وشر، وطاعة وعصيان، وكفر وإيمان، وأن مشيئة الله سبحانه محيطة بذلك كإحاطة علمه به.

وأنه لو شاء ألا يُعصَى لما عُصِي، وأنه تعالى أعزُّ وأجلُّ من أن يُعصَى قسرًا، والعباد أقلُّ من ذلك وأهون.

وأنه ما شاء الله كان، وكل كائن فهو بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وما لم يكن فلعدم مشيئته. فله الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله القدرة التامة، والحكمة الشاملة البالغة»[١].

فهذه الطائفة هم أهل البصر التام. ولا يستكثرْ تَكْرارَ هذه الكلمات من يعلم شدةَ الحاجة إليها، وضرورة النفوس إليها، فلو تكرّرت ما تكرّرت فالحاجة إليها في محل الضرورة والله المستعان.

❀❀❀❀

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٢١١-٢٣٩) باختصار، وتصرف يسير.

سعة رحمة الله تبارك وتعالى

الله سبحانه أرحم الراحمين، وهو الرحمن الرحيم، وسبقت رحمته غضبه، وعفوه مؤاخذته، ووسعت رحمته كل شيء، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا وأرحم بعبده من والدته، وأقام الخلق على رحمته. وتأمل نداء الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥]، وتدبّر هذا التلطف الرفيق والفقه العميق، اللذين لا يليقان إلا بالأنبياء الكرام، مع أن المخاطب كافر جاحد، بل يقال إنه صانع الأصنام، ولم يعلم أن في طي علم العلّام أنه سيلد كاسرها وهادمها، وتأمل كيف قرن خوفه من العذاب الماحق بأبيه بذكر اسم الرحمن، فالمتبادر إلى ذهن منتظر السياق أن يردف الكلام ويختمه بذكر أسماء العزة والجلال والعظمة ونحو ذلك، لكنه عدل عن ذلك إلى اسم المبالغة في الرحمة، فالرحمن من باب فعلان وهي من أبنية المبالغة.

والمعنى - والله أعلم - أن من مسَّهُ يوم القيامة عذاب من الرحمن، الذي هو أرحم الراحمين، فهو غير حقيق بأي رحمة، فلا أَبْعَدَ منه ولا أشقى، ذلك أنه لا يهلك على الرحمن الرحيم إلا هالك، وكما روي عن الحَبْرِ الحِبْرِ والترجمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في معناهما: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرقّ من الآخر[١]. وقال غيره: الرحمن ذو الرحمة العامة بالخلائق، والرحيم ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، واستدل بقول الله عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

---

(١) البيهقي في الشعب (٢٣٦٢) وغيره.

وتدبّر آية الأنبياء: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ولعل في هذا أبلغ التشنيع عليهم، وكأنه قال: لولا أنه الرحمن لعاجلهم بعقوبتهم وظلمهم وسفههم فور جرمهم، ولكنه يمهلهم ويحلم عليهم ويقيم عليهم الحجج، فمن ارعوى تاب عليه، ومن لجّ في لدده ومشاقته حق عليه العذاب، وفي القرآن كله لا تجد ذكر نسبة تلك الفرية الشنيعة إلا لاسميه: الله والرحمن.

ولقد تكرر ذكر هذا الاسم العظيم في القرآن تسعة وأربعين مرة، وقد يكون اسم الرحمن هو أكثر الأسماء الحسنى ذكرًا في القرآن بعد الاسم الجامع للأسماء الحسنى والصفات العلى: الله. وقد سُميت سورة بهذا الاسم: الرحمن، وتكرر ذكره في مواضع الرحمة والعذاب والخلق والأمر والعبادة وغير ذلك مما يُشعر بأن لهذا الاسم خاصية ومزية على غيره.

وتدبر قرن هذا الاسم المبارك باسم الله في أجل العبادات وهو الدعاء: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، كما أن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن(١)، فبين هذين الاسمين العظيمين ارتباط جليل مهيب. وكذلك إجماع العلماء على تحريم التسمي به، فهو خاص بالله عز وجل(٢)، وقد يكون لهذا الاسم العظيم من الاسم الأعظم نصيب، وبالله التوفيق(٣).

---

(١) مسلم (٦/١٦٩).

(٢) نقل الإجماع ابن الحصار في المقصد الأسنى (١/٦٣).

(٣) وانظر: قبسات من الكتاب العزيز، للمؤلف.



وعلى قدر علم العبد بربّه تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله يكون حسن ظنه به، ولهذا قيل في حد الرجاء هو: النظر إلى سعة رحمة الله تعالى[(١)].

وقال تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنَ السَّالِكِينَ مَنْ تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ حَتَّى لَا يَدْرِيَ مَا يَقْبَلُ وَمَا يَرُدُّ، وَمَا يَفْعَلُ وَمَا يَتْرُكُ، وَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ كَانَ كَذَلِكَ دَوَامُ الدُّعَاءِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ وَالِاسْتِهْدَاءُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَذَلِكَ بِشِدَّةِ الشَّرِّ وَحَذَرِ الْإِيَاسِ، فَإِنَّ فِي السَّالِكِينَ مَنْ يُبْتَلَى بِأُمُورٍ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ يَخَافُ مَعَهَا أَنْ يَصِيرَ إِلَى الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ لِقُوَّةِ خَوْفِهِ، وَكَثْرَةِ الْمُخَالَفَةِ عِنْدَ نَفْسِهِ، وَمِثْلُ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ سَعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ وَقَبُولَ التَّوْبَةِ مِنْ عِبَادِهِ وَفَرَحهُ بِذَلِكَ. إِذْ الْوَاجِبُ الْإِقْرَارُ لِلَّهِ بِفَضْلِهِ وَجَوْدِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَلِلنَّفْسِ بِالتَّقْصِيرِ وَالذَّنْبِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُك، وَأَنَا عَلَى عَهْدِك وَوَعْدِك مَا اسْتَطَعْت، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْت، أَبُوءُ لَك بِنِعْمَتِك عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[(٢)]، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[(٣)] وَفِي الْحَدِيثِ

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٦).

(٢) البخاري من حديث شداد بن أوس (١٠٤٥).

(٣) مسلم (٢٥٧٧) وهو أشرف أحاديث أهل الشام. قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني =



الصَّحِيحِ: «**يَقُولُ اللَّهُ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْت مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْت مِنْهُ بَاعًا؛ وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِ أَتَيْته هَرْوَلَةً**»[١] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي**»[٢] وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَكُلُّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ مَا يُبْهِرُ الْعُقُولَ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ تَتَعَلَّقُ بِأُصُولٍ كِبَارٍ مِنْ مَسَائِلِ الْقَدَرِ وَالْأَمْرِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

والْعَبْدَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقْتَرِحَ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا مُعَيَّنًا، بَلْ تَكُونُ هِمَّتُهُ فِعْلُ الْمَأْمُورِ، وَتَرْكُ الْمَحْظُورِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَقْدُورِ، فَمَتَى أُعِينَ عَلَى هَذِهِ الثَّلَاثَةِ جَاءَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ الْمَطَالِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَلَوْ تَعَلَّقَتْ هِمَّتُهُ بِمَطْلُوبٍ فَدَعَا اللَّهَ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِيهِ إِحْدَى خِصَالٍ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ. وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنْ الْخَيْرِ مِثْلَهَا، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ الشَّرِّ مِثْلَهَا.

ومَا مِنْ سَالِكٍ إِلَّا وَلَهُ غَايَةٌ يَصِلُ إِلَيْهَا. وعلى المؤمن أن لا ييأسَ من رحمة الله، فيَأْسُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ كَبِيرَةٌ مِنْ الْكَبَائِرِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجُوَ ذَلِكَ وَيَطْمَعَ فِيهِ، لَكِنْ مَنْ رَجَا شَيْئًا يَطْلُبُهُ، وَمَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ هَرَبَ مِنْهُ، وَإِذَا اجْتَهَدَ وَاسْتَعَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَلَازَمَ الِاسْتِغْفَارَ

=

إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه.

(١) متفق عليه. البخاري (٧٤٠٥) مسلم (٢٦٧٥).

(٢) البخاري (٧٤٠٥) مسلم (٢٦٧٥).



وَالِاجْتِهَادَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ مَا لَمْ يَخْطُرْ بِبَالٍ. وَإِذَا رَأَى أَنَّهُ لَا يَنْشَرِحُ صَدْرُهُ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ وَنُورُ الْهِدَايَةِ فَلْيُكْثِرْ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ وَلْيُلَازِمْ الِاجْتِهَادَ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وَعَلَيْهِ بِإِقَامَةِ الْفَرَائِضِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَلُزُوم الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ مُتَبَرِّئًا مِنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إلَّا بِهِ.

فَفِي الْجُمْلَةِ: لَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَيْأَسَ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجُوَ رَحْمَةَ اللَّهِ. كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَنْ لَا يَيْأَسَ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَخَافَ عَذَابَهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ»(١).

وقال العلّامة الغنيمان في شرحه للسفر الفريد فتح المجيد: «جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يتوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بأرضٍ فلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتى شَجَرَةً فاضطَجَعَ في ظِلِّهَا وقد أيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَينَما هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِها قائِمَةً**

(١) الفتاوى الكبرى (٥ / ٦٠) باختصار. وانظره كذلك في مجموع الفتاوى (١١ / ٣٨٧ وما بعدها).



عِندَهُ، فَأَخَذَ بِخِطامِهَا[١] ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: **اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبدِي وأنا رَبُّكَ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ»**[٢] ففرح الله وجوده وكرمه عظيم، وهذا غاية ما يُتصوَّرُ من الفرح، فهذا إنسان فقد الحياة وأيس منها، ثم تعود إليه في لحظة ينتظر فيها الموت! فإنه يفرح فرحًا عظيمًا وهو غاية ما يصل إليه الفرح: **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده»** هل لأن الله جل وعلا يحتاج إلى عبده؟ كلا! ولكن لكرمه وجوده وفضله وحبه للخير تعالى وتقدّس، فيُحِبّ أن يكون عبده ممن يفعل الخير ويريده ويتعرض له، ويكره أن يكون عبده معذبًا، ولكن يأبى العبد إلا أن يقع في الأذى كما قال الرسول ﷺ: **«كلكم يدخل الجنة إلا من أبى»**، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال: **«من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»**[٣] فالأمر يتعلق بالإنسان نفسه وبطاعته ومعصيته.

وفي الصحيح أيضًا عن أبي سَعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ نَبيَّ الله ﷺ، قَالَ: **«كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكمْ رَجُلٌ قتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أعْلَمِ أَهْلِ الأرضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فقال: إنَّهُ قَتَلَ تِسعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ؟ فقالَ: لا، فَقَتَلهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فقالَ: نَعَمْ، ومَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلى أرضِ كَذَا وكَذَا فإِنَّ بِهَا أُناسًا يَعْبُدُونَ الله تَعَالَى فاعْبُدِ الله**

---

(١) الخطام: الحبل الذي يُقاد به البعير.

(٢) متفق على أصله، واللفظ لمسلم. البخاري (٦٣٠٩) مسلم (٢٧٤٧).

(٣) الحاكم (١٨٢) وانظر كلام الألباني عنه في الصحيحة: (١٠/ ٣١) ومال إلى تحسينه.



مَعَهُمْ، ولاَ تَرْجِعْ إِلى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أرضُ سُوءٍ، فانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ المُوْتُ، فاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذَابِ. فَقَالتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِبًا، مُقْبِلًا بِقَلبِهِ إِلى اللهِ تَعَالَى، وقالتْ مَلائِكَةُ العَذَابِ: إِنَّهُ لمْ يَعْمَلْ خَيرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ في صورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ[١] فقالَ: قِيسُوا ما بينَ الأرضَينِ فإِلَى أَيَّتِهِما كَانَ أدنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أدْنى إِلى الأَرْضِ التي أرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحمةِ»[٢] وفي رواية في الصحيح: «فكَانَ إلى القَريَةِ الصَّالِحَةِ أقْرَبَ بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أهلِهَا» وفي رواية في الصحيح: «فَأَوحَى اللهُ تَعَالَى إلى هذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وإِلَى هذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وقَالَ: قِيسُوا مَا بيْنَهُما، فَوَجَدُوهُ إِلى هذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ» وفي رواية: «فَنَأى بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا».

والمقصود: أن هذا يدلُّ على عظم رحمة الله جل وعلا، وأنه لا يهلك إلا الهالكون، غير أنه يجب أن يعلم أن هناك أمورًا تقتضي رحمة الله:

أولًا: أن يكون الإنسان على الإيمان.

الثاني: أن يكون على السنة، فلا يكون على بدعة وضلال، فيعمل أعمالًا على خلاف ما جاء به الرسول ﷺ وإن كانت كثيرة، فإنه إن كان بهذه المثابة فهو ممن قال الله جل وعلا فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

---

(١) أي حَكَمًا.

(٢) متفق عليه. البخاري (٣٤٧٠) مسلم (٢٧٦٦) وقد سقت الحديث النبوي بحروفه من الصحيح لأن الشيخ قد رواه بالمعنى، وكذلك الحديث الذي قبله.



صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، وقال جل وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢-٥] فذكر أنهم يخشعون ويعملون وينصبون، والنتيجة: أنهم يصلون النار الحامية؛ لأنهم على ضلال وبدع، فإذا كان الإنسان على السنة، وإن كان عمله قليلًا وإن كان عنده إسراف، فيجب أن لا يقنط من رحمة الله ولا ييأس من روح الله، مع أنه يجب أن يخاف حتى يكون الخوف حاملًا له على العمل وداعيًا له إلى اجتناب المعاصي، ويكون الرجاء مرغبًا له في فعل الطاعة»(١).

وقد مرّ الكلام في طيات ما سبق عن سعة رحمة الله تعالى.

❁❁❁❁

(١) شرح فتح المجيد، الغنيمان. الدرس: (١٢٤).



ضابط حسن الظن بالله تعالى

قد يتمادى الغرور بالمقصر في أمر الله والمفرط في جنبه حتى يستمدَّ في طِوَلِ الغرور الذي يزينه له الشيطان باسم الرجاء، وما حقيقته إلا رأس مال المفاليس وهي الأماني الخالية من موجب تحقيقها وهو العمل الصالح المتقبل.

وضابط حسن الظن بالله تعالى هو الاجتهاد في تحقيق مرضاته جل وعلا، فيحسن الظن بربه ويسيء الظن بعمله ونفسه؛ لأنه مهما عمل واجتهد فليس هذا العمل بحقيق لتقديمه قربانًا وزلفى لرب العالمين، لولا رحمة أرحم الراحمين، فهو يتقبل العمل القليل من العبد الضعيف المقصر، فيثيبه عليه أحسن المثوبة وأجزل الأجر. فالعبد بين ذنب متيقَّنٍ من حصوله، وطاعة لا يدري ما صلاحُها وقبولها، فطوارئ الحبوط كثيرة، كالرياء والعجب والمِنَّة والردّة، أجارنا الله من مواقع سخطه وموارد عذابه، فما ثَمَّ إلا رحمة الله أو الهلكة.

فعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يسير بين الأمن من مكر الله واليأس من رحمته مبتعدًا عنهما، ملازمًا الاستقامة قدر طاقته، فيحسن الظن بربه ويجتهد في مراضيه، ويسأله المغفرة والقبول، فرحمة ربه أرجى له من عمله، ومغفرته أوسع له من ذنوبه، ولا يهلك عليه إلا هالك.

وليعلم أن للشيطان حظوظًا في كثير من الأعمال، منها الواضح الجلي ومنها المستقر الخفي، والله وحده المستعان، وعليه التكلان، وإليه الرغباء والعمل.

قال شمس الدين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «على العبد أن يحذر مغالطة نفسه، فإن



العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولابد، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة تارة، والاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظائر تارة، وبالاقتداء بالأكابر.

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: أستغفر الله، زال أثر الذنب، وراح هذا بهذا. وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل، ثم أقول: سبحان الله وبحمده مئة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال في يوم سبحان الله وبحمده مئة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**»(١) وقال لي آخر من أهل مكة: نحن أحدنا إذا فعل ما فعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا(٢) قد محي عنه ذلك! وقال لي آخر: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أذنب عبد ذنبًا فقال: أي ربّ أصبت ذنبًا فاغفر لي فغفر الله ذنبه، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنبًا آخر فقال: أي ربّ أصبت ذنبًا فاغفر لي فقال الله عز و جل: عَلِمَ عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرتُ لعبدي فليصنع ما شاء**»(٣) وقال: أنا لا أشكُّ أنّ لي ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به.

وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتَّكلَ عليها،

(١) متفق عليه. البخاري (٦٤٠٥) مسلم (٢٦٩١).

(٢) أي سبعة أشواط.

(٣) متفق عليه. البخاري (٧٥٠٧) مسلم (٢٧٥٨).



وتعلّق بها بكلتا يديه، وإذا عُوتِبَ على الخطايا والانهماك فيها؛ سَرَدَ لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته، ونصوص الرجاء. وللجُهَّال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب، كقول بعضهم:

وَكَثِّرْ ما استطعت من الخطايا إذا كان القدومُ على كريمِ

وقول بعضهم: التنزُّهُ من الذنوب جهلٌ بسعة عفو الله! وقال الآخر: ترك الذنوب جراءةٌ على مغفرة الله، واستصغارٌ لها! وقال محمد بن حزم: رأيتُ بعض هؤلاء من يقول في دعائه: اللّهم إني أعوذ بك من العصمة!

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلّق بمسألة الجبر وأن العبد لا فعل له البتة ولا اختيار، وإنما هو مجبورٌ على فعل المعاصي!

ومن هؤلاء من يغترّ بمسألة الإرجاء، وأن الإيمان هو مجرّد التصديق، وأن الأعمال ليست من الإيمان، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل!

ومن هؤلاء من يغترّ بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين، وكثرةِ التّردُّدِ إلى قبورهم والتضرّع إليهم(١)، والاستشفاع بهم، والتوسل إلى الله بهم، وسؤاله بحقّهم عليه وحرمتهم عنده!

ومنهم من يغترّ بآبائه وأسلافه، وأنّ لهم عند الله مكانة وصلاحًا، فلا يدَعوهُ أن يُخلّصوه، كما يُشاهد في حضرة الملوك، فإن الملوك تَهَبُ لخواصّهم ذنوبَ أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلّصه أبوه وجده

(١) وهذا من الشرك بالله تعالى.



بجاهه ومنزلته!

ومنهم من يغترّ بأن الله عز و جل غنيّ عن عذابه، وعذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئًا. فيقول: أنا مضطر إلى رحمته، وهو أغنى الأغنياء، ولو أن فقيرًا مسكينًا مضطرًّا إلى شربة ماء عند من في داره شطٌّ يجري لما منعه منها؛ فالله أكرمُ وأوسع، فالمغفرة لا تنقصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا!

ومنهم من يغترّ بفهمٍ فاسدٍ، فَهِمَهُ هو وأضرابُه من نصوص القرآن والسنة، فاتّكلوا عليه، كاتّكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] قال: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحدٌ من أمته. وهذا من أقبح الجهل، وأَبْيَنِ الكذب عليه، فانه يرضى بما يرضى به ربُّهُ عز وجل، والله تعالى يرضيه تعذيبُ الظلمةِ والفسقة والخونة والمصرِّين على الكبائر، فحاشا رسولَهُ أن يَرْضَى بما لا يَرضَى به ربه تبارك وتعالى.

وكاتّكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وهذا أيضًا من أقبحِ الجهل، فان الشرك داخلٌ في هذه الآية، فإنه رأسُ الذنوب وأساسُها، ولا خلافَ أنّ هذه الآية في حقّ التائبين، فإنه يغفر ذنب كلِّ تائبٍ للتائب، أيَّ ذنبٍ كان. ولو كانت الآية في حقِّ غير التائبين لبطلت نصوصُ الوعيدِ كلّها، وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أُتِيَ صاحبُه من قلّة علمه وفهمه، فإنه سبحانه هٰهنا عمَّمَ وأطلق، فعُلم أنّه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصَّصَ وقيّد فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه. ولو كان هذا في حق التائب لم يفرّق بين الشرك وغيره.

وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] فيقول: كرمُهُ! وقد يقول بعضهم: إنه لَقَّنَ المغترَّ حجته! وهذا جهل قبيح، وإنما غرَّهُ بربِّه الغَرُور، وهو الشيطان، ونفسُه الأمّارة بالسوء، وجهلُه وهواهُ. وأتى سبحانه بلفظ «الكريم» وهو السيِّدُ العظيم المُطاع، الذي لا ينبغي الاغترار به، ولا إهمال حقّه، فوَضَعَ هذا المغترُّ الغُرُورَ فى غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به.

وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٥، ١٦] وقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] ولم يدر هذا المغترّ أن قوله: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤] هي لِنَارٍ مخصوصةٍ من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم، فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها بل قال: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ ولا يلزم من عدم صِلِيِّهَا عدمُ دخولِها، فإن الصِّلِيَّ أخصُّ من الدّخول، ونفي الأخصّ لا يستلزم نفي الأعمّ. ثم أن هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضمونًا له أن يجنّبها. وأما قوله في النار: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ فقد قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولا ينافى إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفسّاق والظلمة، ولا ينافى إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان، ولم يعمل خيرًا قط.



وكاغترار بعضهم على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول بعضهم: يوم عاشوراء يكفّر ذنوب العام كلّها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر![١] ولم يدر هذا المغترّ أنّ صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجلّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفّر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر، فرمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة لا يقوَيا على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر، فكيف يكفّر صوم تطوع كلّ كبيرة عملها العبد وهو مصرّ عليها غير تائب منها؟! هذا محالٌ، على أنه لا يمتنعُ أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفّرًا لجميع ذنوب العام على عمومه، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير، فإذا لم يصرّ على الكبائر تَساعَدَ الصومُ وعدمُ الإصرار وتعاونا على عمومِ التكفير، كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدَيْنِ متعاونين على تكفير الصغائر، مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فعُلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمنع أن يتساعدَ هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفيرُ مع اجتماع السببين أقوى وأتمّ منه مع انفراد أحدهما، وكلّما قويت أسبابُ التكفير كان

---

(١) وقد أسلفنا كلام ابن تيمية في نسف هذه الشبهة في موانع العقوبة، وأن التكفير إنما هو بما يُتقبّل من الأعمال. وهنا قد زاد ابن القيم أنها باشتراط اجتناب الكبائر، وبعدم الإصرار على الصغائر. إنما هي اللّمم. وهي الذنوب التي لا يكاد العبد ينفكّ عنها لضعفه ونقصه.



أقوى وأتمّ وأشمل.

وكاتّكال بعضهم على قوله حاكيًا عن ربه: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»(١) يعني ما كان في ظنّه فأنا فاعلُهُ بِهِ. ولا ريبَ أن حُسن الظنّ إنما يكون مع الإحسان، فان المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته. وأمّا المسيءُ المصرّ على الكبائر والظلم والمخالفات؛ فان وحشةَ المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود فى الشاهد، فان العبدَ الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده، لا يحسن الظن به، ولا يجامعُ وحشةَ الإساءة إحسان الظن أبدًا، فان المسيء مستوحشٌ بقدر إساءته، وأحسنُ الناس ظنًا بربه أطوعُهم له، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسنَ الظنَّ بربِّه، فأَحسنَ العمل، وإن الفاجر أساء الظنّ بربه فأساء العمل(٢).

فكيف يكون محسنَ الظن بربه من هو شاردٌ عنه، حالٌّ مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرّض للعنته، قد هان حقُّهُ وأمرُه عليه فأضاعه، وهان نهيُه عليه فارتكبه، وأصرّ عليه؟! وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسلُه، وظنّ بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟! وكيف يحسن الظن بربه من يظن أنه لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يرضى، ولا يغضب، وقد قال

(١) أحمد (١٦٠١٦) والحاكم (٧٦٠٣) وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٢) أحمد في الزهد (١٦٥٢).

الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السِّرّ من القول: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣] فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون؛ كان هذا إساءةً لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كلّ من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به. فإذا ظن هذا أنه يُدخلُهُ الجنَّةَ كان هذا غرورًا وخداعًا من نفسه وتسويلًا من الشيطان. لا إحسانَ ظنٍّ بربّه، فتأمّل هذا الموضع، وتأمل شدة الحاجة إليه.

وكيف يجتمع في قلب العبد تيقّنه بأنه ملاقى الله، وأن الله يسمع كلامه، ويري مكانه، ويعلم سرّه وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه، ومسئولٌ عن كل ما عمل، وهو مقيمٌ على مساخطه، مضيع لأوامره، معطّل لحقوقه. وهو مع هذا يُحسن الظن به! وهل هذا إلا من خدع النفوس، وغرور الأماني.

وقد قال أبو أمامة بن سهل بن حُنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير أو سبعة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أُفرّقها. قالت: فشغلني وجعُ رسول الله ﷺ حتى عافاه الله. ثم سألني عنها فقال: **«ما فعلْتِ؟ أكنتِ فرّقت الستة الدنانير؟»** فقلت: لا، والله لقد شغلني وجعُكَ. قالت: فدعا بها، فوضعها في كفّه فقال: **«ما ظنُّ نبيِّ الله لو لقي الله وهذه عنده»**[١] وفي لفظ:

(١) أحمد (٢٤٧٣٣) وفيه موسى بن جبير ضعيف، ولكن اللفظ الآخر الذي ذكره =





«ما ظنُّ محمدٍ بربّه لو لقي الله وهذه عنده».

فيا لله! ما ظَنُّ أصحابِ الكبائر والظلمة بالله إذا لقَوْهُ ومظالمُ العباد عندَهم؟! فان كان ينفعهم قولهم: حَسَّنَّا ظنوننا بك؟ لم يعذَّبْ ظالمٌ ولا فاسق، فليصنع العبدُ ما شاء، وليرتكب كلَّ ما نهاه الله عنه، وليُحْسِنْ ظَنَّهُ بالله، فان النار لا تمسَّه؟! فسبحان الله ما يبلغ الغرور بالعبد.

وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي: ما ظَنُّكُم أن يَفعلَ بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟! ومن تأمل هذا الموضعَ حقَّ التأمل؛ عَلِمَ أنَّ حُسن الظن بالله هو حُسْنُ العمل نفسِهِ. فإنّ العبد إنما يحمله على حسن العمل ظنه بربه أن يجازيَه على أعماله، ويثيبَه عليها، ويتقبلها منه، فالذي حمله على العمل حُسن الظن، فكلّما حَسُنَ ظَنُّهُ حَسُنَ عملُه، وإلا فحسن الظن مع ابتاع الهوى عجزٌ.

وبالجملة، فحسنُ الظن إنما يكون مع انعقاد أسبابِ النجاة، وإما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتّى إحسان الظن. فإن قيل: بل يتأتّى ذلك، ويكونُ مستندُ حسنِ الظنّ سعةُ مغفرةِ الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو، قيل: الأمر هكذا، واللهُ فوقَ ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنّما يضع ذلك في محلّه اللائق به، فإنه سبحانه موصوفٌ بالحكمة والعزّة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق

=

المؤلف صحيح الإسناد، وهو عند أحمد (٢٤٢٢٢) وغيره.





العقوبة، فلو كان معوَّلُ حسنِ الظنّ على مجرّد صفاته وأسمائه[١] لاشتركَ في ذلك البرُّ والفاجر، والمؤمنُ والكافر، ووليّه وعدوّه! فما ينفعُ المجرمَ أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرّض للعنته، وأوضعَ في محارمه، وانتهك حرماته. بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع، وبدّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقيّة عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظنّ فهذا حسن الظن، والأول غرور، والله المستعان.

ولا تستطِلْ هذا الفصل، فإنّ الحاجة إليه شديدة لكل أحد، ففرقٌ بين حُسن الظنّ بالله، وبين الغرّة به، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨] فجعل هؤلاء أهلَ الرجاء، لا الظالمين والفاسقين. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل: ١١٠] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفورٌ رحيم لمن فعلها. فالعالِمُ يضعُ الرجاءَ مواضعَهُ، والجاهلُ المغترُّ يضعه في غير مواضعه.

هذا، وكثيرٌ من الجهّالِ اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيّعوا أمره ونهيه، ونسُوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين. ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

---

(١) أي أسماء وصفات الرحمة والعفو والمغفرة دون أضدادها.



وقال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق. وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمنْ أن تكونَ عقوبته في الآخرة على نحو هذا. وقيل للحسن: نراك طويلَ البكاء؟! فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي. وسأل رجلٌ الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنعُ بمجالسة أقوامٍ يخوِّفونا حتى تكاد قلوبنا تنقطع! فقال: والله لأَنْ تصحبَ أقوامًا يخوِّفونك حتى تدرك أمنًا، خيرٌ لك من أن تصحب أقوامًا يؤمِّنونك حتى تلحقك المخاوف.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه**(١) **فيدور في النار كما يدور الحمار بِرَحَاهُ، فيطوف به أهلُ النار فيقولون: يا فلان ما أصابك؟! ألم تكن تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟! فيقول: كنتُ آمرُكم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(٢).

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: مَرَّ رسولُ الله ﷺ بالبقيع فقال: «**أُفٍّ لك، أفٍّ لك!**» فظننتُ أنه يريدني، قال: «**لا، ولكن هذا قبرُ فلان بعثتُه ساعيًا على آل فلان، فغلَّ نَمِرَةً**(٣) **فَدُرِّعَ الآن مثلَها من نار!**»(١).

---

(١) أي تخرج أمعاؤه من جوفه. (النهاية: ٢/ ١٣٠).

(٢) متفق على صحته. البخاري (٣٢٦٧) مسلم (٢٩٨٩) وهو من أشد أحاديث وعظ أهل الحُسْبة!

(٣) النمرة: بردة مخطّطة من صوف.





وفي مسنده أيضا من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«مررتُ ليلة أُسري بي على قومٍ تُقرَضُ شفاههم بمقاريضَ من نار، فقلتُ: من هؤلاء؟ قالوا خطباء من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبرِّ، وينسون أنفسهم، أفلا يعقلون؟!»**(٢).

وفيه أيضًا من حديثه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما عُرِجَ بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»**(٣)

وفيه أيضًا عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُكثرُ أن يقول: **«يا مقلبَ القلوب والأبصار ثبِّتْ قلبي على دينك»** فقلنا: يا رسول الله، آمنَّا بك، وبما جئتَ به، فهل تخافُ علينا؟ قال: **«نعم، إنّ القلوبَ بين أصبعين من أصابع الله يقلّبها كيف يشاء»**(٤).

وفيه أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: **«مالي لم أرَ ميكائيلَ ضاحكًا قط؟ قال: ما ضحك منذ خلقت النار»**(٥).

=

(١) أحمد (٢٧١٩٢) بسند فيه كلام، وله شواهد حسنه.

(٢) أحمد (١٢٢١١) بسند صحيح.

(٣) أحمد (١٣٣٤٠) بسند جيد.

(٤) أحمد (١٢١٠٧) والترمذي (٢١٤٠) وصححه.

(٥) أحمد (٣١٣٤٣) وفيه إسماعيل بن عياش وقد روى عن غير أهل بلده وهو ممن يضطرب في غير أهل بلده، وأيضًا عبيد بن حميد فيه جهالة. (عن زائد النشيري

=



وفي صحيح مسلم عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤتَى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، فيُصبَغُ في النار صبغةً ثم يقال له: يا بن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا ربِّ. ويُؤتَى بأشدِّ النّاس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبغُ في الجنة صبغةً فيقال له: يا بن آدم، هل رأيتَ بؤسًا قطّ؟ هل مرَّ بك شدّة قطّ؟ فيقولُ: لا والله يا ربِّ، ما مرَّ بي بؤسٌ قط، ولا رأيتُ شدّة قط!**»(١).

وفي المسند من حديث البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجلٍ من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولـمّا يُلْحَدُ(٢) فجلسَ رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير(٣) وفي يده عودٌ ينكُتُ به في الأرض(٤) فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» مرّتين أو ثلاثًا. ثمّ قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة(٥) نَزَلَ إليه ملائكةٌ من السماء، بيضُ الوجوه، كأنّ وجوهَهُم الشمس، معهم كَفَنٌ من**

=

مخرّج أحاديث الداء والدواء).

(١) مسلم (٢٨٠٧).

(٢) لـمّا: أي لم يحدث الشيء، مع قرب وقوعه، أمّا (لم) فهي لنفي الحدوث مطلقًا.

(٣) أي من الخشوع والصّمت والسّكينة والرّهبة.

(٤) ويفعلُ ذلك في العادة المُتأمّل، ولمثل هذه دورٌ في تصفية الذهن، وشدّة التركيز.

(٥) أي ساعات الاحتضار، ولحظات الرحيل عن هذه الدار.



أكفان الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة[١] حتى يجلسوا منه مدَّ البصر[٢] ثم يجيء ملك الموت حتى يجلسَ عند رأسه[٣] فيقول: أُخرجي أيتها النفس المطمئنة، أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذها فاذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحةٍ مسك وُجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملأ من الملائكة ألا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلانُ بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا. حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فيُفتحُ له، فيشيّعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في علّيين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتُعادُ روحُه، فيأتيه ملكان فيُجلسانه فيقولان له: من ربُّكَ؟ فيقول: ربي الله عز وجل. فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: ديني الإسلامُ. فيقولان له: ما هذا

---

(١) الحنوط: طِيْبُ الموتى وعطرُهم، نسأل الله حسن الختام.

(٢) أي يراهم على امتداد نظره.

(٣) أما البقيّة فهم أعوانه، كما قال الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] وقال جل شأنه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

الرجل الذي بُعثَ فيكم؟ فيقول: هو محمدٌ رسول الله[١] فيقولان له: وما علمُكَ؟ فيقول: قرأتُ كتاب الله عزّ وجل، فآمنتُ به وصدَّقْتُ. فينادي مناد من السماء: أن صدَقَ عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة. قال: فيأتيه من رَوْحِهَا وطيبِها، ويُفسحُ له في قبره مدَّ بصره. قال: ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجه، حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرُّكَ، هذا يومُكَ الذي كنتَ تُوعَد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح[٢] فيقول: ربِّ أقم الساعة، ربِّ أقمِ الساعة، حتى أرجع إلي أهلي ومالي[٣].

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة؛

---

(١) ولِعِظَم شأن هذه الثلاث فقد أفردَها الإمامُ المجدد الناصح محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته الكافية الشافية: ثلاثة الأصول. وقد أدركتُ كثيرًا من العامّة من كبار السن يحفظها عن ظهر قلب، ويردِّدها بعد وردِه اليومي من كتاب الله العزيز.

(٢) والله على كل شيء قدير. ولا يلزم من ذلك أن يجسد العمل، لأن خطابه هٰهنا للروح أصالة وإن كان لها تعلق بذلك الجسد الميت، وقد يكون متجسدا، ومن قدرته سبحانه أن يقلب العرض جسمًا وجسدًا، ولذلك شواهد كثيرة في عرَصات القيامة كوزن الأعمال، وكتقدّم البقرة وآل عمران المؤمنين إلى الجنة، وكإتيان القرآن لصاحبه الذي يتلوه ويعمل به ويبشّره ويشفع له عند الله أن يحبُوَه ويزيده من فضله..وغير ذلك.

(٣) وكم في القبور من الصالحين من عباد الله الذين يلهجون بذلك الدعاء المستبشر السعيد.



نزل إليه ملائكةٌ من السماء، سودُ الوجوه(١) معهم المسوح(٢) فيجلسون منه مدَّ البصر. ثم يجيءُ ملَكُ الموت حتي يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، أُخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرَّقُ في جسده(٣) فينتزعها كما يُنتزعُ السَّفُّودُ(٤) من الصّوف المبتلّ فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عينٍ حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتنِ ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُسمّى بها في الدنيا. فيُستفتح فلا يُفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فيقول الله عز وجل: أكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السُّفلى(٥) فتطرحُ

---

(١) وليسو كملائكة الرحمة كالشمس، فالجزاء من جنس العمل، ولرؤية الكثافة وبشاعة الهيئة مزيد عذاب للفجرة.

(٢) المُسوح: جمع مِسْح، وهو الكساء الغليظ من الشعر، وقارِنْهُ بأكفان الجنة وحنوطها!

(٣) هربًا وخوفًا وفَرَقًا من العذاب، ولكن لا تحين مناص! ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

(٤) الحديدة التي يشوى فيها اللحم، وتأمّل دقّة التشبيه، وكيفية تقطّع الصوف المبلول بين حروف السفود الخشن المنتزعُ بساعد شديد، فكذلك الروح في يد الملك! اللّهم رحماك.

(٥) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير سورة المطففين وقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]: «يقول: حقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ أي: إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين، فعيل من السَّجن، وهو الضيق كما يقال: فسّيق وشرّيب =





روحُه(١) طرحًا. ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ

=

وخمّير وسكّير، ونحو ذلك. ولهذا عظّم أمره فقال: : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: ٨] أي: هو أمر عظيم، وسجن مقيم، وعذاب أليم.

ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب، في حديثه الطويل: يقول الله عز وجل في روح الكافر: «**اكتبوا كتابه في سجين**». وسجين: هي تحت الأرض السابعة. وقيل: صخرة تحت السابعة خضراء. وقيل: بئر في جهنم.

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثًا غريبا منكرا لا يصح. والصحيح أن سجين مأخوذ من السجن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافَلَ منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتّسع، فإن الأفلاك السبعة ـ أي السماوات ـ كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرَضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة.

ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥ - ٦] وقال هاهنا: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وهو يجمع الضيق والسّفول، كما قال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وقوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] ليس تفسيرًا لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: ٨] وإنما هو تفسيرٌ لما كُتب لهم من المصير إلى سجّين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يُزاد فيه أحدٌ، ولا يُنقص منه أحد؛ قاله محمد بن كعب القرظي». (تفسير القرآن العظيم: ٨/٣٤٩) باختصار يسير.

(١) الرُّوح: يؤنّث كما في هذا الحديث وغيره وهو الأشهر والأكثر، ويُذكّر كما في حديث أم =



ﭐلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١] فتعادُ روحُه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه![١] لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري. فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي[٢] فأفرشُوه من النار! وألبسوه من النار! وافتحوا له بابا إلى النار! فيأتيه من حرّها وسمومها، ويضيّقُ عليه قبرُه حتى تختلف فيه أضلاعُه[٣] ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءُكَ! هذا يومُكَ الذي كنت تُوعَد. فيقول: ومن أنت؟ فوجهك الوجه يجيءُ بالشرِّ. فيقول: أنا عملك الخبيث! فيقول: رب لا تُقِمِ الساعة»[٤][٥].

=

سلمة في ذكر وفاة أبي سلمة قال ﷺ: «**إن الروحَ إذا قُبِضَ تبِعهُ البصر**». رواه مسلم (٩٢٠).

(١) كأنّه يريد تذكّر شيء غاب عنه، فيقول: هاه هاه، وفي هذا مزيد عذاب. وليس كحال الذي لم يعلم به أصلًا.

(٢) لأن الحجّة قد قامت عليه في الدنيا لكنه كذّب وكفر.

(٣) آمنّا وصدّقنا. ربنا آمنّا بما أنزلت، واتّبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين.

(٤) لأنه يرى مقعده ولم يصِرْ إليه بعد، فالعذاب البرزخي على ما فيه من شدّة وفظاعة إلا أنه أهون من نار القيامة، فهذا على الروح ويلحق الجسد منه شيء، أما تلك فأضعاف العذاب والنكال! عياذًا بوجه الله تعالى.

(٥) أحمد (١٨٥٣٤) وغيره، وقد صحّحه جماعة من الحفاظ كأبي عوانة وابن خزيمة وابن منده وابن القيم وغيرهم. ويسمّى حديث البراء ـ الطويل ـ.



وفي لفظ لأحمد أيضًا: «**ثم يُقَيَّضُ له أعمى أصمّ أبكم، في يده مرزبة**[١] **لو ضُرب بها جبلٌ كان ترابًا! فيضربه ضربةً فيصير ترابًا. ثم يُعيدُه الله عز وجل كما كان، فيضربُه ضربةً أخرى فيصيح صيحةً يسمعها كل شيء إلا الثقلين**»[٢].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل ما أسكر حرام، وإن على الله عزّ وجل عهدًا لمن شرب المسكر أن يسقيَهُ من طينة الخبال**» قيل: وما طينةُ الخبال؟ قال: «**عَرَقُ أهل النار، أو عصارة أهل النار**»[٣].

وفي المسند من حديث جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفي، فلمّا صلى عليه رسول الله ﷺ ووُضِعَ في قبره، وسُوِّيَ عليه؛ سَبَّحَ رسولُ الله ﷺ فسبَّحْنَا طويلًا، ثم كَبَّرَ فكبَّرنا[٤] فقيل: يا رسول الله، لِمَ سبَّحْتَ ثُمَّ كبرت؟ فقال: «**لقد تضايقَ على هذا العبدِ الصَّالحِ قبرُهُ حتَّى فرَّجَ الله عنه**»[٥].

---

(١) المِرْزَبَّة: مطرقة الحديد الكبيرة تكون لدى الحدّاد.

(٢) أحمد (١٨٦١٤) والحاكم (١١٤).

(٣) مسلم (٢٠٠٢).

(٤) رضي الله عنهم ما أتبعهم وأقودهم للسنة. وفيه التسبيح عند الأمر العظيم، والتكبير عند الفرج.

(٥) أحمد (١٤٨٧٣).





وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا وُضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها[(١)] أين تذهبون بها؟ يسمعُ صوتَها كلُّ شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصُعِقَ»**[(٢)].

وفي مسند أحمد من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: **«تدنوا الشمسُ يوم القيامة على قدر مِيْلٍ، ويُزادُ في حرِّها كذا وكذا، تغلي منها الرؤوس كما تغلي القدور، يعرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يُلجمه العرق»**[(٣)].

---

(١) تأمّل الأدب النبوي الشريف في نسبة هذه الكلمة لغير المُتكلِّم، فالسياق يقتضي أن تكون الكلمة مسندة لتلك الروح الخبيثة التي تدعو على نفسها بالويل فتقول: يا ويلي! ولكن لشناعة هذه الكلمة، ولورودها من المتحدّث على الأسماع التي ربّما تذهل لحظة عن السياق؛ رغب عنها إلى النسبة للمجهول، فصلى الله وسلّم على من أعطاه ربّة أزمّة الفصاحة وأعنّة البلاغة وجوامع الأدب. وقد أخذ هذا الأدب عنه صحابته المرضيون، كما في حديث المسيّب بن حزْن _والد سعيد_ المتفق عليه في ذِكر وفاة أبي طالب قال: «حَتّى قَالَ أَبو طَالِبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلى مِلَّة عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبى أَنْ يَقُولَ لا إِلهَ إِلاّ الله» رواه البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤)، فالسياق يقتضي ذكر القول كما هو، فينسب القول بالأَنَا، ولكن التأديب النبوي ضَرْبٌ آخرَ سامٍ شاهق.

(٢) البخاري (١٣١٤).

(٣) أحمد (٢٢١٨٦) وفيه القاسم بن عبد الرحمن الدمشقي وثّقه غير واحد، لكن في =



وفي المسند أيضا عن ابن عمر يرفعه: «**من تعظَّمَ في نفسه أو اختال في مشيته؛ لقيَ الله وهو عليه غضبان**»[١].

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المصوّرين يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[٢].

وفيهما أيضا عنه عن النبي ﷺ: «**إن أحدَكُم إذا مات، عُرِضَ عليه مقعدُه من الغداة والعَشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة**»[٣].

وفيهما أيضًا عنه عن النبي ﷺ: «**إذا صارَ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار؛ جيء بالموت حتى يُوقَفَ بين الجنة والنار ثم يُذْبَحْ. ثم يُنادى منادٍ: يا أهل الجنة خلودٌ ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. فيزدادُ أهلُ الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم**»[٤].

=

روايته عن أبي أمامة فيها كلام. والحديث ثابت في صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود (٢٨٦٤) لكن بدون جملة: «**ويزاد في حرها كذا وكذا، فتغلي منها الرؤوس..**» (عن زائد النشيري في تخريجه لأحاديث الداء والدواء: ٦٥).

(١) أحمد: (٥٩٩٥) والحاكم (٢٠١) وغيرهما.

(٢) متفق عليه، البخاري (٢١٠٥) مسلم (٢١٠٨).

(٣) متفق عليه، البخاري (١٣٧٩) مسلم (٢٨٦٦).

(٤) متفق عليه، البخاري (٦٥٤٨) مسلم (٢٨٥٠).



وفيه أيضًا عنه مرفوعًا: «**من شرب الخمر شربةً لم تُقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تابَ تاب الله عليه**» فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: «**فإن عاد كان حقًّا على الله أن يسقيَه من ردغةِ**(١) **الخبال يوم القيامة**»(٢).

وفي المسند أيضًا من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومُحقَّرَات الذنوب، فإنّهن يجتمعن على الرجل حتى يُهلكْنَهُ**» وضرب لهنَّ رسولُ الله ﷺ مثلًا كَمَثل قومٍ نزلوا أرضَ فلاةٍ، فحضر صَنِيعُ القوم(٣) فجعل الرجلُ ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، وأجّجوا نارًا، وانضجوا ما قذفوا فيها(٤).

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُضرب الجسر على جهنم، فأكون أول من يجيز، ودعوى الرسل يومئذ: اللّهم سَلَّمْ سَلِّمْ. وحافتيه كلاليبُ مثل شوك السَّعدان، تَخطَفُ الناسَ بأعمالهم، فمنهم الموبَقُ بعمله، ومنهم المُخَرْدَل**(٥) **ثم ينجو. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا**

---

(١) الرّدغة: طين ووحل كثير، وقد جاء تفسيرها في الحديث بعُصارة أهل النار، فلعلّها تشبهها فسُمّيت بها.

(٢) أحمد (٥٣٨٥) وأبو داود (٣٥٩٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٥٩٧).

(٣) الصنيع: الطّعام.

(٤) أحمد (٣٨١٨).

(٥) المُخردل: من خردل اللحم، إذا قطعه.



الله؛ أمر الملائكة أن يُخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة أثر السجود، وحرّمَ الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيُخرجونهم وقد امتَحَشُوا[(١)] فيُصَبُّ عليهم من ماءٍ يقال له ماء الحياة، فينبتون نباتَ الحِبَّةِ[(٢)] في حميل السيل»[(٣)].

وفي صحيح مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ أول الناس يُقضى فيه يوم القيامة ثلاثة:

رجلٌ استُشْهِد، فأُتِيَ به فعرّفَهُ نِعَمَهُ، فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى قُتلت. قال: كذبتَ، ولكن قاتلتَ ليُقال: هو جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار!

ورجلٌ تعلّم العلم، وعلّمه، وقرأ القرآن. فأُتي به فعرّفه نعمَهُ فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: تعلّمتُ فيك العلم، وعلّمتُه، وقرأت فيك القرآن. فقال: كذبتَ، ولكنك تعلمت ليُقال هو عالم، فقد قيل، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار!

ورجلٌ وسَّعَ الله عليه رزقَهُ، وأعطاه من أصناف المال كلّه فأُتِيَ به، فعرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ فقال: ما تركتُ من سبيلٍ تُحِبّ أن يُنفق فيها إلّا أنفقتُ فيها لك؟ قال: كذبتَ، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد

(١) الامتحاش: الاحتراق.

(٢) الحِبّة: بزر البقول والعشب، تنبت في البراري وجوانب السيول. (النووي في شرحه لصحيح مسلم: ٣/٢٧).

(٣) متفق عليه، البخاري (٦٥٧٣) مسلم (١٨٢).





قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار!»[(١)] وفي لفظٍ: «**فهؤلاء أولُ خلق الله تُسَعّر بهم النار يوم القيامة**»[(٢)].

وسمعت شيخ الإسلام يقول: كما أن خير الناس الأنبياء، فشرُّ الناس من تشبّه بهم من الكذابين، وادّعي أنه منهم، وليس منهم. فخيرُ الناس بعدهم العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون، فشرُّ الناس من تشبّه بهم يوهم أنّه منهم وليس منهم.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**من كانت عنده لأخيه مظلمةٌ في مال أو عرضٍ فلْيأتِهِ فلْيستحلَّها منه، قبل أن يُؤخذ، وليس عنده دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أُخذ من حسناته فأُعطيَها هذا، وإلّا أُخِذَ من سيئات هذا فطُرحتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار**»[(٣)].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «**مَنْ أخذَ شبرًا من الأرضِ بغير حقّه؛ خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبع أرضين**»[(٤)].

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نارُكم هذه التي يُوقِد بنو**

---

(١) مسلم (١٩٠٥).

(٢) الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة (٢٣٨٢) وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) البخاري (٢٤٤٩).

(٤) متفق على أصله، وهذا لفظ البخاري (٢٤٥٤) أما مسلم فبلفظ «**طوّقه الله إلى سبع أرضين**» (١٦١١).



آدم جزءٌ واحدٌ من سبعين جزءًا من نار جهنّم» قالوا: والله إن كانت لكافية. قال: «فإنّها قد فُضّلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلُّهنّ مثلُ حرِّها»[١].

والأحاديثُ في هذا الباب أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا، فلا ينبغي لمن نَصح نفسه أن يتعامى عنها، ويُرسل نفسه في المعاصي، ويتعلّق بحسن الرجاء وحسن الظن.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذرْهُ، ولا تغترَّ، فإنّه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحدّ في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت المرأةُ النار في هرّة، واشتعلت الشَّملة نارًا على من غلّها وقد قُتل شهيدًا!

وفي المسند عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «دخل رجلٌ الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مَرَّ رجلان على قومٍ لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يُقرِّب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قَرِّب، فقال: ليس عندي شيء. قالوا: قرِّب ولو ذبابًا. فقَرَّب ذبابًا فخلَّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرّب، فقال: ما كنتُ لأُقرِّب شيئًا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة»[٢].

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٦٥) مسلم (٢٨٤٣).

(٢) أحمد في الزهد (٨٤) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٣) بسند صحيح، وطارق بن شهاب صحابي رأى النبي ﷺ صغيرًا وحدّث عنه، فحتّى لو قيل لم يسمع منه، فهو من مراسيل الصحابة، والصحابة كلهم عدول. وقال الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ على الحديث: «سندُه لا بأس به».

=

وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب. وربّما اتّكل بعض المغترّين على ما يرى من نعم الله عليه في

=

وفي الحديث شؤم الشرك وشرّه، وأنّ من أفراده الذبح لغير الله تعالى. وتأمل حقارة الذبيحة فما هي إلا ذباب، لكن لـمّا قامَ في القلب التّوجّه بالعبادة بالذبح والنسك لغير الله خرج المخذول من الملّة وصار من المشركين. وقال ابن بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على كتاب التوحيد: قولُهُ: «فقالوا للآخر: قرّب. فقال: ما كنتُ لأقرّب لأحد شيئًا دون الله عز وجل. فضربوا عنقه، فدخل الجنة» هذا يحتمل أحد أمرين:

أ - أن في شريعة من قبلنا ليس فيه العذر بالإكراه، ولهذا لم يأخذ بالرخصة، ولم يعمل ما يخلّصه من شرهم.

ب - أنّه يمكن أن يكون هناك رخصة وعذر بالإكراه، ولكن لقوّة إيمانه وعدم مبالاته بهم لم يأخذ بالرخصة، وبادر بالإنكار وقال: «ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عز وجل».

قلتُ: ويُذكَرُ عن ابنة للإمام المجدّد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنّها اجتازت ومعها رفقتها بقومٍ فطلبوا منهم التقرّب لوثنهم بالذبح له، فقال أحد رفقتها: نُقرِّبُ له الترابُ ـ احتقارًا وتشنيعًا وإنكارًا ـ فقالت تلك الفقيهة بنت الفقيه، ولعلّ اسمها فاطمة: لا نقرّب لغير الله شيئًا ولو كان التراب. وقد عقد المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا خاصًّا في كتاب التوحيد في أنّ من الشرك الذبح لغير الله: باب ما جاء في الذبح لغير الله. وذكر حديث طارق بن شهاب وغيره.

وثَمَّ قاعدة شريفة نافعة: وهي أن كل اعتقاد أو قول أوعمل أمَرَ الله به، فصرْفُه لله تعالى توحيد وإيمان وإسلام وإخلاصٌ وشكرٌ وإحسان، وصرفه لغير الله شركٌ وكفرٌ وظلمٌ وفسق وضلال.

الدنيا، وأنه لا يغيّر ما به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، فهذا من الغرور.

وفي المسند عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله عز وجل يُعطي العبدَ من الدنيا على معاصيه ما يُحبّ، فانما هو استدراج**» ثم تلا قولَه عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤][١].

وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣- ٣٥].

وقد ردّ سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥- ١٧] أي: ليس كلّ من نعّمتُه ووسّعت عليه رزقَهُ أكون قد أكرمتُه، وليس كل من ابتليته وضيّقت عليه رزقَهُ أكون قد أهنتُه، بل أبتلي هذا بالنعمة، وأكرمُ هذا بالابتلاء.

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرَجٍ بنعم الله عليه وهو لا يعلم! ورُبَّ مفتونٍ بثناءِ الناس عليه وهو لا يعلم! ورُبَّ مغرورٍ بستر الله عليه وهو لا

---

(١) أحمد (١٧٣١١) وغيره، وحسّنه العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء.



يعلم!

وأعظم الخلق غرورًا من اغترّ بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة ورضي بها من الآخرة. حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد أنفع من النسيئة! ويقول الآخر: لا أتركُ متيقّنًا لمشكوك فيه! وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله. والبهائمُ العجم أعقلُ من هؤلاء، فإن البهيمة إذا خافت مضرّة شيء لم تُقدِمْ عليه ولو ضُرِبَتْ. وهؤلاء يقدم أحدهم على ما فيه عطَبُه وهو ينظر إليه وهو بين مصدّق ومكذب! فهذا الضَّرْبُ إن آمن أحدُهُم بالله ورسوله ولقائه والجزاء، فهو من أعظم الناس حسرة، لأنه أقدم على عِلْمٍ، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له.

وقولُ هذا القائل: النقدُ خيرٌ من النسيئة. فجوابه: أنه إذا تساوى النقد والنسيئة، فالنقد خير. وان تفاوتا وكانت النسيئة أكبر وأفضلُ فهي خير. فكيف والدنيا كلّها من أولها إلى آخرها كنَفَسٍ واحد من أنفاس الآخرة، كما في مسند أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما الدّنيا في الآخرة إلا كما يُدخِلُ أحدُكم إصبعه في اليَمِّ فلينظر بِمَ يرجع»**(١)

(١) أحمد (١٨٠٠٨) والترمذي (٢٣٢٢) وقد رواه مسلم بلفظ: **«والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم..»**.

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في سورة الأعلى فقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧] وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣] وقال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] وقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
=

فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة؟! فأيُّما أولى بالعاقل: إيثارُ العاجل في هذه المدّة اليسيرة، وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب، ليأخذ مالا قيمة له ولا خطرَ له ولا نهاية لعدده ولا غاية لأمده؟!

وأما قول الآخر: لا أترك متيقنًا لمشكوك فيه. فيقال له: إمّا أن تكون على شكٍّ من وعد الله ووعيده وصدق رسله، أو تكون على اليقين من ذلك. فإن كنتَ على اليقين؛ فما تركتَ إلّا ذرةً عاجلة منقطعة فانية عن قرب، لأنّه متيَقَّنٌ لاشكّ فيه ولا انقطاع له. وإن كنت على شكّ؛ فتأملْ آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به عنه، وتجرَّدْ وقُمْ لله ناظرًا أو مُناظِرًا حتى يتبيّن لك أنَّ ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحقُّ الذي لاشكَّ فيه، وأن خالقَ هذا العالم وربَّ السموات والأرض يتعالى ويتقدّس ويتنزَّه عن خلاف ما أخبرتْ به رسله عنه. ومن نَسَبَهُ إلى غير ذلك فقد شتمه وكذّبه وأنكر ربوبيته ومُلْكَه، إذا من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزًا أو جاهلًا لا يعلم شيئًا، ولا يسمعُ ولا يبصر، ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى، ولا يثيب ولا يعاقب، ولا يعزُّ من يشاء ولا يذل من يشاء، ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها، ولا

= وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [القصص: ٦٠] وقال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦].



يعتني بأحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملًا، وهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به، فكيف يجوز نسبة المَلِك الحق المبين إليه؟!

وإذا تأمّل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى حين كماله واستوائه؛ تبيّن له أن من عَنِيَ به هذه العناية، ونقله إلى هذه الأحوال، وصرّفه في هذه الأطوار، لا يليق به أن يهمله ويتركه سدى لا يأمره ولا ينهاه، ولا يُعرّفه بحقوقه عليه، ولا يثيبه ولا يعاقبه. ولو تأمَّل العبدُ حقّ التأمل لكان كلّ ما يُبصره وما لا يبصره دليلًا له على التوحيد والنبوة والمعاد، وأن القرآن كلامه.

فقد بان بأنّ المضيّع مغرورٌ على التقديرين: تقدير تصديقه ويقينه، وتقدير تكذيبه وشكّه.

فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شكّ فيه بالمعاد والجنة والنار، ويتخلفُ العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبدُ أنه مطلوب غدًا إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبَه أشدّ عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة، ويبيت ساهيًا غافلًا، لا يتذكّر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعدّ له، ولا يأخذ له أهبة؟

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر هذا الخلق، واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء. وهذا التخلّف له عدة أسباب: أحدها: ضعفُ العلم، ونقصان اليقين. ومن ظنّ أن العلم لا يتفاوت فقولُه من أفسد الأقوال وأبطلها، وقد سأل إبراهيم الخليل ربَّه أن يريَه إحياء الموتى عيانًا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك؛ ليزدادَ طمأنينة، ويصير المعلوم غيبًا شهادة. فإذا

اجتمع إلى ضعفِ العلم عدمُ استحضاره، أو غيبته عن القلب كثيرًا من أوقاته أو أكثرها، لاشتغاله بما يضادّه، وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورُخَصُ التأويل، وإلف العوائد؛ فهناك لا يُمسِكُ الإيمان في القلب إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب. وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر. ولهذا مدح الله سبحانه أهلَ الصبر واليقين، وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقد تبيّن الفرق بين حُسْنِ الظَّنِّ والغرور، وأن حسن الظن إن حَمَلَ على العمل وحثَّ عليه وساعده وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور.

وحسنُ الظن هو الرجاء، فمَنْ كان رجاؤه جاذبًا له على الطاعة، زاجرًا له عن المعصية فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاء، ورجاؤه بطالة وتفريطًا فهو المغرور. ولو أن رجلًا كانت له أرضٌ يؤمِّلُ أن يعود عليه من مَغَلِّهَا ما ينفعه فأهملَها، ولم يبذرها ولم يحرثها، وأحسن ظنه بأنه سيأتيه من مغلّها ما يأتي مَنْ حَرَثَ وبذر وسقى وتعاهد الأرض لعدَّهُ الناس من أسفه



السفهاء. وكذلك لو حسّن ظنه وقوّى رجاءه بأنّه يجيئُه ولدٌ من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرصٍ تامٍّ عليه وأمثال ذلك، فكذلك من حَسُنَ ظنُّه وقوِيَ رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرّبٍ إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨] فتأمل كيف جعل رجاءَهم إتيانَهم بهذه الطاعات. وقال المغترّون: إنَّ المفرّطين، المضيّعين لحقوق الله، المعطّلين لأوامره، الباغين على عباده، المجترئين على محارمه، أولئك يرجون رحمة الله!

وسِرُّ المسألة؛ أن الرجاء وحسن الظن إنّما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها، ثم يُحسن ظنه بربه، ويرجوه أن لا يكِلَهُ إليها، وأن يجعلها موصلةً إلى ما ينفعه، ويصرف ما يعرضها ويبطل أثرها.

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزمَ رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبته ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيُه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاءُ شيءٌ، والأماني شيءٌ آخر، فكلُّ راجٍ خائف، والسائر على الطريق إذا خافَ أسرعَ



السيرَ مخافةَ الفوات.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بَلَغَ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(١) وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة. فعُلِمَ أن الرجاءَ والخوفَ النافع هو ما اقترن به العمل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١] وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سألتُ رسول الله عن هذه الآية فقلت: أَهُمْ الذين يشربون الخمر، ويزنون، ويسرقون؟ فقال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يُتَقَبَّلَ منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**»(٢) والله سبحانه وَصَفَ أهلَ السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمَّل أحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجدَهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحنُ جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن! فهذا الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) الترمذي (٢٤٥٠) والبخاري في تاريخه (٢/٢٢٢) والحاكم (٧٨٥١) وفيه سنده كلام. وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣١٧٥) ورجّح الدارقطني إرساله كما في العلل: (١١/ ١٩٣). وصححه الألباني



يقول: وددتُ أني شعرةً في جنب عبدٍ مؤمن. ذكره أحمد عنه[١] وذكر عنه أيضًا: أنه كان يُمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وكان يبكى كثيرًا ويقول: ابكُوا فان لم تبكوا فتباكَوا[٢]. وكان إذا قام إلى الصلاة كأنّه عُودٌ من خشية الله عز وجل[٣] ولما احتُضِرَ قال لعائشة: يا بنيّة إنّي أصبتُ من مال المسلمين هذه العباءة، وهذا الحِلاب، وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب[٤] وقال: والله لوَددتُ أني كنت هذه الشجرة، تُؤكَلُ وتُعضد[٥] وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خَضِرَةً تأكلُني الدواب[٦].

وهذا عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور:٧] فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: ويحك، ضَعْ خدِّي على الأرض عساه أن يرحمني. ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي، ثلاثًا، ثم قضى[٧] وكان يمرُّ بالآية في وِرْده بالليل

(١) أحمد في الزهد (٥٥٩) وأشار محقّق الداء والدواء لضعفه، وقد صحّح ما يليه، وهو في الزهد لأحمد (٥٦١).
(٢) الزهد لأحمد (٥٥٨).
(٣) عبد الرزاق في المصنف (٢/ ٢٦٤).
(٤) أحمد في الزهد (٥٦٧) والحلاب والمِحلَب: هو الإناء الذي يُحلب فيه اللبن.
(٥) السابق: (٥٨٠).
(٦) السابق: (٥٨٢).
(٧) أبو داود في الزهد (٤٦).

فتخنقه ـ أي العَبْرَة ـ فيبقى في البيت أيّامًا يُعاد، يحسبونه مريضًا[(١)] وكان في وجهه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خطّانِ أسودان من البكاء[(٢)] وقال له ابن عباس: مصَّرَ اللهُ بِكَ الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل. فقال: وددت أنّي أنجو لا أجْرَ ولا وزر[(٣)].

وهذا عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبلّ لحيته[(٤)] وقال: لو أنّني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير[(٥)].

وهذا علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتدّ خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتّباع الهوى. قال: فأمّا طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق. أَلَا وإن الدنيا قد ولّتْ مُدبرةٌ، والآخرة مقبلةٌ، ولكلِّ واحدةٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمل[(٦)].

وهذا أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان يقول: إن أشدّ ما أخاف على نفسي يوم

---

(١) أحمد في الزهد (٦٢٧) وفيه ضعف.

(٢) أحمد في الزهد (٦٣٦).

(٣) أحمد في الزهد (٦٩٧) بسند صحيح.

(٤) أحمد (٤٥٤) والترمذي (٢٣٠٨) والحاكم (٧٩٤٢).

(٥) أحمد في الزهد (٦٨٥).

(٦) السابق (٦٩٢).



القيامة أن يقال: يا أبا الدرداء، قد علمتَ فكيف عملتَ فيما علمت؟[١] وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلّون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدورَكم، وتبكون على أنفسكم. ولوددت أني شجرة تُعضَد، ثم تُؤكل[٢].

وهذا عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا كان أسفلَ عينيه مثلُ الشِّرَاكِ البالي من الدموع[٣].

وكان أبو ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: ياليتَنِي كنتُ شجرة تعضد. وودت أني لم أُخْلق[٤] وعُرِضتْ عليه النفقةُ فقال: عندنا عنزٌ نحلبها، وأحمِرةٌ ننقل عليها، ومُحَرَّرٌ يخدمنا، وفضلُ عباءة، وإني أخاف الحساب فيها.

وقرأ تميم الداري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يُردّدُها ويبكي حتّى أصبح[٥].

---

(١) السابق (٧٣٠).

(٢) السابق (٧٣٠).

(٣) عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد (٧٨٣).

(٤) أحمد في الزهد (٧٨٧).

(٥) ابن المبارك في الزهد (٣١) ووكيع في الزهد (١٥٠) وأبو داود في الزهد (٣٩٤).

وقال أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وددتُ أنِّي كبشٌ فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي، وحَسَوا مرقي(١).

وهذا بابٌ يطول تتّبعه، قال البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ في صحيحه: باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر(٢). وقال إبراهيم التيمي: ما عرضْتُ قولي على عملي إلّا خشيتُ أن أكونَ مُكَذِّبًا(٣). وقال بن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلّهم يخافُ النفاقَ على نفسه، ما منهم أحدٌ يقول: إنه على إيمانِ جبريل وميكائيل(٤). ويُذكر عن الحسن: ما خافَهُ إلّا مؤمنٌ، ولا أَمِنَه إلّا منافق(٥). وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أنشُدك الله، هل سمّاني لك رسول الله ﷺ - يعني في المنافقين - فيقول: لا، ولا أُزكّي بعدك أحدًا(٦). فسمعتُ شيخنا يقول: ليسَ مراده: إنّي لا أُبرِّئُ غيرَك من النفاق، بل المراد: لا أفتحُ عليَّ هذا الباب. فكلُّ من سألني: هل سمّاني لك رسول الله ﷺ فأزكيه.

قلتُ: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعوَ له أن يكون

(١) أحمد في الزهد (١٠٢٥).
(٢) في كتاب الإيمان: باب (٣٦).
(٣) أحمد في الزهد (٢٢١٥).
(٤) البخاري في تاريخه (٥/١٣٧).
(٥) فتح الباري لابن رجب (١/١٧٩) وصحّحه.
(٦) الهيثمي في المجمع (٣/٤٢) ووثّق رجاله.

من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «**سبقك بها عكاشة**»(١) ولم يُرِدْ أنّ عكاشةَ وحدَهُ أحقُّ بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا لقام آخرُ وآخر، وانفتح الباب، وربَّما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولى. والله أعلم»(٢).

ومن تلبيسات إبليس على العباد بزعم حسن الظن بالله تعالى:

أنَّ ما من عبادة إلا ولأبي مِرَّة فيها حظٌّ، عياذا بذي الجلال منه ومن تلبيسه، إذ يُزيّنُ المعصية في قالب الطاعة، ويُلبس الخذلان ثوب التوفيق، ولم ينج منه إلا القليل ممن خصهم الله بإخلاص الدين لوجهه ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٣] ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٥] وتتدبّر آيات الأعراف وما فيها من ذكر كيد الخبيث الوسواس الخناس، إذ يتوعدك وإخوتك بأنه سيأتيهم من كل الجهات لإغوائكم، عدا جهة العلوّ، فمنها مَدَدُ الله وتوفيقه وحفظه لعبده، فلا مدخلَ لعدو بني آدم من هناك، وانظر سوء أدبه مع رب العالمين بقوله فيما ذكره

---

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٤٢) مسلم (٢١٦).

(٢) الداء والدواء، ابن القيم (٣٦- ٩٨) باختصار وتصرف.

الله عنه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٨].

وقد صَدَق ظنُّ الأَبْعَدِ المرجوم في إضلاله مَنْ كتب الله عليهم الخذلان، ولم يُمددهم بالتوفيق والحفظ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

قال عبد الرحمن بن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن شُبَه أولئك: أنهم قالوا إن الله عز وجل مستغنٍ عن أعمالنا، غير متأثر بها معصية كانت أو طاعة، فلا ينبغي أن نُتعب أنفسنا في غير فائدة!

وجواب هذه الشبهة: أن نجيب أولًا بالجواب الأول ونقول: هذا رَدٌّ على الشرع فيما أمر به. فكأنّكم قلتم للرسول وللمرسل: لا فائدة فيما أمرتنا به!

ثم نتكلم عن الشبهة فنقول: من يتوهّم أن الله جل وعلا ينتفع بطاعة أو يتضرر بمعصية فما عرف الله جل جلاله، لأنه مقدّس عن ذلك، وإنما نفع الأعمال عائد على أنفسنا كما قال عز وجل: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦] ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ١٨] وإنما يأمرُ الطبيبُ المريضَ بالحمية لمصلحة المريض، لا لمصلحة الطبيب. وكما أن للبدن مصالح من الأغذية ومضار، فللنفس مصالح من العلم والجهل والاعتقاد والعمل،



فالشرع كالطبيب، فهو أعرف بما يأمر به من المصالح.

ومن تلبيس إبليس على بني آدم قولهم: قد ثبت سعة رحمة الله سبحانه وتعالى، وهي لا تعْجَزُ عنَّا، فلا وجه لحرمان نفوسنا مرادها.

فالجواب: كالجواب الأول، لأن هذا القول يتضمن اطّراح ما جاءت به الرسل من الوعيد، وتهوين ما شددت في التحذير منه في ذلك، وبالغت في ذكر عقابه.

ومما يكشف التلبيس في هذا: أن الله عز وجل كما وصف نفسه بالرحمة فقد اتّصف بأنه شديد العقاب. ونحن نرى الأولياء والأنبياء يُبتَلون بالأمراض والجوع، ويُؤخذون بالزلل. وكيف وقد خافه من قطع له بالنجاة؟! فالخليل يقول يوم القيامة: نفسي نفسي، والكليم يقول: نفسي نفسي، وهذا عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: الويل لعمر إن لم يُغفر له.

واعلم أن من رجا الرحمة تعرَّضَ لأسبابها، فمِن أسبابها: التوبةُ من الزلل، كما أن من رجا أن يحصدَ زَرَعَ. وقد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨] يعني أن الرجاء بهؤلاء يليق، وأما المصرون على الذنوب وهم يرجون الرحمة فرجاؤهم بعيد.

ومن تلبيس الشيطان على بني آدم: أن يوقعه في غفلة يغلّفها بالعصمة بزعمه، فيحسن الظن بنفسه في ما ليس لها فيه مشروعية، ويسوّل له أنه غير واقع في الحرمة. وبعضهم قد يرى ما يشبه نوع كرامات أو منامات صالحة أو

فتح عليهم كلمات لطيفة أثمرها الفكر والخلوة، فيتركون الأمر ولا ينتهون! وهذا ضلال مبين. وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قيل لأبي نصر: إنّ بعض الناس يُجالس النسوان، ويقول: أنا معصوم في رؤيتهن؟ فقال: ما دامت الأشباح قائمة؛ فإن الأمر والنهي باقٍ، والتحليل والتحريم مخاطب به، ولن يجترئ على الشبهات إلا من يتعرض للمحرمات. وقال أبو علي الروذباري وسئل عمن يقول: وصلت إلى درجة لا يؤثر فيّ اختلاف الأحوال؟ فقال: قد وصل، ولكن إلى سقر!

وقال أبو القاسم الجنيد لرجل ذكر المعرفة، فقال الرجل: أهلُ المعرفة بالله يَصِلُون إلى ترك الحركات من باب البرّ والتقرب إلى الله عز وجل. فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلّموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالًا من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإليه رجعوا فيها، ولو بَقِيتُ ألف عام لم أنقُصْ من أعمال البر ذرّةً إلا أن يُحال بي دونها، لأنه أوكد في معرفتي به، وأقوى في حالي.

وقال أبو الحسين النوري: من رأيتَه يدَّعِي مع الله عز وجل حالةً تخرجه عن حدّ علم شرعي فلا تقربنَّه، ومن رأيتَه يدَّعِي حالةً باطنة لا يدلُّ عليها ويشهدُ لها حفظ ظاهره فاتهمه على دينه.

قال ابن عقيل: اعلم أنّ الناس شردوا على الله عز وجل، وبعدوا عن وضع الشرع إلى أوضاعهم المخترعة، فمنهم من عبد سواه تعظيمًا له عن العبادة، وجعلوا تلك وسائل على زعمهم. ومنهم من وحَّد إلا أنه أسقط



العبادات، وقال: هذه أشياءُ نُصبت للعوام لعدم المعارف، وهذا نوع شرك، ولقد قال الله تعالى لأهل المعرفة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] وأبان سبحانه عن حقائق الإيمان به فقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] فعلم أن المُعوّل على المقاصد، ولا يكفي مجرد المعارف من غير امتثال، كما تعوِّلُ عليه الملحدة الباطنية وشُطَّاحُ الصوفية»[١].

---

(١) تلبيس إبليس، أبو الفرج ابن الجوزي (١ / ٣٢٧_٣٣٥) باختصار وتصرّف.
وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكر أوابد للمتصوّفة: «ولما قلّ علم الصوفية بالشرع صدر منهم من الأفعال والأقوال ما لا يحل، مثل ما قد ذكرنا. ثم تشبّه بهم من ليس منهم، وتسمّى باسمهم، وصدر عنهم مثل ما قد حكينا، وكان الصالح منهم نادرًا؛ ذمَّهُم خلق من العلماء وعابوهم حتى عابهم مشايخهم. وعن يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت الشافعي يقول: لو أن رجلًا تصوّفَ أولَ النَّهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحمقًا! وعنه أيضًا أنه قال: ما لزم أحد الصوفية أربعين يومًا فعاد عقله إليه أبدًا وأنشد ـ أي الإمام الشافعي ـ:

وَدَعِ الذين إذا أتوكَ تنسّكوا ... وإذا خلوا كانوا ذئاب حقاف

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: قال أبو سليمان: ما رأيت صوفيًا فيه خير إلا واحدًا عبد الله بن مرزوق، قال: وأنا أرقّ لهم. وعنه ـ أي ابن أبي الحواري ـ قال: حدثنا وكيع قال: سمعت سفيان يقول: سمعت عاصمًا يقول: ما زلنا نعرف الصوفية بالحماق، إلا أنهم يستترون بالحديث!

=



=

وعن يحيى بن معاذ يقول: اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس: العلماء الغافلين، والفقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين.

وقد ذكرنا في أول ردنا على الصوفية من هذا الكتاب - أي تلبيس إبليس - أن الفقهاء بمصر أنكروا على ذي النون ما كان يتكلّم به، وبسطام وأخرجوه، وأخرجوا أبا سليمان الداراني، وهرب من أيديهم أحمد بن أبي الحواري، وسهل التستري. وذلك لأن السلف كانوا ينفرون من أدنى بدعة، ويهجرون عليها، تمسّكًا بالسنة. ولقد حدثني أبو الفتح بن السامري قال جلس الفقهاء في بعض الأربطة للعزاء بفقيه مات فأقبل الشيخ أبو الخطاب الكلوَذَاني الفقيه متوكّئًا على يدي حتى وقف بباب الرباط وقال: يعزّ عليّ لو رآني بعض أصحابنا ومشايخنا القدماء وأنا أدخل هذا الرباط! قلت: على هذا كان أشياخنا. فأما في زماننا هذا فقد أصطلح الذئب والغنم.

قال ابن عقيل: وأنا أذمُّ الصوفية لوجوه يوجب الشرع ذمّ فاعلها منها:

أنّهم اتخذوا مناخ البطالة وهي الأربطة، فانقطعوا إليها عن الجماعات في المساجد، فلا هي مساجد ولا بيوت ولا خانات، وصمدوا فيها للبطالة عن أعمال المعاش، وبدنوا أنفسهم بدن البهائم للأكل والشرب والرقص والغناء، وعوَّلُوا على الترقيع المعتمد به التحسين تلميعًا. واستمالوا النسوة والمردان بتصنّع الصور واللباس، فما دخلوا بيتًا فيه نسوة فخرجوا إلا عن فساد قلوب النسوة على أزواجهن. ثم يَقبلون الطعام والنفقات من الظلمة والفجار وغاصبي الأموال. ويستصحبون المُردان في السماعات، يجلبونهم في الجموع مع ضوء الشموع، ويخالطون النسوة الأجانب ينصبون لذلك حجة إلباسهن الخرقة، ويستحلّون بل يوجبون اقتسام ثياب من طرب فسقط ثوبه، ويسمّون الطرب وجدًا، والدعوةَ وقتًا، واقتسام ثياب الناس حكمًا. ولا يخرجون عن بيت دُعُوا إليه إلا عن إلزام دعوةٍ أخرى يقولون: إنها وجبت!

=

=

ويعتقدون أن الغناء بالقضبان قربة، وقد سمعنا عنهم أن الدعاء عند حدو الحادي مُجاب! ويسلمون أنفسهم إلى شيوخهم، فإن عوتِبُوا قالوا: الشيخ لا يعترض عليه أحد! فإن قبّل أمردًا قالوا: رحمة! وإن خلا بأجنبية قالوا: ابنته، وقد لبست الخرقة! وإن قسم ثوبًا على غير أربابه من غير رضا مالكه قالوا: حكم الخرقة!

وإنما هذه الكلمة جعلها الصوفية ترفيها لقلوب المتقدمين، وسلطنة سلكوها على الأتباع والمريدين، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] ولعل هذه الكلمة إنما صدرت ابتداءً من القائلين منهم بأن العبد إذا عرف لم يضره ما فعل! وهذه نهاية الزندقة، لأن الفقهاء أجمعوا على أنه لا حالة ينتهي إليها العارف إلا ويضيق عليه التكليف، كأحوال الأنبياء يضايَقُون في الصغائر.

فالله الله في الإصغاء إلى هؤلاء الفرغِ الخالين من الإثبات، وإنما هم زنادقة جمعوا بين مدارع العمّال مُرَقَّعَات وصوف، وبين أعمال الخلعاء الملحدة أكل وشرب ورقص وسماع، وإهمال لأحكام الشرع. ولم تتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فأتوا بوضع أهل الخلاعة.

فأول ما وضعوا أسماء، وقالوا: حقيقة وشريعة، وهذا قبيح، لأن الشريعة ما وَضَعَهُ الحقّ سبحانه لِمَصَالح الخلق. فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين. وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع. وإن سمعوا أحدًا يروي حديثا قالوا: مساكين، أخذوا علمَهم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت! فمن قال: حدثني أبي عن جدي قلتُ: حدثني قلبي عن ربي! فهَلَكُوا وأهلكوا بهذه الخرافات قلوب الأغمار، وأُنفقت عليهم لأجلها الأموال. لأن الفقهاء كالأطباء فيردونهم بفتاويهم عن ضلالهم وفسقهم، والحقُّ يثقل كما تثقل الزكاة. وقد أبدلوا إزالة العقل بالخمر بشيء سمّوه: الحشيش والمعجون، والغناء

=

=

المحرم سمّوه: السماع والوجد، والتعرّض بالوجد المزيل للعقل حرام. كفى الله الشريعة شرّ هذه الطائفة التي ليس تحتها سوى إهمال التكليف وهجران الشرع، ولذلك خفّوا على القلوب، ولا دلالة على أنهم أرباب باطل أوضح من محبة طباع الدنيا لهم، كمحبتهم أرباب اللهو والمغنيات.

وما على الشريعة أضرّ من المتكلمين والمتصوفين، فهؤلاء يُفسدون عقائد الناس بتوهيماتِ شبهات العقول، وهؤلاء يفسدون الأعمال، ويهدمون قوانين الأديان، يحبون البطالات وسماع الأصوات. وما كان السلف كذلك بل كانوا في باب العقائد عبيد تسليم، وفي الباب الآخر أرباب جِدٍّ.

قال ابن عقيل: ونصيحتي إلى إخواني: أن لا يَقرعَ أفكار قلوبهم كلام المتكلمين، ولا تصغي مسامعهم إلى خرافات المتصوفين. بل الشغل بالمعاش أولى من بطالة الصوفية، والوقوف على الظواهر أحسن من توغل المنتحلة. وقد خبرت طريقة الفريقين، فغاية هؤلاء الشك، وغاية هؤلاء الشطح». تلبيس إبليس (١/٣٣٥-٣٤٠) باختصار.

شناعة ظن السوء بالرحمن

لا أشنع ولا أفظع ولا أوضع ممن يظن السوء بمن لا يأتي الخير إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، ولا يستحق الحمد على التمام والشكر على الكمال إلا هو، فما من نعمة دقّت أو جلّت، خفيت أو أُعلنت إلا من الله، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

وتأمل ختم الآيتين الجليلتين في بيان عجز ابن آدم عن إحصاء نعم الله، قال الجليل العزيز سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال في النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النمل: ١٨]، ففي الآية الأولى بيّن طبيعة غالب البشر، وفي الثانية ذكر برد المغفرة وحلاوة الرحمة، فالحمد لله الحميد الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ولا إله إلا هو.

ولقد فتح الله تعالى على ابن القيم يوم كتب مستخلِصًا الدروس والعبر من غزوة أحد على ضوء آيات سورة آل عمران، إذ بيّن الفرقان بين أولياء الرحمن الذين أحسنوا الظن بربهم وبين من كان في قلوبهم مرض نفاق وسوء ظن، في سِفْرِهِ النفيس زاد المعاد فقال ـ باختصار يسير ـ [(١)]:

«ونذكر بعضَ الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أُحُد، وقد

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم (٣ / ٢١٨-٢٣٩).



أشار اللهُ سبحانه وتعالى إلى أُمهاتِها وأُصولها في سورة «آل عمران» حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفُهم سوء عاقبة المعصية، والفَشَل، والتنازُعِ، وأن الذي أصابَهم إنما هو بِشُؤمِ ذلِكَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فلما ذاقُوا عاقبةَ معصيتِهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانُوا بعد ذلك أشدَّ حذرًا ويقظة، وتحرُّزًا مِن أسبابِ الخِذلان.

ومنها: أن حِكمة الله وسُنَّته في رُسله، وأتباعِهم، جرت بأن يُدَالوا مَرَّةً، ويُدَالَ عليهم أُخرى، لكن تكونُ لهم العاقبةُ، فإنهم لو انتصرُوا دائمًا، دخلَ معهم المؤمنون وغيرُهم، ولم يتميَّز الصَّادِقُ مِن غيره، ولو انتُصِرَ عليهم دائمًا، لم يحصل المقصودُ من البعثة والرسالة، فاقتضت حِكمة الله أن جمع لهم بينَ الأمرين ليتميز مَن يتبعُهم ويُطيعهُم للحق، وما جاؤوا به ممن يتبعُهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا مِن أعلام الرسل، كما قال هِرَقْلُ لأبى سفيان: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قال: نعم. قَالَ: كَيْفَ الحَرْبُ بَيْنكُم وبَيْنَه؟ قالَ: سِجَال، يُدالُ علينا المرة، ونُدالُ عليه الأخرى. قال: كَذلِكَ الرُّسُل تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَة.





ومنها: أن يتميَّز المؤمنُ الصَّادِقُ مِن المنافقِ الكاذبِ، فإنَّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يومَ بدر، وطار لهم الصِّيتُ، دخل معهم في الإسلام ظاهرًا مَنْ ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حِكمةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أن سَبَّبَ لعباده مِحْنَةً ميَّزت بين المؤمن والمنافق، فأَطْلَعَ المنافقون رُؤوسَهم في هذه الغزوة، وتكلَّموا بما كانوا يكتُمونه، وظهرت مُخَبَّآتُهم، وعاد تلويحُهم تصريحًا، وانقسم الناسُ إلى كافر، ومؤمن، ومنافق، انقسامًا ظاهرًا، وعَرَفَ المؤمنون أنّ لهم عدوًّا في نفس دُورهم، وهم معهم لا يُفارقونهم، فاستعدُّوا لهم، وتحرَّزوا منهم. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أي: ما كان اللهُ ليذركم على ما أنتم عليه من التباسِ المؤمنين بالمنافقين، حتى يميزَ أهلَ الإيمانِ مِن أهل النفاق، كما ميَّزهم بالمحنة يومَ أُحُد، وما كان الله لِيُطلعكم على الغيب الذى يَمِيزُ به بينَ هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميِّزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يُريد أن يميزهم تمييزًا مشهودًا، فيقع معلومُهُ الذي هو غيبٌ شهادةً. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] استدراك لـما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، سوى الرسلِ، فإنه يُطلعهم على ما يشاء مِن غيبه، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيبِ الذي يُطْلِعُ عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم، فلكم أعظمُ الأجر والكرامة.

ومنها: استخراجُ عبوديةِ أوليائه وحزبِهِ في السَّراء والضرَّاء، وفيما يُحبُّون



وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتُوا على الطاعة والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون، فهم عبيدهُ حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله على حَرْفٍ واحد مِن السَّراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوِّهم في كُلِّ موطن، وجعل لهم التَّمْكِينَ والقهرَ لأعدائهم أبدًا، لطغتْ نفوسُهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصرَ والظفرَ، لكانُوا في الحال التي يكونون فيها لو بَسَطَ لهم الرِّزْقَ، فلا يُصْلِحُ عِبادَهُ إلا السَّراءُ والضَّراءُ، والشدةُ والرخاءُ، والقبضُ والبسطُ، فهو المدبِّرُ لأمر عباده كما يليقُ بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغَلَبَةِ، والكَسْرَةِ، والهزيمة؛ ذلُّوا وانكسَروا، وخضعُوا، فاستوجبوا منه العِزَّ والنَّصْرَ، فإن خِلْعَةَ النصر إنما تكونُ مع ولاية الذُّلِّ والانكسارِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] فهو سبحانه إذا أراد أن يُعِزَّ عبدَه، ويجبُرَه، وينصُرَه، كسره أوَّلًا، ويكونُ جبرُه له ونصره، على مِقدار ذُلِّه وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيَّأ لعباده المؤمنين منازِلَ في دار كرامته، لم تبلُغْها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنةِ، فقيَّض لهم الأسبابَ التي تُوصِلُهُم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفّقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوسَ تكتسِبُ من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا





ورُكونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يَعُوقُها عن جِدِّها في سيرها إلى الله والدارِ الآخرة، فإذا أراد بها ربُّهَا ومالِكُهَا وراحِمُهَا كرامته، قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقى العليلَ الدواءَ الكريه، ويقطع منه العروقَ المؤلمَةَ لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه، لَغَلَبَتْهُ الأدواءُ حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقرَّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّدِّيقيَّة إلا الشهادةُ، وهو سبحانه يُحب أن يتّخِذَ مِن عباده شهداءَ، تُراقُ دماؤهم في محبته ومرضاته، ويُؤْثرونَ رضاه ومحابَّه على نفوسهم، ولا سبيلَ إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيَّضَ لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذي أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحّص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ



﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١] فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهِممهم، وبينَ حُسنِ التسلية، وذكر الحِكم الباهِرَة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فقد استويتُم في القرح والألَمِ، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فما بالكم تَهِنُونَ وتضعُفُون عند القرحِ والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيلِ الشيطان، وأنتم أُصِبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبرَ أنه يُدَاوِلُ أيامَ هذه الحياة الدنيا بين الناسِ، وأنها عَرَضٌ حاضِر، يقسمها دُوَلًا بين أوليائه وأعدائِهِ بخلاف الآخِرةِ، فإن عزَّها ونصرَها ورجاءَها خالصٌ للذين آمنُوا. ثم ذكر حِكمة أُخرى، وهي أن يتميَّزَ المؤمنون من المنافقين، فيعلمُهم عِلْمَ رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومِين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتَّب عليه ثوابٌ ولا عقاب، وإنَّما يترتب الثوابُ والعقابُ على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحسِ.

ثم ذكر حكمة أُخرى، وهي اتخاذُه سبحانه منهم شهداء، فإنه يُحِبُّ الشهداء من عباده، وقد أعَدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلَها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بدَّ أن يُنِيلَهم درجة الشهادة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، تنبيه لطيفُ الموقِع جدًّا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخَذَلُوا عن نبيه يومَ أُحُد، فلم يشهدوه،



ولم يَتَّخِذْ منهم شهداء، لأنه لم يُحبهم، فأركَسَهم وردَّهُم لِيَحْرِمَهُم ما خصَّ به المؤمنين في ذلكَ اليوم، وما أعطاهُ مَن استُشهِدَ منهم، فثبّط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءَهُ وحِزبه.

ثم ذكر حِكمة أُخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتُهم وتخليصُهم من الذنوب، ومن آفاتِ النفوس، وأيضًا فإنه خلَّصهم ومحَّصهم من المنافقين، فتَمَيَّزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يُظهِرُ أنه منهم، وهو عدوُّهم.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي محقُّ الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعُدوانهم، ثم أنكر عليهم حُسبانهم، وظنَّهُم أن يدخلُوا الجنَّة بدون الجهاد في سبيله، والصبرِ على أذى أعدائه، وإن هذا ممتنع بحيثُ يُنْكَرُ على مَن ظنه وحَسِبَه.

فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] أي: ولما يَقَعْ ذلِكَ منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع، لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكونَ الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزى العبدَ على مجرد علمه فيه دون أن يقعَ معلومُه، ثم وبَّخهم على هزيمتهم مِن أمر كانوا يتمنَّونه ويودُّون لِقاءه، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]. قال ابن عباس: «ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالًا يستشهدُونَ فيه، فيلحقُونَ إخوانَهم، فأراهم الله ذلك يوم أُحُد، وسبّبه لهم، فلم يَلْبَثُوا أن انهزموا إلا مَن شاء الله

منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]».

ومنها: أن وقعةَ أُحُدٍ كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصًا بين يدي موتِ رسول الله ﷺ، فثبَّتهم، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم أَنْ ماتَ رسولُ الله ﷺ، أو قُتِلَ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتُوا على دِينه وتوحِيدِه ويموتوا عليه، أو يُقتلُوا، فإنهم إنما يعبدُون ربَّ محمد، وهو حيٌّ لا يموت، فلو ماتَ محمد أو قُتِلَ، لا ينبغي لهم أن يَصْرِفَهم ذلِكَ عن دينه، وما جاء به، فكلُّ نفسٍ ذائِقةُ الموت، وما بُعِثَ محمد ﷺ لِيخلَّد لا هُوَ ولا هُم، بل لِيمُوتُوا على الإسلامِ والتَّوحيدِ، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء ماتَ رسول الله ﷺ أو بَقِيَ، ولهذا وبَّخَهُم على رجوع مَن رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيْطَانُ: إنَّ محمدًا قد قُتِلَ، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتِلُوا، فظهر أثرُ هذا العِتَابِ، وحكمُ هذا الخطاب يومَ مات رسولُ الله ﷺ، وارتدَّ مَن ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشاكِرُون على دينهم، فنصرهم الله وأعزَّهم وظفَّرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلًا لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحَقَ به، فيَرِدُ الناسُ كُلُّهم حوضَ المنايا مَوْرِدًا واحِدًا، وإن تنوَّعت أسبابه، ويصدُرونَ عن موقف القِيامة مصادِرَ شتَّى، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير.



ثم أخبر سبحانه أن جماعةً كثيرةً من أنبيائه قُتِلُوا وقُتِل معهم أتباعٌ لهم كثيرون، فما وَهَنَ مَنْ بقيَ منهم لِما أصابهم في سبيله، وما ضَعُفُوا، وما استكانُوا، وما وَهَنُوا عندَ القتل، ولا ضعفُوا، ولا استكانوا، بل تَلَقَّوا الشهادةَ بالقُوَّةِ، والعزيمةِ، والإقْدَامِ، فلم يُسْتَشْهَدُوا مُدَبِرِينَ مستكينين أذلةً، بل استُشْهِدُوا أعزَّةً كِرامًا مقبلِينَ غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر سُبحانه عما استنصرت به الأنبياءُ وأُممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم، أن يُثَبِّت أقدامَهم، وأن ينصُرَهم على أعدائهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧، ١٤٨] لما علم القومُ أن العدو إنما يُدَالُ عليهم بذنوبهم، وأن الشيطانَ إنما يستزِلُّهم ويهزِمُهم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ في حقّ أو تجاوزٌ لحد، وأن النصرةَ منوطة بالطاعة، قالُوا: ربنا اغفِرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنَا في أمرنا، ثم عَلِمُوا أن ربَّهم تبارك وتعالى إن لم يُثبِّتْ أقدامَهم ويَنْصُرْهم، لم يَقْدِرُوا هُم على تثبيتِ أقدامِ أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنَّهُ بيده دُونهم، وأنه إن لم يُثبِّتْ أقدامَهم وينصرهم لم يثبتُوا ولم ينتصِرُوا، فَوَفَّوا المقَامَيْنِ حقَّهما: مقامَ المقتضي، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقامَ إزالةِ المانع من النصرة، وهو الذنوبُ والإسرافُ.

ثم حذَّرهم سبحانه مِن طاعة عدوِّهم، وأخبر أنَّهم إن أطاعوهم خَسِرُوا الدنيا والآخِرَة، وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقينَ الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفِروا يومَ أُحُد.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمَن والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيُلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهُجُومِ عليهم، والإقدام على حربهم، وأنَّه يُؤيِّد حزبَه بجند مِن الرعب ينتصِرونَ به على أعدائهم، وذلك الرعبُ بسبب ما في قلوبهم مِن الشركِ باللهِ، وعلى قدرِ الشركِ يكون الرعبُ، فالمشركُ باللهِ أشدُّ شيءٍ خوفًا ورُعبًا، والذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بالشِّرْكِ، لهم الأمنُ والهُدى والفلاحُ، والمشركُ له الخوفُ والضلالُ والشقاءُ.

ثم أخبرهم أنه صَدَقَهُمْ وعدَه في نُصرتهم على عدوهم، وهو الصادقُ الوعد، وأنهم لو استمرُّوا على الطاعةِ، ولزوم أمر الرسول لاستمرَّت نُصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقُوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصْرَةُ، فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاءً، وتعريفًا لهم بسوء عواقِب المعصيةِ، وحُسنِ عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عَفَا عنهم بعد ذلك كُلِّه، وأنه ذو فضلٍ على عباده المؤمنين. قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلَّط عليهم أعداءَهم حتى قتلُوا منهم مَن قتلوا، ومثَّلُوا بهم، ونالُوا منهم مَا نالوه؟ فقال: «لولا عفوُه عنهم،



لاستأصلَهم، ولكن بعفوه عنهم دَفَعَ عنهم عدوَّهم بعد أن كانوا مُجمعين على استئصالهم».

ثمَّ ذكَّرهم بحالهم وقتَ الفرارِ مُصعدينَ، أي: جادِّين في الهربِ والذهاب في الأرضِ، أو صاعدين في الجبلِ لا يَلْوونَ على أحدٍ من نبيهم ولا أصحابهم، والرسولُ يدعوهم في أُخراهم: «**إليَّ عِبَادَ اللهِ، أَنَا رسُولُ اللهِ**»[1] فأثابهم بهذا الهرب والفرارِ، غمًّا بعدَ غَمٍّ: غمَّ الهزيمة والكسرةِ، وغمَّ صرخةِ الشيطان فيهم بأن محمدًا قد قُتل. وقيل: جازاكم غمًّا بما غممتُم رسولَه بفراركم عنه، وأسلمتمُوه إلى عدوِّهِ، فالغمُّ الذي حصل لكم جزاءً على الغمِّ الذي أوقعتموه بنبيه، والقولُ الأولُ أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣] تنبيهٌ على حِكمة هذا الغم بعدَ الغمِّ، وهو أن يُنسيَهم الحزنَ على ما فاتهم مِن الظفر، وعلى ما أصابهم مِن الهزيمةِ والجِراحِ، فنسُوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصُل بالغمِّ الذي يعقُبُه غمٌّ آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنَّه حَصَلَ لهم غمُّ فواتِ الغنيمة، ثم أعقبه غمُّ الهزيمةِ، ثم غمُّ الجراح التي أصابتهم، ثم غَمُّ القتلِ، ثم غَمُّ سماعِهم أن رسولَ الله ﷺ قد قُتِلَ، ثم غَمُّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمَّين اثنين خاصة، بل غمَّـًا متتابعًا لتمام الابتلاء والامتحان.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣١٤).

الثالث: أن قوله: ﴿بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣] من تمام الثوابِ، لا أنه سببُ جزاء الثواب، والمعنى: أثابهم غمًّا متَّصِلًا بغمٍّ، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيَّهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزومِ مركزهم، وتنازعِهِم في الأمر، وفشلهم، وكُلُّ واحد من هذه الأمور يُوجب غمًّا يخصُّه، فترادفت عليهم الغمومُ كما ترادفت منهم أسبابُها وموجباتُها، ولولا أن تداركهم بعفوِه، لكان أمرًا آخَرَ.

وَمِن لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهى من بقايا النفوس التي تمنع من النصرة المستقرة، فقيَّض لهم بلطفه أسبابًا أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتَّب عليها آثارُها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبةَ منها والاحترازَ مِن أمثالها، ودفعها بأضدادها أمرٌ متعيَّنٌ، لا يتم لهم الفلاحُ والنصرةُ الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشدَّ حذرًا بعدها، ومعرفة بالأبوابِ التي دخل عليهم منها.

لعَلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقِبُهُ   ورُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالعِلَلِ

ثم إنه تداركهم سُبحانه برحمته، وخفَّف عنهم ذلك الغَمَّ، وغيَّبه عنهم بالنُّعاسِ الذي أنزله عليهم أمنًا منه ورحمة، والنعاسُ في الحرب علامةُ النصرة والأمنِ، كما أنزله عليهم يومَ بدر، وأخبر أن مَن لم يُصبْه ذلك النعاسُ، فهو ممن أهمته نفسُه لا دِينُه ولا نبيُّه ولا أصحابُه، وأنهم يظنون باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية.

وقد فُسِّرَ هذا الظنُّ الذي لا يليقُ باللهِ، بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسولَه، وأن



أمْرَهُ سيضمحِلُّ، وأنه يُسلِمُه للقتل، وقد فُسِّرَ بظنهم أن ما أصابَهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حِكمة له فيه، ففسر بإنكارِ الحِكمة، وإنكارِ القدر، وإنكارِ أن يُتمَّ أمرَ رسوله ويُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه، وهذا هو ظنُّ السَّوْءِ الذي ظَنَّهُ المنافقُونَ والمشرِكُونَ به سبحانه وتعالى في سورة الفتح حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦](١).

وإنما كان هذا ظنَّ السَّوْءِ، وظنَّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنَّ غير الحق، لأنه ظنَّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاتِهِ العُليا، وذاتِه المبَّرأة من كُلِّ عيبٍ وسوء، بخلافِ ما يليقُ بحكمته وحمدِه، وتفرُّدِهِ بالربوبية والإلهيَّة، وما يَليق بوعده الصادِق الذي لا يُخلِفُهُ، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصُرُهم ولا يخذُلُهم، ولجنده بأنهم هُمُ الغالبون، فمَن ظنَّ بأنه لا ينصرُ رسولَه، ولا يُتِمُّ أمرَه، ولا يؤيِّده، ويؤيدُ حزبه، ويُعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصرُ دينه وكتابه، وأنه يُديل الشركَ على التوحيدِ، والباطلَ على الحقِّ إدالة مستقرة يضمحِلّ معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظنَّ بالله ظن السَّوْءِ، ونسبه إلى خلاف ما يليقُ بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإنَّ حمدَه وعزَّته، وحِكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يَذِلَّ حزبُه وجندُه، وأن تكون النصرةُ المستقرة، والظفرُ الدائم لأعدائه

---

(١) قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي أن السوء محيط بهم من جميع الجهات كما تحيط الدائرة بمن في جوفها». القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣٨٢).



المشركين به، العادلين به، فَمن ظنَّ به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءَه، ولا عرف صفاتِه وكماله.

وكذلك مَن أنكر أن يكونَ ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيَته، وملكه وعظمتَه، وكذلك مَن أنكر أن يكون قدَّر ما قدَّره من ذلك وغيره لِحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردةٍ عن حكمة، وغايةٍ مطلوبة هي أحبُّ إليه من فوتها، وأن تلك الأسبابَ المكروهةَ المفضية إليها لا يخرج تقديرُها عن الحكمةِ لإفضائِهَا إلى ما يُحِبُّ، وإن كانت مكروهة له، فما قدَّرها سُدى، ولا أنشأها عبثًا، ولا خلقها باطلًا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلَمُ عن ذلك إلا مَن عرف الله، وعرف أسماءَه وصفاتِهِ، وعرفَ موجبَ حمدِهِ وحكمته، فمَن قَنِطَ مِن رحمته، وأيسَ مِن رَوحه، فقد ظن به ظنَّ السَّوء.

ومَن جوَّز عليه أن يعذِّبَ أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويُسوِّي بينهم وبين أعدائه، فقد ظَنَّ به ظَنَّ السوءِ.

ومَن ظنَّ به أن يترُكَ خلقه سُدى، معطَّلينَ عن الأمر والنهى، ولا يُرسل إليهم رسله، ولا ينزِّل عليهم كتبه، بل يتركهم هَمَلًا كالأنعام، فقد ظَنَّ به ظنَّ السَّوء.

ومَن ظن أنه لن يجمع عبيدَه بعد موتِهم للثوابِ والعِقاب في دار يُجازي



المحسنَ فيها بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، ويبيِّنُ لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهرُ للعالمين كلِّهم صدقَه وصدقَ رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظنَّ به ظن السَّوءِ.

ومن ظنَّ أنه يُضَيِّعُ عليه عملَه الصالحَ الذي عملَه خالصًا لوجهه الكريمِ على امتثال أمره، ويُبطِلَه عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يُعاقِبُه بما لا صُنعَ فيه، ولا اختيار له، ولا قدرةَ، ولا إرادة في حصوله، بل يُعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظنَّ به أنه يجوزُ عليه أن يؤيِّدَ أعداءَه الكاذبين عليه بالمعجزاتِ التي يؤيِّدُ بها أنبياءه ورسله، ويُجرِيها على أيديهم يُضِلُّونَ بها عباده، وأنه يحسُن منه كُلُّ شيء حتى تعذيبُ مَن أفنى عمره في طاعته، فيخلدُه في الجحيم أسفلَ السافلينَ، ويُنعِمُ مَن استنفد عُمُرَه في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يُعرف امتناعُ أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقُبح أحدهما وحُسنِ الآخر، فقد ظَنَّ به ظَنَّ السَّوْء.

ومَن ظن به أنه أخبرَ عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه، وتمثيل، وترك الحقَّ، لم يُخبر به، وإنما رَمزَ إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشاراتٍ مُلْغِزةً لم يُصرِّح به، وصرَّح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد مِن خلقه أن يُتعِبُوا أذهانَهم وقُواهم وأفكارَهم في تحريفِ كلامه عن مواضعه، وتأويلِهِ على غير تأويله، ويتطلَّبوا له وجوهَ الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائِهِ

وصفاتِه على عقولهم وآرائهم، لا على كتابِه، بل أراد منهم أن لا يحمِلوا كلامَه على ما يعرِفُون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصَرِّحَ لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُريحَهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلافَ طريق الهدى والبيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ، فإنه إن قال: إنه غيرُ قادر على التعبير عن الحقِّ باللَّفظ الصريح الذي عبَّر به هو وسلفُه، فقد ظن بقُدرته العجز، وإن قال: إنه قادِرٌ ولم يُبَيِّن، وعدَلَ عن البيان، وعن التصريح بالحقِّ إلى ما يُوهم، بل يُوقِعُ في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظَنَّ السَّوءِ، وظنَّ أنه هو وسلفُه عبَّروا عن الحقِّ بصريحه دُونَ الله ورسوله، وأن الهُدى والحقَّ في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله، فإنما يؤخذ مِن ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهِر كلام المتهوِّكين الحيارى هو الهُدى والحق، وهذا من أسوأ الظن بالله، فَكُلُّ هؤلاء من الظانين بالله ظن السَّوْءِ، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومَن ظن به أن يكونَ في ملكه ما لا يشاء ولا يَقْدِرُ على إيجاده وتكوينه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظن به أنه كان مُعَطَّلًا مِن الأزل إلى الأبدِ عن أن يفعلَ، ولا يُوصفُ حينئذ بالقُدرة على الفعل، ثم صارَ قادرًا عليه بعد أن لم يكن قادرًا، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه لا يَسمع ولا يُبصِرُ، ولا يعلم الموجودات، ولا عَدد السماواتِ والأرضِ، ولا النجوم، ولا بني آدمَ وحركاتِهم وأفعالهم، ولا يعلم



شيئًا من الموجودات في الأعيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ أنه لا سمعَ له، ولا بصرَ، ولا عِلم له، ولا إرادة، ولا كلامَ يقولُ به، وأنه لم يُكلِّم أحدًا من الخلق، ولا يتكلَّمُ أبدًا، ولا قال ولا يقولُ، ولا له أمرٌ ولا نهى يقومُ به، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه فوقَ سماواتِه على عرشه بائنًا من خلقه، وأن نِسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنِسبتها إلى أسفلِ السافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفلُ، كما أنه أعلى، فقد ظنَّ به أقبحَ الظنِّ وأسوأه.

ومَن ظنَّ به أنه يُحِبُّ الكفر، والفسوقَ، والعِصيانَ، ويحبُّ الفسادَ كما يُحبُّ الإيمان، والبر، والطاعة، والإصلاح، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه لا يُحبُّ ولا يَرضى، ولا يَغضب ولا يَسخط، ولا يُوالى ولا يُعادى، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرُب منه أحد، وأن ذواتِ الشياطين في القُرب مِن ذاته كذوات الملائكة المقرَّبين وأوليائه المفلحين، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ(١).

ومَن ظنَّ أنه يُسوى بين المتضادَّيْن، أو يفرِّق بين المتساويين من كل وجه، أو يُحْبِطُ طاعاتِ العمر المديد الخالصةَ الصوابَ بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبدَ الآبدين بتلك الكبيرة، ويُحبطُ بها جميع

---

(١) من علامات صحة العقل واستقامة منطقه الجمع بين التماثلات والتفريق بين المختلفات، ومعرفة الحدود بين المتشابهات.



طاعاته ويُخَلِّدُه في العذاب، كما يخلد مَن لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعاتِ عمره في مساخِطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

وبالجملة؛ فمَن ظنَّ به خِلاَفَ ما وصف به نَفسه ووصفه به رسله، أو عطَّل حقائقَ ما وصف به نفسه، ووصفته به رُسله، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظن أن له ولدًا، أو شريكًا أو أن أحدًا يشفعُ عنده بدون إذنه، أو أن بينَه وبين خلقه وسائطَ يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نَصَبَ لعباده أولياء مِن دونه يتقرَّبون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم، ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم، فقد ظنَّ به أقبحَ الظن وأسوأه.

ومَن ظن به أنه ينالُ ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقربِ إليه، فقد ظنَّ به خلافَ حِكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه إذا ترك لأجله شيئًا لم يُعوِّضه خيرًا منه، أو مَن فعل لأجله شيئًا لم يُعطه أفضلَ منه، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه يغضبُ على عبده، ويُعاقبه ويحرمه بغير جُرم ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة، ومحض الإرادة، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ.

ومن ظنَّ به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرَّع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكَّل عليه أنه يُخيِّبُه ولا يُعطيه ما سأله، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ،





وظنَّ به خلافَ ما هو أهلُه.

ومن ظنَّ به أنهُ يُثيبه إذا عصاه بها يُثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه، فقد ظنَّ به خلافَ ما تقتضيه حِكمتُه وحمده، وخلافَ ما هو أهلُه وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه، وأسخطه، وأَوْضَعَ في معاصيه، ثم اتخذ من دونه وليًّا، ودعا مِن دونه مَلَكًا أو بَشَرًا حَيًّا، أو ميتًا يرجُو بذلك أن ينفعَه عند ربِّه، ويُخَلِّصَه مِن عذابه، فقد ظنَّ به ظَنَّ السَّوْءِ، وذلك زيادة في بُعْدِه من الله، وفي عذابه.

ومَن ظنَّ به أنه يُسلِّطُ على رسولِهِ محمّد ﷺ أعداءَهُ تسليطًا مستَقِرًّا دائمًا في حياته وفي مماته، وابتلاه بهم لا يُفارقونه، فلما مات استبدُّوا بالأمر دون وَصِيِّه، وظلمُوا أهلَ بيتِهِ، وسلبُوهم حقَّهُم، وأذلُّوهم، وكانت العزَّةُ والغلبةُ والقهرُ لأعدائِه وأعدائِهم دائمًا مِن غير جرم ولا ذنب لأوليائه، وأهل الحق، وهو يرى قهرَهم لهم، وغصبهم إياهم حقَّهم، وتبديلَهم دِينَ نبيهم، وهو يقدر على نُصرة أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصُرُهم ولا يُديلهم، بل يُديل أعداءهم عليهم أبدًا، أو أنَّه لا يقدِرُ على ذلكَ، بل حصل هذا بغير قُدرته ولا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تُسَلِّمُ أُمتُه عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضةُ، فقد ظنَّ به أقبحَ الظنِّ وأسوأه، سواءً قالوا: إنه قادرٌ على أن ينصرَهم، ويجعل لهم الدولةَ والظفرَ، أو أنه غيرُ قادر على ذلك، فهم قادِحون في قُدرته، أو في حِكمته وحمده، وذلك مِن ظنِّ السَّوْءِ به، ولا ريب أن الربَّ



الذي فعل هذا بغيضٌ إلى مَن ظنَّ به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجبُ أن يفعل خلافَ ذلك، لكن رَفَوْا هذا الظنَّ الفاسِدَ بخرق أعظمَ منه، واستجاروا من الرَّمضاءِ بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرةٌ على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يَقْدِرُ على أفعال عباده، ولا هي داخلةٌ تحت قدرته، فظنُّوا به ظَنَّ إخوانهم المجوس والثَّنَوِيةِ بربهم، وكلُّ مبطل وكافر ومبتدِع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر والعلو من خصومه.

فأكثر الخلق، بل كلهم إلا مَن شاء الله يظنون باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوْءِ، فإن غالبَ بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوقَ ما أعطاهُ اللهُ، ولِسان حاله يقول: ظلمني ربِّى، ومنعني ما أستحقُّه(١) ونفسُه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به، ومَن فتَّش نفسَه، وتغلغل في معرفة دفائِنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامِنًا كُمونَ النار في الزِّناد، فاقدح زنادَ مَن شئت يُنبئك شَرَارُه عما في زِناده، ولو فتَّشت مَن فتشته، لرأيت عنده تعتُّبًا على القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقِلٌ ومستكثِر، وفَتِّشْ نفسَك هل أنت سالم مِن ذلك؟(٢)

---

(١) قلت: ومن ذلك: قول بعض العامّة فيمن أصابة ضرر أو مصيبة وهم يحبونه: فلان ما يستاهل! أو لا يستحق! أو حرام أن يصيبه كذا!

(٢) ملخص سوء الظن الذي أورده المصنف: أن سوء الظن بالله ثلاثة أنواع:
=



فَإِنْ تَنجُ مِنْهَا تنج مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ   وَإِلاَّ فَـــإِنِّي لاَ إِخَالُــكَ نَاجِيًـــا

فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضعِ، وليتُبْ إلى الله تعالى وليستغفِرْه كلَّ وقت من ظنه بربه ظن السَّوْءِ، وليظنَّ السَّوْءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبعُ كل شر، المركَّبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السَّوْءِ من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين، الغنيِّ الحميد، الذي له الغنى التام، والحمدُ التام، والحكمةُ التامة، المنزّهُ عن كل سوءٍ في ذاته وصفاتِهِ، وأفعالِه وأسمائه، فذاتُه لها الكمالُ المطلقُ مِن كل وجه، وصفاتُه كذلك، وأفعالُه كذلك، كُلُّها حِكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كُلُّها حُسْنَى.

فَــلا تَظْــنُنْ بِرَبِّــكَ ظَــنّ سَــوْءٍ   فَـــــإِنَّ اللهَ أَوْلَى بِالجَمِيـــــــلِ
وَلا تَظْــنُنْ بِنَفْسِــكَ قَــطُّ خَــيْرًا   وَكَيْــفَ بِظَــالِمٍ جَــانٍ جَهُــولِ
وَقُـلْ يَـا نَفْـسُ مَـأْوَى كُـلِّ سُـوءٍ   أَيُرجَـى الخَـيْرُ مِـنْ مَيْـتٍ بَخيـلِ
وظُـنَّ بِنَفْسِـكَ السُّـوآى تَجِـدْهَا   كَــذَاكَ، وخَيْرُهَــا كَالمُسْــتَحِيلِ
وَمَـا بِـكَ مِـنْ تُقـىً فِيهَـا وَخَـيْرٍ   فَتِلْــكَ مَوَاهِــبُ الــرَّبِّ الجَلِيـلِ
وَلَــيْسَ بِهَــا وَلاَ مِنْهَــا وَلَكِــنْ   مِــنَ الــرَّحْمنِ فَاشْــكُرْ لِلــدَّلِيلِ

والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام مِن قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ

=

١- إذا ظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة يضمحل معها الحق.

٢- إنكار القدر.

٣- إنكار حكمة الله تعالى.



أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ثم أخبر عن الكلام الذي صدَر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] فليس مقصودُهم بالكلمةِ الأولى والثانية إثباتَ القدر، ورد الأمرِ كُلِّه إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى، لما ذُمُّوا عليه، ولما حَسُنَ الردُّ عليه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ولا كان مصدرُ هذا الكلام ظَنَّ الجاهلية، ولهذا قال غيرُ واحد من المفسِّرين: إن ظنَّهم الباطل هاهنا: هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمرَ لو كان إليهم، وكان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه تبعًا لهم يسمعُون منهم، لما أصابهم القتلُ، ولكان النصرُ والظفرُ لهم، فأكذبهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ في هذا الظنِّ الباطل الذي هو ظنُّ الجاهلية، وهو الظنُّ المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذِ القضاء والقدر الذي لم يكن بُدٌّ من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمرَ لو كان إليهم، لما نفذ القضاءُ، فأكذَبهُم اللهُ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدرُه، وجرى به عِلمه وكتابه السابق، وما شاء اللهُ كان ولا بُدَّ، شاءَ الناسُ أم أبَوْا، وما لم يَشَأ لم يكن، شاءه الناسُ أم لم يَشاؤوه، وما جرى عليكم من الهزيمةِ والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيلَ إلى دفعه، سواء أكان لكم من الأمر شيء، أو لم يكن لكم، وأنَّكُم لو كنتم في بيوتكم، وقد كُتِبَ القتلُ على بعضكم لخرج الذين كُتِب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بُد، سواء أكان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا

مِن أظهر الأشياء إبطالًا لقول القَدَرِيَّةِ النفاة، الذين يُجوِّزون أن يقع ما لا يشاؤُه اللهُ، وأن يشاء ما لا يقع.

ثم أخبر سبحانه عن حِكمة أُخرى في هذا التقديرِ، هي ابتلاءُ ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمانِ والنفاق، فالمؤمنُ لا يزدادُ بذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، والمنافقُ ومَن في قلبه مرضٌ، لا بد أن أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

ثم ذكر حِكمة أُخرى: وهي تمحيصُ ما في قلوب المؤمنين، أي تخليصهُ وتنقيتُه وتهذيبه، فإن القلوبَ يُخالطها بِغلبات الطبائع، وميل النفوس، وحكمِ العادة، وتزيينِ الشيطانِ، واستيلاءِ الغفلة ما يُضادُّ ما أُودعَ فيها من الإيمانِ والإسلام والبر والتقوى، فلو تُرِكت في عافية دائمة مستمرة، لم تَتخَلَّص من هذه المخالطة، ولم تتمحَّص منه، فاقتضت حِكمةُ العزيزِ أن قَيَّض لها مِن المِحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خِيف عليه منه الفسادُ والهلاكُ، فكانت نعمتُه سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل مَن قُتِل منهم، تُعادِلُ نعمتَه عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمةُ التامةُ في هذا وهذا.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن توَلِّي مَنْ تَولَّى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاسْتَزَلَّهُمُ الشيطان بتلك الأعمال حتى تولَّوْا، فكانت أعمالهم جندًا عليهم، ازداد بها عدوُّهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد وجندٌ عليه، ولا بُدَّ فللعبد كلَّ وقت سَرِيَّةٌ مِن نفسه تَهْزِمُه، أو تنصره،

فهو يمُدُّ عدوَّه بأعماله من حيث يظن أنه يُقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمالُ العبد تسوقُهُ قسرًا إلى مقتضاها مِن الخير والشر، والعبدُ لا يشعر أو يشعر ويتعامى، ففرارُ الإنسان من عدوه، وهو يُطيقه إنما هو بجُند مِن عمله، بعثه له الشيطان واستزلَّه به.

ثم أخبر سبحانه: أنه عفا عنهم، لأن هذا الفرارَ لم يكن عن نفاق ولا شكٍ، وإنما كان عارضًا، عفا الله عنه، فعادت شجاعةُ الإيمانِ وثباتُه إلى مركزها ونصابِها.

ثم كرَّر عليهم سُبحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أُتوا فيه مِن قِبَل أنفسهم، وَبِسبب أعمالهم، فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وذكر هذا بعينه فيما هو أعمُّ من ذلك في السور المكِّية فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] فالحسنة والسيئة هاهنا: النعمة والمصيبةُ، فالنعمةُ مِن الله مَنَّ بها عليك، والمصيبةُ إنما نشأت مِن قِبَل نفسِك وعملِك، فالأول فضلُه، والثاني عدلُه، والعبد يتقلَّب بين فضلِه وعدله، جارٍ عليه فضلُهُ، ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه.

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥] بعد قوله: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾[آل عمران: ١٦٥] إعلامًا لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادلٌ قادر، وفي ذلك إثباتُ القدرِ والسببِ، فذكر السببَ،





وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عمومَ القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجَبْرَ، والثاني ينفي القولَ بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

وفي ذكر قدرته هاهنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرتِهِ، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبُوا كشفَ أمثاله من غيره، ولا تتَّكِلُوا على سواه، وَكَشَفَ هذا المعنى وأوضَحه كُلَّ الإيضاح بقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]. وهو الإذن الكوني القدري، لا الشرعي الديني، كقوله في السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثم أخبر عن حِكمة هذا التقدير، وهى أن يعلَمَ المؤمنين مِن المنافقين عِلمَ عَيان ورؤية يتميز فيه أحدُ الفريقين من الآخر تمييزًا ظاهرًا، وكان مِن حكمة هذا التقديرِ تكلُّمُ المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا ردَّ اللهِ عليهم وجوابه لهم(١)، وعرفوا مؤدَّى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يُحرم صاحبُه سعادةَ الدنيا والآخرة، فيعودُ عليه بفساد الدنيا والآخرة.

فللَّهِ كم من حكمة في ضِمن هذه القِصة بالغةٍ، ونعمة على المؤمنين سابغةٍ، وكم فيها من تحذيرٍ وتخويفٍ وإرشاد وتنبيه، وتعريفٍ بأسباب الخير والشر ومآلها وعاقبتها.

(١) وهذا معنًى عظيم وتربية ربانية شريفة.



ثم عزَّى نبيه وأولياءه عمن قُتل منهم في سبيله أحسنَ تعزية، وألطفَها وأدعاها إلى الرضى بما قضاه لها، فقال: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠] فجمع لهم إلى الحياة الدائمةِ منزلةَ القُربِ منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحَهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضى، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يَتمُّ سُرورُهم ونعيمُهم، واستبشارهم بما يُجدِّدُ لهم كُلَّ وقت مِن نعمته وكرامته، وذَكَّرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو مِن أعظمِ مننه ونعمه عليهم التي إن قابلوا بها كُلَّ محنة تنالهم وبلية، تلاشت في جنب هذه المنة والنعمة، ولم يبق لها أثر البتة، وهي مِنَّتُه عليهم بإرسال رسولٍ من أنفسهم إليهم، يتلُو عليهم آياتِه، ويُزكيهم، ويُعلمهم الكتابَ والحِكمة، ويُنقذُهم مِن الضلال الذي كانُوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، ومِن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظُّلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، فكُلُّ بليةٍ ومحنةٍ تنالُ العبد بعد حصول هذا الخيرِ العظيم له أمرٌ يسيرٌ جدًا في جنب الخير الكثير، كما ينالُ الناس بأذى المطرِ في جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سببَ المُصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره لِيوحِّدوا ويتَّكِلُوا، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما لهم فيها مِن الحكم لئلا يتهموه في قضائه وقدره، وليتعرَّف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسلاَّهم بما أعطاهم مما هو أجلُّ قدرًا، وأعظمُ خطرًا مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزَّاهم عن قتلاهم بما نالُوه من ثوابه وكرامته، لينافِسوهم فيه، ولا يحزنُوا

عليهم، فله الحمدُ كما هو أهلُه، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله».

هذا، وقد عقد الإمام المجدِّدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا في كتاب التوحيد وسمّاه: باب، قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال حفيده الشارح(١) الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهم الله جميعًا: «أرادَ المصنِّفُ بهذه الترجمةِ التنبيه على وجوب حسن الظن بالله، لأن ذلك من واجبات التوحيد، ولذلك ذمَّ اللهُ من أساء الظن به، لأن مبنى حسن الظن على العلم برحمة الله، وعزّته، وإحسانه، وقدرته، وعلمه، وحسن اختياره، وقوة المتوكل عليه. فإذا تَمَّ العلمُ بذلك أثمر له حسن الظن بالله. وقد ينشأ حسن الظن من مشاهدة بعض هذه الصفات.

وبالجملة، فمن قامت بقلبه حقائقُ معاني أسماء الله وصفاته؛ قامَ به من حسن الظن ما يُناسب كل اسم وصفة، لأن كل صفةٍ لها عبوديةٌ خاصة، وحسنُ ظنٍّ خاص»(٢).

وقال على قول ابن القيم: «ولو فتّشت من فتّشت لرأيت عنده تعنّتًا(٣)

---

(١) إذا أطلق الشارح لمتن من متون العلم في أيِّ فنٍّ فإنّه ينصرف إلى أول الشُّرَّاح لذلك المتن الذين حظي شرحهم بقبول أهل العلم.
(٢) التيسير (٥٨٣).
(٣) الأظهر أنها تصحيف عن: «تعتّبًا» لسياق الكلام، كما أن القدر نافذ لا محالة غير قابل لتعنّت أحد، فالتعنّت مدافعة أما التعتّب فجزع واعتراض.

على القدر، وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا»: «قلت: بل يبُوحون بذلك، ويُصرِّحُونَ به جهارًا في أشعارهم وكلامهم.

قال ابن عقيل في الفنون: الواحدُ من العوامّ إذا رأى مراكبَ مقلّدة بالذّهب والفضة، ودارًا مشيّدة مملوءة بالخدم والزينة قال: انظر إلى إعطائهم مع سوء أفعالهم! ولا يزال يلعنهم ويذم معطيهم! حتى يقول: فلانٌ يصلّي الجماعات والجمع، ولا يؤذي الذَّرَّ، ولا يأخذ ما ليس له، ويؤدّي الزكاة، إذا كان له مال، ويحج ويجاهد، ويظهر الإعجاب كأنه ينطق إنه لو كانت الشرائعُ حقًّا لكان الأمرُ بخلاف ما ترى[1]!

وقال أبو الفرج ابن الجوزي: «وهذه حالةٌ قد شملت خلقًا كثيرًا من العلماء والجهّال، أوَّلُهم إبليس، فإنه نظر بعقله[2] فقال: كيف يفضّل الطين على جوهر النار؟! وفي ضِمْنِ اعتراضه: إن حكمتك قاصرة، وأنا أجودُ! واتَّبَعَ إبليسَ في تفضيله واعتراضه خلقٌ كثير مثل الراوندي والمَعَرِّي، ومن قوله:

إذا كـان لا يحظـى برزقـك عاقـلٌ وتــرزق مجنونًــا وتــرزق أحمقًــا
ولا ذنـب يا ربَّ السماءِ على امرئٍ رأى منـكَ مـا لا يُشـتَهى فتزنـدقا

وأمثال ذلك كثير في أولئك الذين ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله،

---

(١) التيسير (٥٨٤).

(٢) أول من قاس إبليس، وأول من حسد إبليس، وأول من تكبّر إبليس، وأوّل من افتخر بأصله إبليس. وهو هنا لم يوفّق للحق والهدى حينما نظر بعقله القاصر بل خُذِلَ وحُرِمَ مادّة التوفيق فأُبلِس ولُعِن ورُجِمَ وشُطِن، عياذًا بربّنا منه.



وانطلقوا إلى أهوائهم، واعتمدوا على عقولهم القاصرة التي جعلتهم يعترضون على الله جل وعلا.

وكان أبو طالب المكي يقول: ليس على المخلوق أضرُّ من الخالق! قال ابن الجوزي: ودخلتُ على صدقة بن الحسين الحداد، وكان فقيهًا غيرَ أنَّهُ كان كثير الاعتراض، وكان عليه جَرَبٌ، فقال: هذا ينبغي أن يكون على جملٍ لا عليّ! وكان يتفقّدُه بعض الأكابر بمأكولٍ فيقول: بعث لي هذا على الكبر وقت لا أقدر على أكله! وكان رجلٌ يصحبني قد قارب ثمانين سنة كثير الصلاة والصوم، فمرض واشتدّ به المرض فقال: إن كان يريد أن أموت فيميتني، وأما هذا التعذيب فماله معنى! والله لو أعطاني الفردوس كان مكفورًا! ورأيت آخر تزيّا بالعلم إذا ضاق عليه رزقه يقول: أيش[١] هذا التدبير؟!

وعلى هذا كثير من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا، وربّما قالوا: ما تُريدُ نُصلّي! وإذا رأوا رجلًا صالحًا يؤذى قالوا: ما يستحقّ، قد حاف القدر! وكان قد جرى في زماننا تسلّطٌ من الظلمة، فقال بعض من تزيّا بالدِّين: هذا حكمٌ باردٌ! وما فهم ذلك الأحمق، فإن لله على الظالم أن يسلّط عليه أظلمَ منه[٢]. وفي الحمقى من يقول: أي فائدة في خلق الحيات والعقارب؟ وما علم

(١) أيش: أي ما هذا. وهي عربية فصيحة وأصلها: أي شيء؟

(٢) وهذا مفتقر للدليل، ويكفي الظالم الوعيد يوم القيامة، ولو تدبّر من في قلبه مسكة عقل وإيمان آيتي طه وإبراهيم لقفّ شعره قبل ظلمه، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١] وقال عز اسمه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا
=



أن ذلك أنموذج لعقوبة المخالف. وهذا أمرٌ قد شاع، ولهذا مددتُ النَّفَسَ فيه(١).

واعلم أن المعترض قد ارتفع بزعمه أن يكون شريكًا وحاكمًا على الخالق! وهؤلاء كلهم كفرة، لأنهم رأوا حكمة الخالق قاصرةٌ. وإذا كان توقُّفُ القلبِ عن الرِّضَى بحكم الرسول ﷺ يُخرجُ عن الإيمان كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥] فكيف يصح الإيمان مع الاعتراض على الله؟!

وكان في زمن ابن عقيل رجلٌ رأى بهيمةً على غايةٍ من السَّقَم فقال: وارحمتي لك، واقِلَّةَ حيلتي في إقامة التأويلِ لِمُعَذِّبِك! فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَقِيلٍ: إنْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى حَمْلِ هَذَا الْأَمْرِ لِأَجْلِ رِقَّتِك الْحَيَوَانِيَّةِ، وَمُنَاسَبَتِك الْجِنْسِيَّةِ، فَعِنْدَك عَقْلٌ تَعْرِفُ بِهِ تَحَكُّمَ الصَّانِعِ. وَحِكْمَتُهُ تُوجِبُ عَلَيْك التَّأْوِيلَ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ اسْتَطْرَحْت لِفَاطِرِ الْعَقْلِ، حَيْثُ خَانَكَ الْعَقْلُ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِك»(٢).

= عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] والظلم هنا عامٌّ، وأخصّه وأشدُّه الإشراك بالله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]. وفي نسخة الآداب الشرعية لابن مفلح: «أن الله يُملي للظالم». ولعلّها هي الصواب، وما عداها محرّف عنها.

(١) الآداب الشرعية (٢/١٣٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد، سليمان آل الشيخ (٦٨١-٦٨٣) باختصار.





وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيّ: مَنْ نَظَرَ إِلَى أَفْعَالِهِ بِمُجَرَّدِ الْعَقْلِ أَنْكَرَ(١)، فَأَمَّا مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَالِكٌ وَحَكِيمٌ، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ قَدْ تَخْفَى سَلَّمَ لِمَا لَمْ يَعْلَمْ عِلَّتَهُ بِأَفْعَالِهِ مُسْلِمًا إِلَى حِكْمَتِهِ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ لَمْ يَحْتَرِزْ بِعَقْلِهِ مِنْ عَقْلِهِ هَلَكَ بِعَقْلِهِ.

وَهَذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ، فَإِنَّا إِذَا قُلْنَا لِلْعَقْلِ هُوَ حَكِيمٌ قَالَ: لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنِّي قَدْ رَأَيْت عَجَائِبَ أَفْعَالِهِ الْمُحْكَمَةِ، فَعَلِمْت أَنَّهُ حَكِيمٌ، فَإِذَا رَأَيْت مَا يَصْدرُ مَا ظَاهِرُهُ يُنَافِي الْحِكْمَةَ؛ نَسَبْتُ الْعَجْزَ إِلَيَّ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ الْمُرَادَ تَسْلِيمُ الْعُقُولِ لِمَا يُنَافِيهَا، وَذَلِكَ عِبَادَةُ الْعُقُولِ. وَصَارَ هَذَا كَمَا خَفِيَ عَنْ مُوسَى حِكْمَةُ فِعْلِ الْخَضِرِ، وَقَدْ يَخْفَى عَلَى الْعَامِّيِّ مَا يَفْعَلُهُ الْمَلِكُ.

ولَا تَتِمُّ الرُّجْلَةُ(٢) فِي الْعَبْدِ حَتَّى يَكُونَ فِي مَقَامِ اخْتِلَالِ أَحْوَالِهِ، وَإِشْبَاطِ أَخْلَاطِهِ وَأَفْرَاحِهِ، وَتَسَلُّطِ أَعْدَائِهِ؛ ثَابِتًا بِثُبُوتِ الْمُتَلَقِّي وَالْمُتَوَقِّي. فَيَتَلَقَّى النِّعَمَ بِالشُّكْرِ لَا بِالْبَطَرِ، مُتَمَاسِكًا عَنْ تَحَرُّكِ الرَّعَنِ، وَعِنْدَ الْمَصَائِبِ مُسْتَسْلِمًا نَاظِرًا إِلَى الْمُبْتَلَى بِعَيْنِ الْكَمَالِ، وَعِنْدَ اشْتِطَاطِ الْغَضَبِ مُتَلَقِّيًا بِالْحُكْمِ، وَعِنْدَ الشَّهَوَاتِ مُسْتَحْضِرًا لِلْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ. فَسُبْحَانَ مَنْ كَمَّنَ جَوَاهِرَ الرِّجَالِ فِي هَذِهِ الْأَجْسَادِ، ثُمَّ أَظْهَرَهَا بِابْتِلَائِهِ لِيُعْطِيَ عَلَيْهَا جَزِيلَ ثَوَابِهِ، وَيَجْعَلَهَا حُجَّةً عَلَى

(١) أي ابتداء الرأي وظاهره عند بعضهم، أمّا مع التأمل وردّ النظر لتلمّس الحكم فإن العقل الصحيح بالنيّة الخالصة يُهدى للتسليم والصواب بإذن الله تعالى. أما النفس المؤمنة فمع التسليم مطلقًا. والإسلام قائم على أمرين: التعظيم والتسليم.

(٢) أي الرجولة التي يُحمد عليها.



بَقِيَّةِ عِبَادِهِ.

وَقَالَ: زِنُوا أَنْفُسَكُمْ: مِنْ الْمَبَادِئِ مَاءٌ وَطِينٌ، وَفِي الثَّوَانِي مَاءٌ مَهِينٌ، وَفِي الْوَسَطِ عَبِيدٌ مَحَاوِيج. لَوْ حَبَسَ عَنْكُمْ نَسِيمَ الْهَوَاءِ لَأَصْبَحْتُمْ جِيَفًا، وَلَوْ مُكِّنَتْ مِنْكُمْ الْبُقُوقُ عَنْ السِّبَاعِ لَأَكَلَتْكُمْ، كُونُوا مُتَعَرِّفِينَ لَا عَارِفِينَ»(١).

❊❊❊❊

(١) الآداب الشرعية، ابن مفلح الحنبلي (٢ / ٢٩٠-٢٩٥) مختصرًا.

إحسان الظن بعباد الله تعالى

المؤمن نقي السريرة، طيب النفس، سليم الصدر، صحيح الطوية، يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، يرجو ربه، ويخاف ذنبه، ويحب إخوانه في دين ربه، انشغل بعيوبه عن عيوب غيره، وإن أصابه أمر لا يحبّه من مسلم التمس له المعاذير، وأكْثَرَ على نفسه تعليلها بلعلّه ولعلّه، ولعلّ له عذرًا لا أعلمه، إن تكلم فبعلم، وإن صمت فبحِلْم، يستغفر للمؤمنين، ويوسّع لهم نطاق المعذرة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: ١٢].

قال ابن عاشور: «فيه تنبيه على أنَّ حقَّ المؤمن إذا سمع قَالَةً في مؤمن، أن يبني الأمر فيها على الظَّن لا على الشَّك، ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحية المقام، فإذا نسب سوء إلى من عرف بالخير، ظنَّ أن ذلك إفك وبهتان، حتى يتضح البرهان. وفيه تعريض بأنَّ ظنَّ السُّوء الذي وقع هو من خصال النِّفاق، التي سرت لبعض المؤمنين عن غرورٍ وقلة بَصارَة، فكفى بذلك تشنيعًا له»(١).

(١) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٨/ ١٧٤- ١٧٥). مع التنبيه إلى أن كثيرًا من مادّة هذا الفصل (إحسان الظن بعباد الله) مستفادة من موسوعة الدرر السنيّة للأخلاق.

وقال أبو حيان الأندلسي: «فيه تنبيه على أنَّ حقَّ المؤمن إذا سمع قَالَةً في أخيه، أن يبني الأمر فيه على ظنِّ الخير، وأن يقول بناء على ظنِّه: هذا إفك مبين، هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه، كما يقول المستيقن المطَّلع على حقيقة الحال. وهذا من الأدب الحَسَن»(١).

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ابن حجر الهيتمي: «عقَّب تعالى بأمره باجتناب الظَّن، وعلَّل ذلك بأنَّ بعض الظَّن إثم، وهو ما تخيَّلت وقوعه من غيرك من غير مستند يقيني لك عليه، وقد صمَّم عليه قلبك، أو تكلَّم به لسانك من غير مسوِّغ شرعي»(٢).

وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره: يا أيُّها الذين صدقوا الله ورسوله، لا تقربوا كثيرًا من الظَّن بالمؤمنين، وذلك أن تظنوا بهم سوءًا، فإنَّ الظَّان غير محق، وقال جلَّ ثناؤه: اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ، لم يقل: الظَّن كلَّه، إذ كان قد أَذِن للمؤمنين أن يظنَّ بعضهم ببعض الخير، فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فأَذِن الله جلَّ ثناؤه للمؤمنين أن يظنَّ بعضهم ببعض الخير، وأن يقولوه، وإن لم يكونوا من قِيلِه

---

(١) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي (٨/ ٢١-٢٢).
(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر، للهيتمي (٢/ ٩).



فيهم على يقين... وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يقول: نهى الله المؤمن أن يظنَّ بالمؤمن شرًّا. وقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يقول: إنَّ ظنَّ المؤمن بالمؤمن الشَّر لا الخير، إِثْمٌ؛ لأنَّ الله قد نهاه عنه، فَفِعْل ما نهى الله عنه إِثْمٌ»[١].

وقال رسول الله ﷺ: **«إيَّاكم والظَّن، فإنَّ الظَّن أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»**[٢].

قال النَّووي: «المراد: النَّهي عن ظنِّ السَّوء، قال الخطَّابي: هو تحقيق الظَّن وتصديقه دون ما يهجس في النَّفس، فإنَّ ذلك لا يُمْلَك. ومراد الخطَّابي أنَّ المحَرَّم من الظَّن ما يستمر صاحبه عليه، ويستقر في قلبه، دون ما يعرض في القلب ولا يستقر، فإنَّ هذا لا يكلَّف به»[٣].

وقال الغزالي: «أي: لا يحقِّقه في نفسه بعقد ولا فعل، لا في القلب ولا في الجوارح، أما في القلب فبتغيره إلى النُّفرة والكراهة، وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه. والشَّيطان قد يقرِّر على القلب بأدنى مَخِيلة مَسَاءة النَّاس، ويلقي إليه أنَّ هذا من فطنتك، وسرعة فهمك وذكائك، وأنَّ المؤمن ينظر بنور الله تعالى، وهو على التَّحقيق ناظر بغرور الشَّيطان وظلمته»[٤].

(١) تفسير الطبري، (٢٢/٣٠٣-٣٠٤).
(٢) عبد الرزاق (٢٠٢٢٨)، وأحمد (٨١٠٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٦٤).
(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي(١٦/١١٩).
(٤) الإحياء، للغزالي (٣/١٥١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة، فقال: **«ما أعظم حُرْمَتك»** وفي رواية أبي حازم: لما نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة، قال: **«مرحبًا بك من بيت، ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك، ولَلْمؤمن أعظم حُرْمَة عند الله منكِ، إنَّ الله حرَّم منكِ واحدة، وحرَّم من المؤمن ثلاثًا: دمه، وماله، وأن يُظنَّ به ظنَّ السَّوء»**(١).

وقال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يحلُّ لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظنُّ بها سوءًا، وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجًا». وقال أيضًا: «لا ينتفع بنفسه من لا ينتفع بظنِّه»(٢).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من علم من أخيه مروءة جميلة فلا

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/٢٩٦) (٦٧٠٦)، وضعَّف إسناده العراقي في تخريج الإحياء (٣/١٨٦)، وقال في موضع آخر (٢/٢٢١): رجاله ثقات، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٤٢٠): إسناده حسن رجاله ثقات. وله شاهد من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة وهو يقول: **«ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك. والذي نفس محمَّد بيده، لحُرْمَة المؤمن أعظم عند الله حرْمَة منكِ، ماله ودمه، وأن نظنَّ به إلَّا خيرًا»** رواه ابن ماجه (٧٨٥)، قال البوصيري في زوائد ابن ماجه (٢/٢٨٤): إسناده فيه مقال. وقال ابن حجر في الكافي الشافي (٢٦٨): إسناده فيه لين. وأورده الألباني في الصحيحة: (٣٤٢٠)، وصحيح الترغيب والترهيب: (٢٤٤١).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٤٧).



يسمعنَّ فيه مقالات الرِّجال، ومن حَسُنت علانيته فنحن لسريرته أرجى»(١).

وعن سعيد بن المسيَّب قال: كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ: «أن ضع أمرَ أخيك على أحسنه، ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنَّن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا»(٢).

وقال المهلب: «قد أوجب الله تعالى أن يكون ظنُّ المؤمن بالمؤمن حسنًا أبدًا، إذ يقول: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فإذا جعل الله سوء الظَّن بالمؤمنين إفكًا مبينًا، فقد ألزم أن يكون حُسْن الظَّن بهم صدقًا بينًا»(٣).

وقد أجاز العلماء بعض صور سوء الظن، قال أبو حاتم: «سوء الظَّن على ضربين:

أحدهما: منهي عنه بحكم النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلم. والآخر: مستحب(٤). فأما الذي نهى عنه، فهو استعمال سوء الظَّن بالمسلمين كافةً، وأمَّا الذي يستحب من سوء الظَّن، فهو كمن بينه وبين آخر عداوة أو شحناء في دين أو دنيا، يخاف على نفسه من مَكْرِه، فحينئذ يلزمه سوء الظَّن بمكائده ومَكْرِه؛ كي لا يصادفه على غرَّة بمكره فيهلكه»(٥).

---

(١) ذكره ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٦١).

(٢) الاستذكار، لابن عبد البر (٨/ ٢٩١).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٢٦١).

(٤) لو قال: «مباح» كان أولى، والله أعلم.

(٥) روضة العقلاء، لابن حبان البستي (١٢٧).

والمؤمن يحمل الكلام على أحسن محامله ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ويلتمس الأعذار للمؤمنين، قال ابن سيرين: «إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد، فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه»[(١)].

وفي التماس الأعذار راحة للنَّفس من عناء الظَّن السَّيئ، الذي يشغلها ويقلقها، وفيه أيضًا إبقاء على الموَدَّة، وحفاظ عليها من الزوال والانتهاء.

تَـأَنَّ ولا تعجـل بلومـك صـاحبًا لعـلَّ لـه عـذرًا وأنـتَ تلـومُ

والمؤمن الراجي رحمة ربه يجري الأحكام على الظاهر، ويوكل أمر الضَّمائر إلى الله عز وجل، ويتجنَّب الحكم على النِّيَّات، فإنَّ الله لم يكلِّفنا أنَّ نفتِّش في ضمائر النَّاس. والاكتفاء بظاهر الشَّخص، والحكم عليه من خلاله، من أعظم بواعث حُسْن الظَّن، وأقوى أسبابها.

وعلى المسلم أن يستحضر الآفات التي تنتج عن سوء الظَّن، وما يترتب عليه من آثار، فهو دافع لأن يُحْسِن الرَّجل ظنَّه بغيره. وعليه كذلك أن يبتعد عن كلِّ من اتصف بما يضادُّ هذه الصِّفة الحسنة التي عابها على أخيه المسلم، فلا يكن ممن لا يتورَّعون عن إلقاء التُّهم على عباد الله جزافًا بلا تثبُّت. فقد قيل لبعض العلماء: من أسوأ النَّاس حالًا؟ قال: «من لا يثقُ بأحد لسوء ظنه، ولا يثق به أحد لسوء فعله».

لقد علَّم رسول الله ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم حُسْن الظَّن، وربّى

(١) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، للأماسي (١/ ٧٠).



الأمة عليه، وبيَّن أنَّ الأصل في المؤمن السَّلامة، وأنَّ الإنسان لا بدَّ له من التماس الأعذار لمن حوله، وعليه أن يطرد الشُّكوك والرِّيبة التي قد تدخل في قلبه، فيترتَّب عليها من الآثار ما لا يُحْمَد عقباه. ومن ذلك أن رجلًا جاء إلى النَّبي ﷺ وقد داخلته الرِّيبة في امرأته، وأحاطت به ظنون السُّوء فيها؛ لأنَّها ولدت غلامًا أسود، على غير لونه ولونها، فأزال النَّبي ﷺ ما في قلبه من ظنٍّ وريبة، بسؤاله عن لون إبله، فقال: ألوانها حمر. قال: «**هل فيها من أورق؟**»[(١)] قال: نعم. قال: «**فأنَّى ذلك؟**» قال: لعلَّه نَزَعُهُ عِرْقٌ. قال: «**فلعلَّ ابنك هذا نَزَعُهُ عِرْقٌ**»[(٢)].

ولمّا مرض الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أتاه بعض إخوانه يعوده، فقال للشافعي: قوَّى الله ضعفَك! فقال الشافعي: «لو قوّى ضعفي لقتلَني». قال: والله ما أردتُ إلَّا الخير. فقال الشافعي: «أعلم أنك لو سببتني ما أردت إلا الخير»[(٣)].

---

(١) الأورق: هو الذي فيه سواد ليس بصاف. شرح النووي على مسلم (١٠/١٣٣).

(٢) نزعه عرق: العرق هو الأصلُ من النسب، تشبيهًا بعرق الثّمرة، ومعنى نزعه: أشبهه واجتذبه إليه وأظهر لونه عليه. شرح النووي على مسلم (١٠/١٣٣) والحديث متفق عليه، البخاري (٥٣٠٥)، مسلم (١٥٠٠) وهو من أدلّة الأصوليين في ثبات حجيّة القياس في الشريعة.

(٣) آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم (٢٠٩).

وهو الإمام العلَم أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس القرشي المطّلبي، المكي نزيل مصر.

قال تلميذه وقرينه الإمام أحمد: «إن الله تعالى يقيّض للناس في رأس كل مئة سنة =



وقد قالت الحكماء: «من جعل لنفسه من حُسْن الظَّن بإخوانه نصيبًا، أراح قلبه». أي إنَّ الرَّجل إذا رأى من أخيه إعراضًا أو تغيرًا، فحمله منه على وجه جميل، وطلب له الأعذار، خفَّف ذلك عن قلبه، وقَلَّ منه غيظه واغتمامه. وقال محمَّد بن حرب: «صواب الظَّن، الباب الأكبر من الفراسة». وقال رجل لصاحب له: إنَّما اشتدَّ غضبي؛ لأنَّ من كان علمه أكثر، كان ذنبه أكبر، قال: «فهلّا جعلت سعة علمي سبيلًا إلى حُسْن الظَّن بنزوعي، أو إلى أنِّي غالط في تفريطي، مخطئ بقصدي، غير معاند لك، ولا جريء عليك»(١).

وقال الخليل بن أحمد: «يجب على الصَّديق مع صديقه استعمال أربع خصال: الصَّفح قبل الاستقالة، وتقديم حُسْن الظَّن قبل التُّهمة، والبذل قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العتب». وقال رجل لمطيع بن إياس: جئتك خاطبًا لمَوَدَّتك. قال: «قد زوجتكها على شرط أن تجعل صداقها أن لا تسمعَ فيَّ مقالة النَّاس»(٢).

وقال أحد الزُّهاد: «ألق حُسْن الظَّن على الخَلْق، وسوء الظَّن على نفسك،

=

من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله الكذب، فنظرنا فإذا في رأس المئة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المئتين الشافعي»، توفي سنة ٢٠٤.

ترجمته في: تاريخ بغداد ٢/٥٦، وتذكرة الحفاظ ١/٣٦١، وترتيب المدارك ٢/٣٨٢، وتهذيب التهذيب ٩/٣٥.

(١) الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي (١٥٩).

(٢) غرر الخصائص الواضحة، لأبي إسحاق الوطواط (٥٤٢).



لتكون من الأوَّل في سلامة، ومن الآخر على الزيادة».

ولابد في الغالب من علاقة بين طبع سيء الظن وبين سوء ظنه كما قال أبو الطيب المتنبي:

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُه ... وصدَّق ما يعتادُه من توهُّمِ
وعادى محبِّيه بقولِ عداتِه ... فأصبح في دَاجٍ من الشَّكِّ مظلمِ

هذا ومن مفردات حُسن الظن بالمؤمنين معاملتهم بظواهرهم دون التنقيب عن سرائرهم وامتحانهم إلا لما لا بدّ منه مما هو على خلاف الأصل، وقد ابتلي فئام من الناس في زماننا بسوء الظنون بعباد الله، والتنقيب عن بواطنهم في ما لا طائل من ورائه ولا ضرورة ملجئة له، إنما هو العُجب والكبر وسوء الظن وصوْلةُ العلم والأمر! فللعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صَوْلَةٌ إن لم يتداركها صاحبها فَتَنَتْهُ وأهلكته، والله المستعان.

قال شيخ الإسلام وسئل عن الصلاة خلف المَرَازِقَةِ: «يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَالْجُمُعَةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ خَلْفَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ مِنْهُ بِدْعَةً وَلَا فِسْقًا بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ. وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الِائْتِمَامِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُومُ اعْتِقَادَ إمَامِهِ وَلَا أَنْ يَمْتَحِنَهُ فَيَقُولُ: مَاذَا تَعْتَقِدُ؟ بَلْ يُصَلِّي خَلْفَ مَسْتُورِ الْحَالِ»(١).

وقد يحتاج المؤمن في معاملاته أن يمتحن بعض الناس، قال شيخ

(١) مجموع الفتاوى (٢٣ / ٣٥١).

الإسلام: «وَالْمُؤْمِنُ مُحْتَاجٌ إِلَى امْتِحَانِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُصَاحِبَهُ وَيُقَارِنَهُ بِنِكَاحٍ وَغَيْرِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ الآية [الممتحنة: ١٠] فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُصَاحِبَ الْمُؤْمِنَ، أَوْ أَرَادَ الْمُؤْمِنُ أَنْ يُصَاحِبَ أَحَدًا وَقَدْ ذُكِرَ عَنْهُ الْفُجُورُ وَقِيلَ إِنَّهُ تَابَ مِنْهُ،(١) أَوْ كَانَ ذَلِكَ مَقُولًا عَنْهُ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ صِدْقًا أَوْ كَذِبًا؛ فَإِنَّهُ يَمْتَحِنُهُ بِمَا يَظْهَرُ بِهِ بِرُّهُ أَوْ فُجُورُهُ، وَصِدْقُهُ أَوْ كَذِبُهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَلِّيَ أَحَدًا وِلَايَةً امْتَحَنَهُ؛ كَمَا أَمَرَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ غُلَامَهُ أَنْ يَمْتَحِنَ ابْنَ أَبِي مُوسَى لَمَّا أَعْجَبَهُ سَمْتُهُ فَقَالَ لَهُ: قَدْ عَلِمْتَ مَكَانِي عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَمْ تُعْطِينِي إِذَا أَشَرْت عَلَيْهِ بِوِلَايَتِك؟ فَبَذَلَ لَهُ مَالًا عَظِيمًا! فَعَلِمَ عُمَرُ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يَصْلُحُ لِلْوِلَايَةِ.

وَكَذَلِكَ فِي الْمُعَامَلَاتِ، وَكَذَلِكَ الصِّبْيَانُ وَالْمَمَالِيكُ الَّذِينَ عُرِفُوا أَوْ قِيلَ عَنْهُمْ الْفُجُورُ وَأَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَشْتَرِيَهُ بِأَنَّهُ يَمْتَحِنُهُ. وَمَعْرِفَةُ أَحْوَالِ النَّاسِ تَارَةً تَكُونُ بِشَهَادَاتِ النَّاسِ، وَتَارَةً تَكُونُ بِالْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ، وَتَارَةً تَكُونُ بِالِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ»(٢).

❁❁❁❁

(١) قلت: وبعض السلف يُمهلون التائب سنة كاملة، وحولًا كريتًا حتى تثبت توبته ويصحّ قبولها في معاملات الناس. وهذ وجيهٌ جدًّا، فما أسرع النفوس للانتكاسات، وأعجلها للنكوص، وأملّها للجدّ والأوبة!

(٢) مجموع الفتاوى (١٥ / ٣٣٠).

حديث الإفك، عِبَرٌ وعَبَرَاتٌ

لقد توقّف العلماء كثيرًا متأمّلين متدبّرين عظمة وجلالة العِبَرِ من قصة الإفك الهائلة، وما في ثناياها من الرحمات الإلهيه لنبي الله صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، ولأهله وأصهاره من آل أبي بكر، وللأمة المرحومة من بعدهم.

إنّها الحادثة التي هزّت المجتمع الإسلامي النبوي، وأقلقت السادة، وقلقلت الكبار، وأنصعتْ طيب أهل اليقين، وضوّعت نَشْرَهم، وأشهرت فضلهم، وزلزلتْ إيمان من كان على حرفٍ، وحيّرت عقولًا وأدهشَت أفئدة! وأوهت أبنية بعض المتّقين، وأوهنت قوّة بعض الفضلاء، وهدّت عزائم آحادٍ من الحُلماء، وزاغ فيها من زلّت به القدم إلى مراتع اللسان وسيء الظنون بأهل الإيمان، وثبّت الله أفئدة فئام من المؤمنين فأحسنوا الظن بعباد الرحمن، وأطلقوا على المفترين وحاملي الإفك سهام النكران، وعاتب الله تعالى المؤمنين الذين لم يلتزموا جانب الإحسان في ظنونهم تجاه الإخوان. وتولّى ربُّ العالمين ومالكُ الدنيا والدين، وجبارُ السماوات والأرَضين الدِّفاع عن الصِدِّيقة أم المؤمنين، وعتاب من زل فيها من الصالحين، ولَعَنَ الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين من المُفترين والأفّاكين والمُرجفين، وجعلها سبحانه وبحمده آيةً شاهدةً للمؤمنين إلى يومِ يقوم الأشهادُ ويلقى العبادُ رب العالمين.

رأيتُــكِ ولْيَغْفِــرْ لــكِ اللهُ حُــرَّةً مِـنَ المُحْصَـنَاتِ غَـيرِ ذَاتِ غَوَائِـلِ
حَصَــانٌ رَزَانٌ مَــا تُــزَنُّ بِرِيبَــةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَـى مِـنْ لُحُـومِ الغَوَافِـلِ
عَقِيلَـةُ حَـي مِـنْ لُـؤَيِ بـن غَالِـب كِـرَامِ المَسَـاعِي مَجْدُهُمْ غَـيْرُ زَائِـلِ
مُهَذَّبَــةٌ قــد طَيَّــبَ الله خِيمَهــا وَطَهَّرَهَــا مِــنْ كُــل سُــوءٍ وَبَاطِـلِ

وقد ذُكِرَت هذه القصة الجليلة المزلزلة في الصحاح والمسانيد بألفاظ متقاربة ومعانٍ متشابهة متوافقة، وخرّجها مُحَدِّثُ الإسلام وأميرُ المؤمنين في الحديث الإمامُ أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري رحمه الله في صحيحه في عدّة مواضع، ومن أجمعها قولُه رحمه الله تعالى ورضي عنه(١):

بَاب حَدِيثِ الْإِفْكِ

حَدَّثَنَا عبد الْعَزِيزِ بن عبد اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بن سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنْ

---

(١) انظر خبر الإفك بطوله على لسان أم المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق رضوان الله عليها وعلى أبيها في البخاري (١٩٨/٥، ٢٠١) (٣٣٣/٧، ٣٣٥) (٣٤٣/٨، ٣٦٧) وانظر شرح الموضع الأخير من فتح الباري في تفسير سورة النور. وأخرجه مسلم (٣١٧٩، ١٧٣٠) والترمذي (٣١٧٩) وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٤٨) وانظر: سيرة ابن هشام (٢٩٧/٢، ٣٠٧) البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٤/٣، ٣١١) وتفسيره (٣/ ٢٦٨، ٢٧٢).
وهذا الحديث جدير بالإذاعة بين المسلمين، لأن تحته من العبرِ، وقرعِ غوافل القلوب، وترويحِ أرواح المبتلَين، وبثِّ أواصر حسن الظن بين عباد الرحمن ما لا يحوط به وصف.



ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بن الزُّبَيْرِ وَسَعِيدُ بن الْمُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةُ بن وَقَّاصٍ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بن عبد اللَّهِ بن عُتْبَةَ بن مَسْعُودٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا(١)، وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْبَتَ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ(٢) قَالُوا: قَالَتْ عَائِشَةُ:

---

(١) قال السهيلي في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النور: ١١]: هم عبد الله ابن أبيّ، وحمنة بنت جحش، وعبد الله أبو أحمد أخوها، ومسطح، وحسان. انظر: الروض الأنف (٤/٢٢). وقيل: حسان لم يكن منهم. قلت: قد ثبت حدّه وتطهيره. وزاد النسفي: يزيد بن رفاعة. انظر: تفسير النسفي (٣/١١٣). وفي صحيح مسلم (٤/٢١٣٨): وكان الذين تكلموا: مسطح، وحمنة، وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبيّ فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره، وحمنة. ومعنى يستوشيه أي يستخرجه بالبحث والمسألة، ثم يفشيه ويشيعه ويحركه ولا يدعه يخمد، لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ، وانتهازه الفرص، وطلبه سبيلًا إلى الغميزة.

أما الإفك فقال النسفي: الإفك أبلغ ما يكون من الافتراء والكذب. وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك، وأصله الأفك بالفتح مصدر قولك أفكه يأفكه أفكًا إذا قلبه وصرفه عن الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] وقيل للكذب إفك لأنه مصروف عن الصدق. تفسير النسفي (٣/١١٤) باختصار.

(٢) قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: كان ابن شهاب. قلت: وهو الزهري. أكثرُ الناس بحثًا =



كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ(١)، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا

=

عن هذا الشأن - أي حديث رسول الله ﷺ - فكان ربّما اجتمع له في الحديث جماعة، فحدَّث به مرّة عنهم، ومرة عن أحدهم، ومرّة عن بعضهم، على قدر نشاطه حين تحديثه. وربّما أدخلَ حديثَ بعضِهم في حديث بعض، كما صنع في حديث الإفك وغيره، وربما كسل فلم يُسند، وربما انشرح فوَصَلَ وأسند، على حسب ما تأتي به المذاكرة. فلذا اختلف عليه أصحابه اختلافًا كثيرًا. ويبين ذلك روايته حديث ذي اليدين، رواه عنه جماعة، فمرّة يذكر فيه واحدًا، ومرة اثنين، ومرّة جماعة، ومرة جماعة غيرها، ومرّة يصل، ومرة يقطع. شرح الزرقاني للموطأ (١/ ٢٨٢).

وفي عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (٢٠/ ٢٩٥): وقال الزهري: وكلهم حدثني طائفة: أي بعضًا، وهذا قول جائز سائغ من غير كراهة، لأنه قد بيّن أن بعض الحديث عن بعضهم، وبعضه عن بعضهم، والأربعة الذين حدثوه أئمة حفاظ، من أجلة التابعين، فإذا ترددت اللفظة من هذا الحديث بين كونها عن هذا أو عن ذاك لم يضر، وجاز الاحتجاج بها، لأنهما ثقتان. وقد اتفق العلماء على أنه لو قال: حدثني زيد أو عمر وهما ثقتان معروفان بذلك عند المخاطب؛ جاز الاحتجاج بذلك الحديث.

وقوله: أوعى من بعض: أي أحفظ وأحسن إيرادًا وسردًا للحديث.

وقوله: اقتصاصًا: أي حفظًا، يقال: قصصت الشيء، إذا تتبعت أثره شيئًا بعد شيء، ومنه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي: اتبعي أثره.

(١) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا دليل لمالك والشافعي وأحمد وجماهير العلماء في العمل بالقرعة في القسم بين الزوجات، وفي العتق، والوصايا، والقسمة ونحو ذلك. وقد جاءت فيها أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة. قال أبو عبيد: عمل بها ثلاثة من
=





خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا[١] فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي[٢].

وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا

=

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: يونس، وزكريا، ومحمد ﷺ. قال بن المنذر: استعمالها ـ أي القُرعة ـ كالإجماع، قال: ولا معنى لقول من ردها. شرح النووي على مسلم: (١٧/ ١٠٣).

(١) هي غزوة المُريسيع.

(٢) قال الحافظ: أي بعد ما نزل الأمر بالحجاب، والمراد: حجاب النساء عن رؤية الرجال لهن، وكن قبل ذلك لا يُمنعن. وهذا قالته كالتوطئة للسبب في كونها كانت مستترة في الهودج، حتى أفضى ذلك إلى تحميله وهي ليست فيه، وهم يظنون أنها فيه، بخلاف ما كان قبل الحجاب، فلعل النساء حينئذ كُن يركبن ظهور الرواحل بغير هوادج، أو يركبن الهوادج غير مستترات، فما كان يقع لها الذي يقع، بل كان يعرف الذي كان يخدم بعيرها إن كانت ركبت أم لا. الفتح: (٨/ ٤٥٥).

أما الهودج فهو: هو مركب من مراكب نساء العرب، عبارة عن محمل له قبّة تُستر بالأقمشة ونحوها، يوضع على ظهر البعير، تركبه النساء ليكون أستر لهن عند السفر فوق البعير من العين والشمس والأذى. وفي رواية ابن إسحاق: فكنت إذا رحلوا بعيري جلستُ في هودجي، ثم يأخذون بأسفل الهودج، فيضعونه على ظهر البعير. وقيل إن الذي كان يرحل هودجها، ويقود بعيرها هو أبو مويهبة، ـ أو موهوبة ـ مولى رسول الله ﷺ، وراوي حديث مرضه ﷺ، وكان رجلا صالحًا.



مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ(١)، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي، أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ(٢) قَدْ انْقَطَعَ(٣) فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ(٤)، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي(٥)، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى

---

(١) وقفل: أي رجع. وقولها: آذن ليلة: من الإيذان، ومن التأذين، قاله الكرماني. ويقال: آذن بالمد والتخفيف مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

(٢) جزع ظفار وروي أظفار: الجزع هنا: حجر منسوب لموضع باليمن يقال له: ظَفار. وتروى جِزْع وهو الخرز، ولا شكّ أن حمله عليه أولى، فما تصنع بقلادة الحجارة؟! ويمكن الجمع بالقول بأنها حجارة كريمة ولعلّها نوعٌ من العقيق. ويقال: جزع ظفاري. وقال ابن التين: ورد في بعض الروايات أن العقد الملتَمَس مقدار ثمنه اثني عشر درهمًا. والعِقْد: هو القلادة.

وانظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٠٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٢٠/ ٣٠٠) جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين ابن الجزري (٢/ ٢٧٢) الديباج على مسلم للسيوطي (٦/ ١٢٦).

(٣) قلت: إذا أراد الله أمرًا هيّأ له أسبابه، وكم في هذا الأمر من لطيفة ربانية ومنحة رحمانية، فلله الحمد في الأولى والآخرة.

(٤) وفي رواية ابن إسحاق: فرجعت عَوْدِي على بدئي، إلى المكان الذي ذهبت إليه. وفي رواية الواقدي: وكنت أظن أن القوم لو لبثوا شهرًا لم يبعثوا بعيري، حتى أكون في هودجي.

(٥) يَرْحَلون ويُرَحِّلون: أي يجعلون الرَّحْلَ على البعير. رحلت البعير أي شددت عليه =



بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ(١)، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ(٢)، فَلَمْ

=

الرحل. وفي لفظ: «يرحلون لي» باللام، قال النووي: يرحلون بي بالباء، واللام أجود. وقال الكرماني: الرحل: المتاع. وقال بدر الدين العيني الحنفي: الرحل: المنزل والمسكن، يقال: انتهينا إلى رحالنا، أي إلى منازلنا. عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٢٠/ ٣٠١).

(١) لم يُهَبَّلن: وهذا الضبط أشهر عند النووي، أي: لم يكثر لحمهن من السمن فيثقلن، والمُهْبَل: الكثير اللحم، الثقيل الحركة من السِّمَن. وفي رواية للبخاري: «لم يثقلن» وهو بمعناه. وانظر: جامع الأصول، لمجد الدين ابن الجزري (٢/ ٢٧٢) وقال السيوطي في الديباج: لم يُهْبَّلن: ضُبِطَ بضم الياء وسكون الهاء والباء المشددة أي: لم يثقلن باللحم والشحم.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «لم يُهَبِّلْهُنَّ اللحم»: أي لم يكثر عليهن، ولم يركب بعضه بعضًا حتى يُرهلهن: يقال منه: أصبح فلان مهبلًا، إذا كان مورم الوجه. غريب الحديث لابن سلام (٤/ ٣٣٥).

(٢) قال العيني في عمدة القاري: ولم يغشهن اللحم: أي لم يركب عليهن اللحم، يعني لم يكن سمينات.

العُلقة: البُلْغة من الطعام، قدر ما يُمسك الرمق، تريد القليل. ويقال لها أيضا البُلغة، كأنه الذي يمسك الرمق وتعلق النفس للازدياد منه، أي تشوّقها إليه. وقيل ما يمسك به المرء نفسه من الأكل وقيل هو ما يأكله من الغداة. وقال صاحب العين: العلقة: ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداة، وأصلُ العلقة شجر يبقى في الشتاء يعلق به الإبل، أي تجتزىء به حتى يدرك الربيع. ـ قلت: ولعلّها العُلّيْقَة، =



يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا[١]، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ![٢] فَتَيَمَّمْتُ[٣] مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ[٤]، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي

=

ويزعم اليهود أنها الشجرة التي كلّم الله تعالى منها موسى عليه السلام..

(١) قال الحافظ: ويستفاد من ذلك أن الذين كانوا يرحلون بعيرها كانوا في غاية الأدب معها، والمبالغة في ترك التنقيب عمّا في الهودج، بحيث أنّها لم تكن فيه، وهم يظنون أنها فيه، وكأنهم جوزوا أنها نائمة.

قولها: وكنت جارية حديثه السن. هو كما قالت، لأنها أُدخلت على النبي ﷺ بعد الهجرة في شوال، ولها تسع سنين، وأكثر ما قيل في المريسيع أنها كانت في شعبان سنة ست، فتكون لم تكمل خمس عشرة. فإن كانت المريسيع قبل ذلك فتكون أصغر من ذلك. ويحتمل أن تكون أشارت بذلك إلى بيان عُذرها فيما فعلته من الحرص على العقد الذي انقطع، ومن استقلالها بالتفتيش عليه في تلك الحال، وترك إعلام أهلها بذلك، وذلك لصغر سنّها، وعدم تجاربها للأمور، بخلاف ما لو كانت ليست صغيرة؛ لكانت تتفطّن لعاقبة ذلك، وقد وقع لها بعد ذلك في ضياع العقد أيضًا أنها أعلمت النبي ﷺ بأمره، فأقام بالناس على غير ماء، حتى وجدته، ونزلت آية التيمم بسبب ذلك، فظهر تفاوت حال من جرب الشيء ومن لم يجربه. الفتح: (٨/ ٤٦١).

(٢) داعٍ ولا مجيب: أي ليس بها أحد لا من يدعو، ولا من يرد جوابًا.

(٣) أي: قصدت، مِنْ أَمَّ، ومنه ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

(٤) وهذا من وافر عقلها ورجاحة فكرها، وهكذا ينبغي لمن فقد شيئًا أن يرجع بفكره القهقرى، إلى الحد الذي يتحقّق وجوده، ثم يأخذ من هناك في التنقيب عليه. ذكره =

فَنِمْتُ(١)، وَكَانَ صَفْوَانُ بن الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ(٢)، فَأَصْبَحَ

=

الحافظ وقال: وأرادت بمن يفقدها من هو منها بسبب كزوجها أو أبيها، والغالب الأول، لأنه كان من شأنه ﷺ أن يُساير بعيرها، ويتحدّث معها، فكأن ذلك لم يتّفق في تلك الليلة، ولما لم يتّفق ما توقّعته من رجوعهم إليها ساق الله إليها من حملها بغير حول منها ولا قوة.

(١) قال الحافظ: يحتمل أن يكون سبب النوم شدّة الغمّ الذي حصل لها في تلك الحالة، ومن شأن الغمّ - وهو وقوع ما يكره - غلبة النوم، بخلاف الهمّ - وهو توقع ما يكره - فإنه يقتضي السهر. أو لِمَا وَقَعَ من بَرْد السحر لها، مع رطوبة بدنها، وصغر سنها. وعند ابن إسحاق: فتلفّفت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني. أو أن الله سبحانه وتعالى لطف بها، فألقى عليها النوم، لتستريح من وحشة الانفراد في البرية بالليل.

(٢) وراء الجيش: لينظر من سقط له شيء يأتيه به. وكان صفوان على السّاقة - وهي مؤخرة الجيش - يلتقط ما يسقط من متاع الجيش، ليردّه إليهم. وقيل: إنه كان ثقيل النوم، لا يستيقظ حتى يرتحل الناس، وقد جاء في سنن أبي داود أن امرأته شكت ذلك منه لرسول الله ﷺ فقال صفوان: إنا أهلُ بيت نوم عُرِفَ لنا ذلك، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس. وذكر القاضي أبو بكر بن العربي أن صفوان كان حصورًا، لا يأتي النساء.

وأول مشاهده المريسيع، وقيل الخندق وما بعدها. وكان شجاعًا، خيرًا، شاعرًا. وعن ابن إسحاق: قُتل في غزوة أرمينية شهيدًا سنة تسع عشرة، واندقّتْ رجله يوم قُتِلَ فطاعَنَ بها وهي منكسرة حتى مات! وقيل: توفي في خلافة معاوية سنة ثمان وخمسين.

ولما ضَرَبَ حسانَ بن ثابت بسيفه لما هجاه لم يقتصّه منه رسول الله ﷺ بل استوهب

=



عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ(١) إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ(٢) حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ(٣) وَجْهِي بِجِلْبَابِي(٤)، وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ(٥) وَهَوَى(٦) حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا(٧)، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ(٨) وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ

=

من حسان جنايته، فوهبها لرسول الله ﷺ، فعوّضه منها حائطًا من نخيل وسيرين أخت مارية. وقيل: إن إعطاء رسول الله ﷺ لحسان سيرين إنما كان لذبّه عن رسول الله ﷺ. عمدة القاري (٢٠/ ٣٠٣).

(١) سواد إنسان أي شخصه الذي لم تتبين ملامحه.

(٢) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون. قال الحافظ: وكأنه شقّ عليه ما جرى لعائشة، أو خشي أن يقع ما وقع، أو أنه اكتفى بالاسترجاع رافعًا به صوته عن مخاطبتها بكلام آخر، صيانةً لها عن المخاطبة في الجملة، وقد كان عمر يستعمل التكبير عند إرادة الإيقاظ. وفيه دلالة على فطنة صفوان وحسن أدبه.

(٣) فخمرت أي غطيت. ومنه سميت الخمر لتغطيتها العقل.

واحـــذر الخمـــرة لا تـــشربها كيـف يسـعى لجنـون مـن عقـل!

(٤) بجلبابي: الجلباب: ما يتغطى به الإنسان من ثوب أو إزار.

(٥) ظاهر الكلام أنه لم يُسَلِّم عليها لعظيم صيانه وجليل عفافه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعنه، وفيه القسم للتأكيد ولو لم يُطلب.

(٦) هوى: هوى الإنسان: إذا سقط من علوّ، والمراد: أنه نزل من بعيره عجلًا.

(٧) أي فوطئ صفوان يد الراحلة ليسهل الركوب عليها فلا يكون احتياج إلى مساعدة.

(٨) قال النووي: المُوغِر: النازل في وقت الوَغْرَة، وهي شدة الحر. ونحر الظهيرة: وقت

=



هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ[١] عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ.قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ[٢]، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بن ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بن أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ فِي نَاسٍ آخَرِينَ لَا عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى[٣]، وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ. قَالَ عُرْوَةُ:

=

القائلة، وشدة الحر. وقيل: نحر كل شيء أوله. قال العيني: شدة الحر، والنحر الأول، والصدر، وأوائل الشهر تُسمى النحور. وقال الداودي: الظهيرة: نصفُ النهار عند أول الفيء. وقال ابن الجزري: ومنه يقال: وغر صدره يوغر: إذا اغتاظ وحَمِيَ، وأوغره غيره، فيكون قولها: موغرين أي: داخلين في شدة الحر. وقال الخطابي: نحر الظهيرة: أول القائلة. قلت: ولازال على لسان أهل نجد.

(١) كبر الإفك: معظمه.

(٢) يستوشيه: أي يستخرجه بالبحث عنه والاستقصاء، كما يستوشي الرجل فرسه: إذا ضرب جنبيه بعقبيه أو بسوطه ليجري، يقال: أوشى فرسه، واستوشاه.

(٣) قال البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (٥/ ٢٤١): ذكر الله أنهم عصبة. وقد ذكروا حسان منهم، وأنا والله لا أظن به أصلاً وإن جاءت تسميته في الصحيح، فقد يخطى الثقة لأسباب لا تحصى، كما يعرف ذلك من مارس نقد الأخبار، وكيف يظن ذلك ولا شغل له إلا مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمدافعة عنه والذم لأعدائه، وقد شهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن جبريل عليه السلام معه، فأقسم بالله أن الذي أيده بجبريل ما كان ليكله إلى نفسه في مثل هذه الواقعة، وقد سبقني إلى الذب عنه الحافظ عماد الدين ابن كثير الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ. وكيف لا ينافح عنه وهو القائل:

فـإن أبي ووالـده وعِـرضي　　　لعـرض محمـدٍ مـنكم وقـاءُ

=



=

وهو القائل يمدح عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ويكذب من نقل عنه ذلك:

فإن كان ما بُلِّغْتِ عنّي قلتُهُ ... فلا رفعتْ سوطي إليّ أناملي

وكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل

وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: وأنكر قوم أن يكون حسان خاض في الإفك، وجلد فيه. ورووا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها برأته من ذلك .

قلت: أما جلده فثابت، وكذلك اتهام عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا له بذلك، وضرب صفوان له بالسيف، وليس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمعصوم، وتأييد الروح القدس له ليس بوارد هنا، لأنه إنما دُعي بتأييده في هجاء الكفار، حتى ورد أن جبريل قد أيده بسبعين بيتًا من أبيات الشعر المصمية للكفرة، وعلى كُلٍّ فالحدّ كفّارة، والتوبة كفارة، وأقوى ما يمكن أن تقاوم به روايات الإثبات هي نفيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما قيل عنه وإنكاره، بل وإرسال ذلك في أبيات سائرة، مشفوعة بدعاء على نفسه إن كان كاذبًا، فلعلّه ـ وهذا الظن الحسن به وبأصحاب رسول الله ﷺ ـ قد شُهِد عليه زورًا، أو فُهِم منه ما لم يقصده فجلد مع غيره، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه فهو شاعر الإسلام بلا مدافع.

وفي السيرة الحلبيّة: ولم يُحَدّ الخبيث عبد الله بن أبيّ بن سلول؛ لأن الحد كفارة، وليس من أهلها. وقيل: لأنه لم تقم عليه البينة بذلك، بخلاف أولئك، وقيل: لأنه كان لا يأتي بذلك على أنه من عنده، بل على لسان غيره.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما زنت ـ وفي لفظ ـ لم تبغ امرأة نبيّ قطّ. وأما قوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فالمراد: آذتاهما، قالت امرأة نوح عليه السلام في حقه: إنه المجنون، وامرأة لوط عليه السلام دلت على أضيافه. قلت: ولعلّ الخيانة في الآية هي خيانة الدين، وذلك بالكفر بالله ورسله.

وقيل: إنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط عليهما السلام، ولم يجز أن تكون فاجرة أي زانية؛ لأن النبيّ مبعوثٌ إلى الكفار ليدعوهم، فيجب أن لا يكون معه منقص ينفرهم عنه، والكفر غير منقص عندهم، وأما الفجور فمن أعظم النقصان.

=

كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ الَّذِي قَالَ فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ..

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا(١) وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ(٢) فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي

=

وفي الخصائص الصغرى: ومن قذف أزواجه ﷺ فلا توبة له البتة، كما قال ابن عباس وغيره. أي لا تقبل ظاهرًا وإن قبلها الله بينه وبين عبده، وهذا فرعٌ عن سبّ الرسول ﷺ فإن توبته ظاهرًا لا تقبل على المشهور، كما حرّره شيخ الإسلام في الصارم المسلول. ويُقتل، كما نقله القاضي عياض وغيره، وقيل: يختص القتل بمن قذف عائشة، ويحد في غيرها حدين. قلت: وروي نحوه عن ابن عمر، وفي رواية ضعيفة أن ابن أبيّ جُلِد مئة وستين.

وقد وقع أن الحسن بن يزيد الراعي من أهل طبرستان وكان من العظماء الزهاد الآمرين بالمعروف، وكان يرسل في كل سنة إلى بغداد عشرين ألف دينار تفرّق على أولاد الصحابة، فحضر عنده رجل من أشياع العلويين فذكر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالقبيح، فقال الحسن لغلامه: يا غلام، اضرب عنق هذا، فنهض إليه العلويون وقالوا: هذا رجل من شيعتنا، فقال: معاذَ الله، هذا طعن على رسول الله، قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ فإن كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خبيثة فإن زوجها يكون خبيثًا وحاشاه ﷺ من ذلك، بل هو الطيب الطاهر، وهي الطيبة الطاهرة المبرأة من السماء، يا غلام اضرب عنق هذا الكافر، فضرب عنقه. باختصار عن السيرة الحلبية: (٢/ ٦٢٥ ـ ٦٢٧).

(١) وهذا من رحمة الله بها إذ لم تسمع قَالَةَ الناس لانشغالها عنهم بمرضها.

(٢) يفيضون: الإفاضة في الحديث: التحدث به، ونشره، وإشهاره، والخوض فيه بين =



وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**»(١) ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي(٢) وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ(٣)، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ(٤) قِبَلَ الْمَنَاصِعِ(٥)، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا

=

الناس. يقال: أفاض القومُ في الحديث: إذا اندفعوا فيه يخوضون، وهو من قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٤١].

(١) تيكم: إشارة إلى المؤنث كـ«ذاكم» في المذكر.

(٢) يَريب: من الرّيب والريبة وهي الشك. ووردت بفتح الياء وهي أفصح كما في حديث: «**دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك**» (أحمد: ٢٢٣٤) (البيهقي في السنن: ٢٠٨٤٠) (الترمذي: ٢٥١٨ وصححه) وهو ما استعملته الصديقة في كلامها، وتُروى بالضم وهي صحيحة، وانظر: تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد الحسيني (٢/٥٤٩) وهو كتاب حافل جامع كبير.
قال النووي: يَريبني: بفتح أوله وضمّه، يقال: رابه وأرابه، اذا أوهمه وشكّكه. واللُّطف: هو البر والرفق.

(٣) نقهت: بفتح القاف وكسرها، والناقِهُ: الذي أفاق من المرض، وبرأ منه، وهو قريب عهد به، لم يتراجع إليه كمال صحته. وجمع الناقِهِ نُقَّه، ويقال: أنقهه الله.

(٤) أم مِسطح: اسمها سلمى، مشهورة بكنيتها. ويقال: اسمها ريطة. ومسطح لقب، واسمه عامر، وقيل: عوف. قال ابن سعد: أسلمت أم مسطح، فحسن إسلامها، وكانت من أشدّ الناس على مسطح حين تكلّم مع أهل الإفك. ترجمتها في: الإصابة ٨/٣٠٢-٣٠٣).

(٥) المناصع: المواضع الخالية، تُقضى فيها الحاجة، من الغائط والبول، وأصله: مكان
=



لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ(١) قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا. قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ قِبَلَ الْغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا.

قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ . وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بن الْمُطَّلِبِ بن عبد مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بن عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بن أُثَاثَةَ بن عَبَّادِ بن الْمُطَّلِبِ ـ فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا(٢) فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ!(٣)

=

فسيح خارج البيوت، واحدها: منصع. وفي الديباج: المناصع مواضع خارج المدينة، كانوا يتبرزون فيها.

(١) الكنيف: موضع قضاء الحاجة. والجمع كُنُف. ومن هنا قيل للوعاء الذي يحرز فيه الشيء: كنف، كقول عمر في ابن مسعود: كُنيفٌ مُلئ علمًا. ويقال للبناء الساتر لما وراءه: كنيف. قال أهل اللغة: الكنيف الساتر مطلقًا، وسُمّي به موضع الغائط لأنهم يستترون به.

قولها: وأمرنا أمر العرب الأول: تعني في التبرّز خارج المدينة. وقولها: التنزه: أي طلب النزاهة بالخروج إلى الصحراء. قال الخطابي: والمتبرّز: المكان الذي تُقضى فيه حاجة الإنسان، والبراز أيضًا اسم ذلك المكان، وبها سُمِّي الحدثُ برازًا، كما يسمّى الحدث بالغائط، وهو المطمئن من الأرض. ـ قلت: وهذا من باب تسمية الشيء بمكانه كناية وحياء ـ قال: والتنزه: البعد عن البيوت، وكانوا يبعدون عنها عند حاجة الإنسان. شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨/ ٤٣).

(٢) مرطها: المرط كساء من صوف، أو خزّ، يؤتزر به، وجمعه: مروط.

(٣) تعس الإنسان: أي عثر. ويقال في الدعاء على الإنسان: تعس فلان، أي: سقط لوجهه. ومنه حديث: «**تعس عبد الدينار..**» فقولها: تعس مسطح أي كُبَّ لوجهه،
=

فَقُلْتُ: لَهَا بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا! فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ[١]، وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي[٢]، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

=

أو هلك.

(١) قال الحافظ: قال أبو محمد بن أبي جمرة: يحتمل أن يكون قول أم مسطح هذا عمدًا، لتتوصل إلى إخبار عائشة بما قيل فيها وهي غافلة، ويحتمل أن يكون اتفاقا أجراه الله على لسانها، لتستيقظ عائشة من غفلتها عما قيل فيها.

وقولها: هنتاه: أي حرف نداء للبعيد، وقد يستعمل للقريب حيث ينزل منه منزل البعيد. والنكتة فيه هنا: أن أم مسطح نسبت عائشة إلى الغفلة عما قيل فيها، لإنكارها سبّ مسطح، فخاطبتها خطاب البعيد. الفتح: (٨/ ٤٦٧) وقال النووي: وفي رواية: يا هنتاه. قال أهل اللغة: هذه اللفظة تختصّ بالنداء، ومعناها: يا هذه. وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنها نُسِبتْ إلى قلة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم. ويقال في التثنية: هنتان، وفي الجمع: هنات وهنوات.

وفي المذكر: هن، وهنان، وهنون، ولك أن تُلحقها الهاء لبيان الحركة فتقول: يا هنه، وأن تشبع الحركة فتصير ألفا فتقول: يا هناه، ولك ضمُّ الهاء فتقول: يا هناه أقبل. شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٠٧).

قلت: ولغة العامة في نجد: هَنْ للمفرد المذكّر، وهَنَه للمفردة المؤنثة، وكما ترى لها أصل صحيح.

(٢) قال الحافظ: وعند الطبراني بإسناد صحيح، عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: لما بلغني ما تكلموا به؛ هممتُ أن آتي قليبًا فأطرح نفسي فيه. وأخرجه أبو عوانة أيضًا. الفتح: (٨/ ٤٦٧).

فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً[١] عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا[٢]. قَالَتْ: فَقُلْتُ:

---

(١) وضيئة: الوضاءة: الحسن، ووضيئة: فعيلة بمعنى: فاعلة. وقال النووي: وفي نسخة ابن ماهان حظيّة، من الحظوة، وهي الوجاهة، يقال حظيت المرأة عند زوجها: أي سعدت به، ودنت من قلبه، وأحبّها.

(٢) ضرائر: جمع ضُرَّة، وزوجات الرجل ضرائر؛ لأن كل واحدة تتضرر بالأخرى بالغيرة والقَسْمِ.

قال الحافظ: وفي هذا الكلام من فطنة أمها، وحسن تأتّيها في تربيتها ما لا مزيد عليه، فإنّها علمت أن ذلك يعظم عليها، فهوّنت عليها الأمر بإعلامها بأنها لم تنفرد بذلك، لأن المرء يتأسى بغيره فيما يقع له، وأدمجت في ذلك ما تُطَيِّبُ به خاطرها من أنها فائقة في الجمال والحظوة، وذلك مما يعجب المرأة أن توصف به، مع ما فيه من الإشارة إلى ما وقع من حمنة بنت جحش، وأن الحامل لها على ذلك كون عائشة ضرة أختها زينب بنت جحش، وعرف من هذا أن الاستثناء في قولها: «إلا أكثرن عليها» متّصل، لأنها لم تقصد قصتها بعينها، بل ذكرت شأن الضرائر، وأما ضرائرها هي فإنّهن وإن كن لم يصدر منهن في حقها شيء مما يصدر من الضرائر، لكن لم يعدم ذلك ممن هو منهن بسبيل كما وقع من حمنة، لأن ورع أختها منعها من القول في عائشة، كما منع بقية أمهات المؤمنين، وإنما اختصت زينب بالذكر، لأنها التي كانت تضاهي عائشة في المنزلة. الفتح (٨/ ٤٦٨).



سُبْحَانَ اللَّهِ(١)، أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟! قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ!(٢) ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بن أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بن زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ، يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ(٣)، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ(٤)، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ(٥)، وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ.

---

(١) استغاثت بالله متعجبة من وقوع مثل ذلك في حقّها، مع براءتها المحقّقة عندها، ومنزهة ربها أن يختار لنبيه الطيّب غير الطيّبة.

(٢) قولها: لا يرقأ: لا ينقطع. ولا أكتحل بنوم: أي لا أنام.

(٣) يعلم لهم: أي من الودّ.

(٤) أهلك: أي الزم أهلك. وإطلاق الأهل على الزوجة شائع. والجمع هنا لتعظيم أمرها.

(٥) آثر عليٌّ رضي الله عنه جانب النبي ﷺ لـمّا رآه مغتمًا، مع ما يعلم من شدة غيرته ﷺ، فرأى أنه إذا فارقها سكن ما عنده، ثم راجعها عند تحقّق براءتها، ولم يُرد بقوله ذلك عيبًا ولا نقصًا. قاله ابن أبي جمرة وغيره. عن الفجر الساطع (٣/ ٩٧).

قال الحافظ: ويستفاد من مشورة علي ارتكاب أخفّ الضررين لذهاب أشدهما. وقال الثوري: رأى ذلك هو المصلحة في حقّ النبي ﷺ، واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده في النصيحة لإرادة راحة خاطره ﷺ. وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: لم يجزم علي بالإشارة بفراقها، لأنه عقّب ذلك بقوله: وسل الجارية تصدقك، ففوّض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ، فكأنه قال: إن أردت =

=

تعجيلَ الراحة ففارقها، وأن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطّلع على براءتها، لأنه كان يتحقّق أن بريرة لا تخبره إلا بما علمته، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضة.

والعلّة في اختصاص علي وأسامة بالمشاورة: أن عليًّا كان عنده كالولد، لأنّه ربّاهُ من حال صغره، ثم لم يفارقه، بل وازداد اتصاله بتزويج فاطمة، فلذلك كان مخصوصًا بالمشاورة فيما يتعلق بأهله لمزيد اطلاعه على أحواله أكثر من غيره. وكان أهل مشورته فيما يتعلق بالأمور العامة أكابرُ الصحابة كأبي بكر وعمر، وأما أسامة فهو كعليّ في طول الملازمة، ومزيد الاختصاص والمحبة، ولذلك كانوا يطلقون عليه أنه حِبَّ رسول الله ﷺ، وخصّه دون أبيه وأمه لكونه كان شابًا كعليّ، وإن كان عليّ أسنّ منه، وذلك أن للشاب من صفاء الذهن ما ليس لغيره، ولأنه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المُسنّ، لأن المسنّ غالبًا يحسب العاقبة، فربما أخفى ما يظهر له رعاية للقائل تارة والمسؤول عنه أخرى. الفتح: (٨/ ٤٦٩).

ولقد ظلم من اتّهم عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالإفك لقوله هذا. قال الحافظ: وكأنّ بعض من لا خير فيه من الناصبة - أي الذين ناصبوا أهل البيت العداء - تقرّب إلى بني أمية بهذه الكذبة، فحرّفوا قول عائشة إلى غير وجهه، لعلمهم بانحرافهم عن علي، فظنوا صحتّها، حتى بيّن الزهري للوليد أن الحق خلاف ذلك، فجزاه الله تعالى خيرًا.

وقد جاء عن الزهري أن هشام بن عبد الملك كان يعتقد ذلك أيضًا، فقد أخرج يعقوب بن شيبة في مسنده عن الحسن بن علي الحلواني عن الشافعي قال: حدثنا عمي قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان، الذي تولّى كبره من هو؟ قال: عبد الله بن أبيّ. قال: كذبت، هو عليّ.

قال: أميرُ المؤمنين أعلم بما يقول. فدخل الزهري فقال: يا بن شهاب، من الذي تولّى كبره؟ قال: ابن أبيّ. قال: كذبت، هو عليّ. فقال: أنا أكذب لا أبالك، والله لو
=



قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ[(١)] فَقَالَ: «**أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟**» قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ

=

نادى مناد من السماء أن الله أحلّ الكذب ما كذبت، حدثني عروة وسعيد وعبيد الله وعلقمة عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ. فذكر له قصة مع هشام قال في آخرها: نحن هيجنا الشيخ، هذا أو معناه. فتح الباري (٨/ ٤٥٥).

(١) وكانت تخدم عائشة بأجرة، وهي في رقِّ مواليها قبل شرائها منهم على الراجح، فإنّها عتقت بعد الفتح، وهذا أولى من دعوى الإدراج وتغليط الحفاظ، وكلّما أمكن الجمع بين الروايات اتّبع، وهذه هي الجادّة المُتَّبَعة عند الأئمة الحُفّاظ.

وبَرِيرَة: هي مولاة كانت لبعض الأنصار كاتبوها، فأدّت عنها أمّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأعتقتها، فصارت مولاة لها. وقصتها في «الصحيحين» وغيرهما من حديث عائشة وغيرها، وهي التي جاء فيها الحديث: «**الوَلاءُ لمن أَعْتَقَ**» وكانت بريرة تخدم عائشة قبل أن تعتق كما في حديث الإفك، وعاشت إلى خلافة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتفرَّست في عبد الملك بن مروان أنه يلي الخلافة، فبشرته بذلك. وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لمّا خُيّرت بَرِيرَةُ، رأَيْتُ زَوجها يَتْبَعُهَا فِي سِكَك المدِينةِ، وَدُمُوعُه تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَكُلِّمَ الْعَبَّاسَ لِيُكَلِّمَ فِيهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِبَرِيرَةَ: «**إنه زَوجكِ**» قالت: تَأْمُرُنِي به يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**إنّما أنا شَافِعٌ**» قال: فخيرها، فَاختَارتْ نفسهَا. وفي البخاري: قالت: لا حاجة لي فيه. وكان عَبْدًا لِآل المغِيرة، يقال لَهُ: مُغِيثٌ. وفي رواية في الصحيحين: «**يا عباسُ، ألا تعْجَب من حُبِّ مُغيثٍ بريرة، ومن بُغضِ بريرة مُغيثاً؟!**» رواه أحمد (١٨٤٤) والبخاري (٣/٤٦٧).

قلت: وفي أخبارها فوائد فقهية عديدة، في أبواب الشروط والعتق والنكاح وغيرها. وانظر ترجمتها في: الإصابة ٧/٥٣٥-٥٣٦)

=

أَغْمِصُهُ(١)، غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي

(١) قال الحافظ: وفي رواية حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عند الطبراني: فقال: لست عن هذا أسألك، فلمّا فَطِنَتْ قالت: سبحان الله! وهذا يدل على أن المراد بقوله في الرواية: حتى أسقطوا لها به: أي حتى صرّحوا لها بالأمر، فلهذا تعجّبت. وقال ابن الجوزي: أسقطوا لها به: أي صرحوا لها بالأمر. أي: ذكروا لها الحديث وبينوه، فعند ذلك قالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر. إنكارًا أو إعظامًا أن تنطق بمثل هذا القول عمّن اختارها الله زوجًا لأطيب خلقه وأفضلهم، وجعلها أحبّ إليه من جميع نساء العالمين، ولا يجوز أن تكون إلا طيبة مثله. ثم قالت: سوى أنها جارية حديثه السن، تنام عن عجين أهلها. وفي رواية ابن إسحاق: ما كنت أعيب عليها إلا أني كنت أعجن عجيني، وآمرها أن تحفظه، فتنام عنه. وفي رواية مقسم: ما رأيت منها مُذْ كنت عندها إلا أني عجنت عجينًا لي، فقلت: احفظي هذه العجينة حتى أقتبس ناراً لأخبزها، فغفلت، فجاءت الشاة فأكلتها. قال ابن المنيّر في الحاشية: هذا من الاستثناء البديع الذي يُراد به المبالغة في نفي العيب، فغفلتُها عن عجينها أبعدُ لها من مثل الذي رميت به، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات. وكذا في قولها في رواية هشام بن عروة: ما علمت إلا ما يعلم الصائغ على الذهب الأحمر، أي كما لا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر إلا الخلوص من العيب، فكذلك أنا لا أعلم منها إلا الخلوص من العيب. وفي رواية ابن حاطب عن علقمة: فقالت الجارية الحبشيّة: والله لعائشةُ أطيبُ من الذهب، ولئن كانت صنعتْ ما قال الناس ليخبرنّك الله. قالت: فعجب الناس من فقهها. الفتح ـ مختصرًا ـ: (٨/ ٤٧٠).

وقولها: أغمصه: الغمص: العيب، ومن اشتقاقاته الغمز، فهُما من أحرف الصفير.

وفي قولها: ما أعلم عليها شيئًا أغمصه، دليل على أن من اتهم في دينه بأمر، أنه يُطلب =



الدَّاجِنُ(١) فَتَأْكُلُهُ.

قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ(٢)، فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ**

=

في سائر أحواله نظير ما اتُّهِمَ به، فإن لم يوجد له نظيرٌ لم يصدق عليه ما اتهم فيه، وإن وجد لذلك نظير قويت الشبهة، وحُكِمَ عليه بالتهمة في أغلب الحال لا في الغيب. قاله ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري (٨/ ٣٩).

(١) الداجن: الشاة التي تألف البيت وتقيم به، ولا تخرج للمرعى، يقال: دَجَنَ بالمكان، أذا أقام به. وزاد ابن التين: الدجاج، والحمام والوحش والطير ونحوها مما تألف البيوت، كما هي لغة العامة في هذا الزمان بقولهم: دواجن.

(٢) وفي رواية عطاء الخرساني عن الزهري بزيادة: وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب: أما سمعتَ ما يتحدّث الناس؟ فحدَّثته بقول أهل الإفك. فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم. وفي مرسل سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ ممن قال ذلك ـ أي ما يكون لنا أن نتكلم بهذا... ـ وروى الطبري أيضًا من طريق بن إسحاق حدثني أبي عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب قالت له أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟! قالت: لا، والله. قال: فعائشة والله خير منك. قالت: فنزل القرآن: ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الآية. قلت: وفي هذا سلامة قلبه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسن ظنه بالمؤمنين، وحزمه في تربية أهله.



عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي» قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ[1] .

---

(١) «**من يعذرني..**» قال الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة: (١/ ٨٤): وعَذَرْتُه من فُلانٍ: أي لُمتُ فلاناً ولم ألمهُ، وهو العَذِيْرُ؛ تقول: مَنْ عَذِيْري من فلان: أي مَنْ يَعْذِرُني منه. ويقول الرجل للآخر: ألا تعذِرُني من فلان، وإنما هو شَيء يتقَدّم به إليه، أي إنه يَظْلمُني، وإنما يَسْتَعْذرُ مخافَةَ المَلامَة. وعَذِيْرَكَ من فلان: أي هاتِ مَنْ يَعذِرُكَ منه. وعَذِيْرُ الرّجل: ما يَرومُ مما يُعْذَر عليه. وهو حَالُه أيضاً. والجميع: العُذُرُ. وما عندَه عَذِيْرَةٌ ولا غَفِيْرَةٌ: أي لا يَعذِرُ ولا يَغْفِر. وأعذَرَ: أتى بما يُعْذَرُ عليه.

وفي مقال سعد بن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال السيوطي في الديباج: استدل به القاضي على أن غزوة المريسيع التي كانت فيها قصة الإفك كانت سنة أربع قبل قصة الخندق، فإن سعد بن معاذ مات في أثر غزاة الخندق من الرمية التي أصابته. قال النووي وهو صحيح.

وإلى شيء من سيرة السعدين وأسيد رضوان الله عليهم:

أما سعد بن مُعاذ فهو سيّد الأوس، وهو ابن النعمان بن امرئ القيس ابن زيد بن عبد الأشهل الأوسي الأنصاري، أسلم على يد مصعب بن عمير لمّا أرسله النبي ﷺ إلى المدينة يُعلّم المسلمين، شهد بدرًا و أحدًا والخندق، ورماه يومئذٍ حبان بن عرقة في أكحله، فمات من جرحه بعد أيام بعد حكمه الشهير في حلفائه يهود لمّا غدروا، وهو الذي اهتزّ لموته عرش الرحمن فرحًا برُوحِهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان نبي الله ﷺ به حفيّا.

وأما سعد بن عُبادة سيّد الخزرج، فهو ابن دليم بن حارثة بن أبي حَزِيْمَة الخزرجي الأنصاري. وأُمُّ الأوس والخزرج قَيْلَةُ بنت كاهل. وكان سعد بن عبادة نقيب بني ساعدة، وقد شهد بدرًا ـ عند بعضهم ـ ولم يبايع أبا بكر ولا عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ وبذلك =



=

استدل شيخ الإسلام على أن البيعة تنعقد بالسواد الأعظم من أهل الحل والعقد، ولا يشترط لها إجماعهم. وهو من كرماء العرب وسادتهم المعدودين، ولما مرض ثقُلَ الناس عن عيادته، فسأل فقيل: ما منهم من أحد إلا ولك عليه دين، فأرسل صارخًا: أنّ كل الناس في حلّ من ديونه عليهم، فلم تمسِ عتبة بابه إلا منكسرة من ازدحام الناس لعيادته، وسار إلى الشام فأقام بحوران إلى أن مات سنة خمس عشرة، ولم يختلفوا أنه وجد ميتًا على مغتسله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، واشتهر أن الجن قتلته لما بال في جحر، ولم يثبت ذلك الزعم.

هذا، وإذا أطلق السعدان فهما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وكلاهما أسلم على يد داعية الإسلام المحنّك مصعب بن عمير، ولما كانا سيّدا قومِهما فشا فيهم الإسلام بحمد الله وكثر وعزّ جدّا. حتى إن الجن المسلمين استبشروا بذلك، فأغاظوا مشركي مكة وأفرحوا مُسلميها بهتافهم، ومن ذلك ما ذكره الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره في أعلام النبوة: (١/١٨٦) قال: و من بشائر هتوفهم ـ أي الجن ـ: ما حكاه أبو عيسى قال: سَمِعَتْ قريشٌ في الليل هاتفًا على أبي قبيس يقول ـ وإذا أطلق الهاتف فهو كلام الجن وألحق بعضهم به الملائكة ـ:

فإن يُسلم السَّعدان يصبح محمدٌ ... بمكةَ لا يخشى خلافَ مخالفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: من السَّعدان، سعد بكر، وسعد تميم؟ فلما كان في الليلة الثانية سمعوه يقول:

أيا سعدُ سعد الأوس كُن أنتَ ناصرًا ... ويا سعدُ سعد الخزرجيين الغَطَارِفِ
أَجيبا إلى داعي الهدى و تمنّيا ... على الله في الفردوسِ مُنيةَ عارفِ
فإنَّ ثوابَ اللهِ للطالبِ الهُدَى ... جِنانٌ من الفردوسِ ذاتُ زخارفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: هما و الله سعد بن معاذ و سعد بن عبادة.

وفي البخاري عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان يوم

=



=

بُعَاثٍ يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقُتِلَتْ سَرَوَاتُهم، وجُرِّحُوا، قدّمه الله لرسوله في دخولهم الإسلام. (البخاري: ٣٧٧٧) والسروات: جمع سريّ وهو السيد الشريف المطاع. وكان على الأوس يوم بُعاث وقد انتصرت يوم ذاك حضير بن سماك الأشهلي أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي فقتلا جميعًا.

قلت: ومن تقدِمَةِ ذلك رئاسةُ السعدين، ولم يكونا من كبار السن، فشَرْخُ الشباب مُؤْذِنٌ بقبول الحق، والانصياع للهدى، خلافًا للشيخ الكبير، فإنه لا يكاد يترك مذهبه، ولو استبان ضلاله! كذلك فقد كانت الأوس والخزرج تتشنف حينها لمن يجمع عصاها جميعًا إذ ملّت وكلّت القتال والخوف، لذا فقد كانت يهود تُعِدُّ حليفها الفاجر عبد الله ابن أبي ابن سلول لتملّكه على بني قيلة، ويأبى الله إلا أن يأتيهم من يسوسهم سياسة الأنبياء الكُمّل، لا الملوك الجبابرة.

قال ابن إسحاق في سيرته: ومرّ شأس بن قيس، وكان شيخًا يهوديّاً قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد! لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. فأمر فتًى شابًّا من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله، وأنشِدْهُم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. ففعل، فتكلّم القومُ عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيّين على الركب، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة! فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة الحرة ـ السلاحَ السلاحَ! فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ

=

=

فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: «**يا معشر المسلمين، اللهَ اللهَ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم؟!**» فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان، وكيدٌ من عدوّهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس. فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ وأنزل الله في من كادوا يقتتلون على أمر الجاهلية بكيد عدوهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٨-١٠٥] وانظر: الروض الأُنف: (٤١٦).

وفي المعجم الكبير (٦/ ٧): أن سعد بن معاذ لمّا رُمي في أكحله قال: ربّ اشفني من بني قريظة قبل الممات. فرَقَا الكَلْمُ بعدما قد انفجر - أي التأم الجرح - قال: وأقام النبي ﷺ على بني قريظة - أي محاصِرًا - حتى سألوه أن يجعل بينه وبينهم حكمًا ينزلون على حكمه، فقال رسول الله ﷺ: اختاروا من أصحابي من أردتم فلنستمع لقوله. فاختاروا سعد بن معاذ، فرضيَ به رسول الله ﷺ، وسلّموا. وأَمَرَ رسول الله ﷺ بأسلحتهم فجعلت في بيت، وأُمِرَ بهم فكتّفوا وأوثقوا، فجُعلوا في دار أسامة بن زيد، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأقبَلَ على حمارٍ أعرابي،
=

=

يزعمون أن وطاءه برذعةٌ من ليف، واتّبعه رجل من بني عبد الأشهل فجعل يمشي معه يُعظِّمُ حقَّ بني قريظة، ويذكرُ حِلْفهم والذي أبلوهُ يوم بعاث، و أنهم اختاروك على من سواك، رجاء عطفك وتحننك عليهم، فاستبقهم فإنّهم لك جِمالٌ وعَدَد. وتأمّل عظيم وقع هذا الكلام لو كان عند غير سعد الذي أراد وجه الله والدار الآخرة. قال: فأكثر ذلك الرجلُ ولم يحر إليه سعد شيئًا، حتى دنوا فقال له الرجل: ألا ترجع إلي شيئا؟ فقال سعد: والله لا أبالي في الله لومةُ لائم، ففارقه الرجل فأتى إلى قومه قد يئس من أن يستبقيهم، وأخبرهم بالذي كلمه به، والذي رجع إليه، - أي نعاهم إليهم - ونَفذَ سعدٌ حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: **«يا سعد، احكم بيننا وبينهم»**. فقال سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أحكم فيهم: بأن تُقتلَ مقاتلتهم، ويُغتنم سبيهم، وتؤخذ أموالهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم. فقال رسول الله ﷺ: «**حكم فيهم سعد بن معاذ بحكم الله**».

فأُخرجوا رسلًا رسلًا فضربت أعناقُهُم، وأخرج حييٌّ بن أخطب فقال له رسول الله ﷺ: «**هل أخزاك الله؟**» فقال: قد ظهرتَ عليَّ، وما ألومُ نفسي فيك! فأمر به رسول الله ﷺ فأخرج إلى أحجار الزيت التي بالسوق فضربت عنقه.

قال ابن إسحاق في السيرة النبوية (٤/ ٢٠٠): ثم استُنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة، في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالًا وفيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمئة أو سبعمئة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمئة والتسعمئة. وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالًا - أي جماعات قليلة -: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كلّ موطن لا تعقلون، ألا ترون الداعي لا ينزِع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل! فلم يزل ذلك الدأب

=

=

حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ. وأُتي بحيي بن أخطب عدو الله، وعليه حلّه له قفاحية ـ أي موشّاة ـ قد شقّها عليه من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يُسلبها، مجموعةٌ يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، ملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل! ثم جلس، فضربت عنقه.

قال ابن إسحاق: وقد كان ثابت بن قيس بن الشماس كما ذكر لي ابن شهاب الزهري، أتى الزبير بن باطا القرظي، وكان يكنى أبا عبد الرحمن، ـ قلت: فقد كانت اليهود تعرف هذا الاسم الحسن ـ وكان الزبير قد مَنَّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية. ذكر لي بعض ولد الزبير أنه كان مَنَّ عليه يوم بعاث، أخذه فجزّ ناصيته ثم خلّى سبيله. فجاءه ثابت وهو شيخ كبير، فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال وهل يجهل مثلي مثلك، قال: إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم. ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه قد كانت للزبير علي منّة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه، فقال رسول الله ﷺ: هو لك، فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، فهو لك، قال: شيخ كبير، لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ قال: فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هب لي امرأته وولده، قال هم لك. قال: فأتاه فقال: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك، فهم لك. قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله مالَهُ، قال: هو لك. فأتاه ثابت فقال: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك، فهو لك، قال: أي ثابت، ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحي كعب بن أسد؟ قال: قتل، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن
=

=
أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، عزال بن سموأل؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة؟ قال ذهبوا، قتلوا. قال: فإني أسألك يا ثابت، بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم! فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح، حتى ألقى الأحبة! فقدّمه ثابت فضرب عنقه. فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله ألقى الأحبة، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالدًا مخلدًا.

وعن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: لم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تحدث معي، وتضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتلُ رجالَها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قالت: قلت لها: ويلك ما لك؟ قالت: أُقتَل! قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته. قالت: فانطلق بها فضرب عنقها. فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجبًا منها طيبَ نفسها، وكثرةَ ضحكها، وقد عَرَفَتْ أنها تقتل. قال ابن هشام: هي التي طرحت الرحا على خلّاد بن سويد فقتلته.

وقد كان جرحُ سعد قد برئ، ثم إنه دعا فقال: اللّهم رب السماوات والأرض، إنه لم يكن في الأرض قوم أبغض إلي من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، وأني أظن أن قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي بيننا وبينهم قتال فأبقني أقاتلهم فيك، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجُرْ هذا المكان، واجعل موتي فيه، ففجره الله تبارك وتعالى وإنه لراقد بين ظهري الليل، فما دروا به حتى مات رحمه الله ورضي عنه.

وأما أُسَيْد فهو ابن حُضَيْر ابن سماك بن عتيك بن امرئ القيس الأشهلي الأوسي الأنصاري، أبو يحيى، أسلم على يد مصعب بن عمير بالمدينة بعد العقبة الأولى وقيل الثانية، في قصّة جميلة تدل على حُسْنِ تأتّي مصعبٍ للناس في دعوتهم إلى الله تعالى.
=

=

واختُلف في شهوده بدرًا، فنفاه ابن إسحاق والكلبي، وأثبته غيرهما، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وشهد مع عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فتح بيت المقدس. وهو من أبناء عمومة سعد بن معاذ، ولا يكادان يفترقان في جاهلية وإسلام، وهو القائل لعائشة في قصة نزول آية التيمم: ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر. وكان من شجعان الأنصار وسادتهم ومقدَّميهم، مات بالمدينة سنة عشرين، وصلّى عليه عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وفي قصة إسلامه هو وسعد بن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عبرٌ: فقد كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيِّديْ قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ـ أي مصعب وأسعد ـ وانههما أن يأتيا دارينا، فإنّه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيّد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلِّمْهُ، فوقف عليهما متشتّمًا فقال: ماجاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟ قال أسيد: أنصفْتَ، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق؟ ثم تصلِّي، فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

=



=

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ! ـ قلت: ذاك نور الإيمان وانبلاج الأسارير بِرَوْحِهِ ـ فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك ـ وفيه دهاء ابن حضير ليحفّز حمية ابن معاذ فيلي الأمر بنفسه ـ فقام سعد مغضباً مبادراً مخوفاً للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلتَهُ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله. ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم

=



أَخُو بَنِي عبد الْأَشْهَلِ - فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ. قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْخَزْرَجِ - وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ(١) بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ(٢) - وَهُوَ سَعْدُ بن عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ(٣) الْحَمِيَّةُ فَقَالَ

= عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما أيمن نقيبته -.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد بأحد، ولم يصلِّ لله بسجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

(١) واسمها فُريعة بنت خالد بن خنيس الأنصارية، والدة حسان بن ثابت، وإليها كان ينسب، فيقال: قال ابن الفريعة. ذكرها ابن سعد في المبايعات. ترجمتها في: الطبقات: (٢/ ٢٧١) والإصابة: (٨/ ٧٣).

(٢) من فخذه: عند النسابة الفخذُ في العشائر أقلُّ من البطن، أولها: الشعب، ثم القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ. قال الحافظ: وقولها من فخذه بعد قولها بنت عمه: إشارة إلى أنها ليست بنت عمه لحا، لأن سعد بن عبادة يجتمع معها في ثعلبة.

(٣) وفي لفظ بالجيم، اجتهلته: أي استخفته وأغضبته وحملته على الجهل. أما بالحاء احتملته فمعناها: أغضبته. يقال: احتمل الرجل، إذا غضب. والروايتان صحيحتان. والاجتهال: افتعال من الجهل، أي: حملته الحمية، وهي الأنفة والغضب على الجهل، =



لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ(١)، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ - فَقَالَ لِسَعْدِ بن عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ(٢)، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ(٣) تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ(٤) قَالَتْ:

=

واحتملته: افتعلته من الحَمْلِ.

(١) ولا تقدر: يعني أن النبي ﷺ لم يجعله إليك. الفجر الساطع (٣/ ٩٨)

(٢) لنقتلنه: أي إن أمرنا النبي ﷺ بقتله.

(٣) منافق: قاله مبالغة في زجر سعد، وحاشاه من ذلك، بل هو من خيار الصحابة وأجلّتهم وكرمائهم وشجعانهم وسادتهم.

(٤) قال شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى(٧/ ٥٢٢ - ٥٢٥) في هذا الشأن المُشكِل عند كثير من الناس: «إن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة، ولا تتلازم عند الضعف، فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١]، وقال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أُبيّ في قصة الإفك فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله؛ لا تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلا صالحًا، ولكن احتملته

=

=

الحميّة. ولهذه الشبهة سمّى عمرُ حاطبًا منافقًا فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**إنه شهد بدرًا**» فكان عمر متأولًا في تسميته منافقًا للشبهة التي فعلها. وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنّه، إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين، هو من هذا الباب. وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق. وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين.

ولهذا لم يكن المتّهمون بالنفاق نوعًا واحدًا، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق. وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان، ولمّا قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك؛ صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك.

ومن هذا الباب ما يروى عن الحسن البصري ونحوه من السلف؛ أنهم سمّوا الفساق منافقين؛ فجعل أهل المقالات هذا قولًا مخالفا للجمهور، إذا حكوا تنازع الناس في الفاسق الملّي هل هو كافر؟ أو فاسق ليس معه إيمان؟ أو مؤمن كامل الإيمان؟ أو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من الفسق؟ أو منافق والحسن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى لم يقل ما خرج به عن الجماعة، لكن سماه منافقًا على الوجه الذي ذكرناه.

والنفاق كالكفر؛ نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرًا ما يقال: كفر ينقل عن الملّة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر، كما يقال: الشرك شركان: أصغر وأكبر. وفي صحيح أبي حاتم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**» فقال أبو بكر: يا رسول الله، كيف ننجو منه وهو أخفى من دبيب النمل؟ فقال: «**ألا أعلّمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجلّه؟ قل: اللّهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**» وفي الترمذي عن النبي

=



=

ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» قال الترمذي حديث حسن.

وبهذا تبين أن الشارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص لانتفاء كماله الواجب، وإن كان معه بعض أجزائه، كما قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**» ومنه قوله: «**من غشنا فليس منّا، ومن حمل علينا السلاح فليس منّا**» فإن صيغة «أنا» و«نحن» ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك يتناول النبي ﷺ والمؤمنين معه ـ الإيمان المطلق ـ الذي يستحقون به الثواب بلا عقاب. ومن هنا قيل: إن الفاسق الملّي يجوز أن يقال: هو مؤمن باعتبار، ويجوز أن يقال: ليس مؤمنًا باعتبار.

وبهذا تبين أن الرجل قد يكون مسلمًا لا مؤمنًا ولا منافقًا مطلقًا، بل يكون معه أصل الإيمان دون حقيقته الواجبة. ولهذا أنكر أحمد وغيره من الأئمة على من فسّر قوله ﷺ «**ليس منّا**» ليس مثلنا، أو ليس من خيارنا، وقال: هذا تفسير المرجئة. وقالوا: لو لم يفعل هذه الكبيرة كان يكون مثل النبي ﷺ. وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة بأنه يخرج من الإيمان بالكليّة، ويستحق الخلود في النار تأويل منكر كما تقدّم، فلا هذا ولا هذا». انتهى. وانظر كذلك: الإيمان الأوسط لابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ١٣٨).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٨) باختصار:

ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن الله تعالى قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء، وغفر للمؤمنين خطأهم. والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم؛ قاتلهم أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين. واتفق

=



=

على قتالهم أئمةُ الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. ولم يكفّرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم عليّ حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين؛ فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم، لا لأنهم كفار. ولهذا لم يسب حريمهم، ولم يغنم أموالهم.

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله بقتالهم؛ فكيف بالطوائف المختلفين، الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم؟! فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفّر الأخرى، ولا تستحلّ دمها ومالها وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفّرة لها مبتدعة أيضًا؟! وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ، والغالب أنهم جميعًا جُهّالٌ بحقائق ما يختلفون فيه.

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله. قال النبي ﷺ لما خطبهم في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا**» وقال: «**كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه**» وقال: «**من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ذمة الله ورسوله**» وقال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه أراد قتل صاحبه**» وقال: «**لا ترجعوا بعدي كفّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**» وقال: «**إذا قال المسلم لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**» وهذه الأحاديث كلها في الصحاح.

وإذا كان المسلم متأولًا في القتال أو التكفير؛ لم يكفر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال

=

=

النبي ﷺ: «**إنه قد شهد بدرًا وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟**» وهذا في الصحيحين، وفيهما أيضًا من حديث الإفك: أن أسيد بن الحضير قال لسعد بن عبادة: إنك منافق تجادل عن المنافقين، واختصم الفريقان، فأصلح النبي ﷺ بينهم. فهؤلاء البدريون فيهم من قال لآخر منهم: إنك منافق، ولم يكفّر النبي ﷺ لا هذا ولا هذا، بل شهد للجميع بالجنة.

وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلًا بعد ما قال لا إله إلا الله، وعظّم النبي ﷺ ذلك لما أخبره وقال: «**يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟**» وكرر ذلك عليه، حتى قال أسامة: «تمنّيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ» ومع هذا لم يوجب عليه قودًا ولا ديةً ولا كفارةً؛ لأنه كان متأولًا ظن جواز قتل ذلك القائل، لظنّه أنه قالها تعوذًا.

فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضًا من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلّهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] فقد بيَّن الله تعالى أنهم مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل.

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضا موالاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويتوارثون، ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ سأل ربه أن لا يُهلك أمته بسَنَةٍ عامة فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يسلّط عليهم عدوًّا

=

=

من غيرهم فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فلم يعط ذلك، وأخبر أن الله لا يسلّط عليهم عدوًّا من غيرهم يغلبهم كلّهم، حتى يكون بعضهم يقتل بعضًا، وبعضهم يسبي بعضًا. وثبت في الصحيحين لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ قال: «**أعوذ بوجهك**» ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ قال: «**أعوذ بوجهك**» ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: «**هاتان أهون**».

هذا مع أن الله أمر بالجماعة والائتلاف، ونهى عن البدعة والاختلاف، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقال النبي ﷺ: «**عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة**» وقال: «**الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد**» وقال: «**الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، والذئب إنما يأخذ القاصية والنائية من الغنم**».

فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة، ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم، وإن رأى بعضهم ضالًّا أو غاويًا وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك، وإلا فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. وإذا كان قادرا على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولاه، وإن قدر أن يمنع من يظهر البدع والفجور منعه. وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنًّا**».

وإن كان في هجره لمُظهِرِ البدعة والفجور مصلحةٌ راجحة هجره، كما هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلّفوا حتى تاب الله عليهم. وأما إذا ولى غيره بغير إذنه، وليس =

=

في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية؛ كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلًا وضلالًا، وكان قد ردّ بدعة ببدعة. حتى إن المصلي الجمعة خلف الفاجر اختلف الناس في إعادته الصلاة، وكرهها أكثرهم حتى قال أحمد بن حنبل في رواية عبدوس: من أعادها فهو مبتدع. وهذا أظهر القولين لأن الصحابة لم يكونوا يعيدون الصلاة إذا صلوا خلف أهل الفجور والبدع، ولم يأمر الله تعالى قط أحدًا إذا صلى كما أمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة.

وبالجملة؛ فالمتأول والجاهل المعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر، بل قد جعل الله لكل شيء قدرًا».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في المستدرك على مجموع الفتاوى(١/ ١٣١ ـ ١٣٣) في كلامه على الإيمان المطلق والمقيد وضرب أمثله ثم قال: «ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة، ينتفي الاسم عن المسمى تارة لنفي حقيقته وكماله، ويثبت له تارة لوجود أصله وبعضه؛ حتى يقال للعالم القاصر، والصانع القاصر: هذا عالم وهذا صانع، بالنسبة إلى من لا يعلم وإلى من لا يصنع. ويقال: هذا ليس بعالم ولا صانع، لوجود نقصه وتقصيره. ويقال للكامل: هو العالم والصانع، وهذا هو الشجاع، وأمثاله كثيرة من الأسماء والصفات: كالمؤمن، والكافر، والفاسق، والمنافق».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في المدارج (١/٣٢٨): «وأيضًا فإنه يعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، ما لا يُعفى لغيره، ويُسامح بها لا يسامح به غيره. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: انظر إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه، رَمَى الألواحَ التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها! وجَرَّ بلحية نبيٍّ مثله وهو هارون! ولَطَمَ عينَ ملَك الموت ففقأها! وعاتب ربَّه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورَفْعِهِ عليه! وربُّهُ تعالى يحتمل له ذلك كلّه، ويحبه، ويكرمه، ويُدَلِّلُه، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة، في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمتي القبط وبني

=

فَثَارَ[(١)] الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ. قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ[(٢)] حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ.

=

إسرائيل أشدَّ المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر. وانظر إلى يونس بن متى عليه السلام حيث لم تكن له هذه المقامات التي لموسى غاضب ربَّهُ مرَّة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى».

وقال أيضًا في المدارج: (٢/ ٤٥٦): «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: وكذلك لطم موسى عين مالك الموت ففقأها، ولم يعتب عليه ربه؛ وفي ليلة الإسراء عاتب ربه في النبي ﷺ إذ رفعه فوقه، ورفع صوته بذلك، ولم يعتبه الله على ذلك. قال: لأن موسى عليه السلام قام تلك المقامات العظيمة التي أوجبت له هذا الدلال؛ فإنه قاوم فرعون أكبر أعداء الله تعالى، وتصدّى له ولقومه، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة، وجاهد في الله أعداء الله أشد الجهاد، وكان شديد الغضب لربه فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره. وذو النون لما لم يكن في هذا المقام سجنه في بطن الحوت من غضبه. وقد جعل الله لكل شيء قدرًا».

(١) وفي لفظ: فتثاور. ومعنى تثاور الناس أي: ثاوروا ونهضوا من أماكنهم، طلبًا للفتنة.

(٢) يخفضهم: يسكّنهم. قال الحافظ: زاد بن جريج في روايته في قصة الإفك هنا قال: قال ابن عباس: فقال بعضهم لبعض: موعدكم الحرة، أي خارج المدينة لتتقاتلوا هناك.

وقولها: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وفي رواية بن حاطب: فلم يزل يومئ بيده إلى الناس ها هنا حتى هدأ الصوت، وفي رواية فليح: فنزل فخفضهم حتى سكتوا. قال الحافظ: ويحمل على أنه سكّتهم وهو على المنبر، ثم نزل إليهم أيضًا ليكمل تسكيتهم، ووقع في رواية عطاء الخرساني عن الزهري: فحجز

=



قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ! قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ(١) كَبِدِي!

فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي(٢)، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ

=

بينهم. الفتح: (٨/ ٤٧٥).

وتأمّل حكمة النبي ﷺ في تسكينهم أولًا ثم في طريقته في إذهاب ما قد يعلق بنفوسهم من ضغينة بسبب ذلك الموقف، فقد روى الواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٥) قائلًا: ومكث رسول الله ﷺ أيامًا ـ أي بعد تلك الحادثة ـ ثم أخذ بيد سعد بن معاذ في نفر فخرج يقود به حتى دخل به على سعد بن عبادة، ومن معه فتحدثا عنده ساعة وقرّب سعد بن عبادة طعامًا، فأصاب منه رسول الله ﷺ وسعد بن معاذ ومن معه. ثم خرج رسول الله ﷺ فمكث أيامًا، ثم أخذ بيد سعد بن عبادة، ونفر معه فانطلق به حتى دخل منزل سعد بن معاذ، فتحدثا ساعة وقرّب سعد بن معاذ طعامًا، فأصاب رسول الله ﷺ وسعد بن عبادة ومن معهم. ثم خرج رسول الله ﷺ. وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ لأن يذهب ما كان في أنفسهم من ذلك القول الذي تقاولا.

(١) فالق: فاعل، من فلق الشيء، إذا شقه. ومنه قول رب العزة: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

(٢) وساعدتها على البكاء وأسعدتها بماء عيونها امرأة من أولي الوفاء والمواساة والكرم والإيثار ومعالي الشيم؛ الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رجالاً ونساءً.



اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ(١). قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا. وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ(٢). قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: **«أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا(٣)، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ(٤)، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ(٥)، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعبد إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»**.

---

(١) في رواية هشام بن عروة بلفظ: فأصبح أبواي عندي، فلم يزالا، حتى دخل علي رسول الله ﷺ وقد صلى العصر، وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي، وفي رواية ابن حاطب: وقد جاء رسول الله ﷺ، حتى جلس على سرير وجاهي. وفي حديث أم رومان: أن عائشة في تلك الحالة كانت بها الحمّى النافض، وأن النبي ﷺ لما دخل فوجدها كذلك قال: **«ما شأن هذه؟»** قالت: أخذتها الحمى بنافض. قال: **«فلعلّه في حديث تُحُدِّثَ»** قالت: نعم: فقعدت عائشة. فتح الباري: (٨/ ٤٧٥).

(٢) وذُكر أن المدة كانت سبعة وثلاثين يومًا بإلغاء الكسر في هذه الرواية، وعند ابن حزم أن المدة كانت خمسين يومًا أو أزيد، ويجمع بأنها المدة التي كانت بين قدومهم المدينة ونزول القرآن في قصة الإفك، وأما التقييد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها حين بلغها الخبر. ذكره الحافظ.

(٣) كذا وكذا: كناية عما رميت به من الإفك، وهذا من الكناية البليغة.

(٤) وفي هذا الوعد النبوي رسالة لطيفة لها أن تطمئن لأن الله تعالى سيتولى إظهار براءتها.

(٥) قولها: ألممت بشيء، وفي رواية: بذنب: هو من الإلمام، وهو النزول النادر غير المتكرر.





قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ(١) دَمْعِي، حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً(٢)، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ. فَقَالَ أَبِي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ. قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ(٣). فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لَا أَقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ(٤). فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، لَا

---

(١) قلص الدمع: انقطع جريانه وارتفع وانقبض. وقال القرطبي: يعني أن الحزن والوجدة قد انتهت نهايتها، وبلغت غايتها، ومهما انتهى الأمر إلى ذلك قلص الدمع لفرط حرارة المصيبة. عمدة القاري (٢٠/ ٣١٣).

(٢) وقلوص دمعها من العَتَبِ.

(٣) قولها: قال: والله ما أدري ما أقول: أي أن الأمر الذي سألها رسول الله ﷺ لا يقف منه على أمر زائد على ما عند رسول الله ﷺ قبل نزول الوحي من حسن الظن.
قال النووي: قولها لأبويها: أجيبا عنّي. فيه تفويض الكلام إلى الكبار، لأنهم أعرف بمقاصده، واللائق بالمواطن منه، وأبواها يعرفان حالها. شرح مسلم: (١٧/ ١١٢).

(٤) قالت هذا وإن لم يكن على حقيقته على سبيل المقابلة، لِمَا وقع من المبالغة في التنقيب عن ذلك، وهي كانت لِمَا تحقّقته من براءة نفسها، ومنزلتها، تعتقد أنه كان ينبغي لكل من سمع عنها ذلك أن يقطع بكذبه، لكن العذر لهم عن ذلك، أنهم أرادوا إقامة الحجة على من تكلّم في ذلك، ولا يكفي فيها مجرد نفي ما قالوا والسكوت عليه، بل تعيّن التنقيب عليه لقطع شبههم، أو مرادها بمن صدّق به من أصحاب الإفك، لكن ضمت إليه من لم يكذبهم تغليبًا. الفتح: (٨/ ٤٧٦)



تُصَدِّقُونِي(١). وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي(٢). فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ(٣) حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ(٤)، وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى،

---

(١) أي لا تقطعون بصدقي.

(٢) ويذكرنا هذا بقول كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يدي رسول الله ﷺ حين قفل من تبوك وسأله عن تخلّفه فقال: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنّي؛ ليوشكنّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجد علي فيه؛ إنّي لأرجو فيه عقبى الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلّفت عنك. قال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق**» متفق عليه، وفيه تعلق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالله، وشديد مراقبتهم له.

(٣) قولها: إلا أبا يوسف: أي إلا مثل يعقوب عليه الصلاة والسلام، وهو الصبر، وكأنها من شدة حزنها لم تتذكر اسم يعقوب، وإنها قالت أبا يوسف لأنه لما جاء إخوة يوسف أباهم يعقوب ومعهم قميص يوسف بدم كذب قال يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وفي رواية أبي أويس: نسيت اسم يعقوب، لما بي من البكاء واحتراق الجوف.

(٤) تحولت: حولت وجهي عنهم وأدرته للجدار.



لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا. فَوَاللَّهِ مَا رَامَ(١) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ(٢)، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنْ الْعَرَقِ مِثْلُ

---

(١) ما رام: أي ما برح من مكانه، يقال: رام يريم: إذا برح وزال، وقلّما يستعمل إلا في النفي. والمراد: أي ما فارق مجلسه.

(٢) البرحاء: الشدة، وهي هنا بسبب ثقل الوحي، فقد كان إذا ورد عليه الوحي، يجد له مشقّة، ويغشاه الكرب لثقل ما يُلقى عليه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ولذلك كان يعتريه مثل حال المحموم، كما روي أنه كان يأخذه عند الوحي الرُّحَضاءُ، أي البهر والعرق من الشدة، وأكثر ما يسمّى به عَرَقُ الحُمّى، ولذلك كان جبينه يتفصَّدُ عرقًا كما يُفصد. وإنما كان ذلك ليبلوَ صبرَهُ، ويحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة.

وقد ذكر البخاري في حديث يعلى بن أمية «فأدخل رأسه، فإذا رسول الله محمرٌّ الوجه، وهو يغطُّ، ثم سُرِّيَ عنه» ومنه في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان نبي الله ﷺ إذا أنزل عليه كَرب لذلك، وتربَّدَ وجهه. وفي حديث الإفك هنا وصفٌ آخر لذلك.

وقال الخطابي: البرحاء: شدّة الكرب، مأخوذ من قولك: برحت بالرجل، إذا بلغتَ به غاية الأذى والمشقّة. ويقال: لقيت منه البرح.

قال الحافظ في سياق حديث الإفك: وفي رواية ابن إسحاق: فسجِّيَ بثوب، ووضعت تحت رأسه وسادة من أدم. وزاد بن جريج في روايته: قال أبو بكر: فجعلتُ أنظر إلى رسول الله ﷺ أخشى أن ينزل من السماء ما لا مردّ له، وأنظر إلى وجه عائشة فإذا هو منبقٌ «أي صافي اللون» فيطمعني ذلك فيها. وفي رواية بن =

الْجُمَانِ(١)، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

قَالَتْ: فَسُرِّيَ(٢) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ**»(٣) قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ(٤)، فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَتْ

=

إسحاق: فأما أنا فوالله ما فزعت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس. الفتح: (٨/ ٤٧٧).

(١) الجمان: جمع جمانة:وهي اللؤلؤة، وهي الدّرّ، وقيل: هي خرزة تُعمل من الفضة مثل الدرة. وقد شبّهت قطرات عرقه ﷺ بحبّات اللؤلؤ في الصفاء والحسن. قال الجواليقي: وقد جعل لبيدٌ الدُّرَّةَ جُمانة فقال: كجمانة البحري سُلَّ نظامها. عمدة القاري (٢٠/ ٣١٤).

(٢) سري عنه: أي كشف وأُزِيلَ عنه.

(٣) وفي رواية ابن حاطب: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما زال يضحك، حتى إني لأنظر إلى نواجذه سرورًا، ثم مسح وجهه. قال ابن دحية: ونزل عذرها بعد سبع وثلاثين ليلة.

(٤) أي قالت لها أمها: قومي فاحمديه، وقبلي رأسه، واشكريه لنعمة الله تعالى التي بشّرك. فقالت ما قالت. قال ابن الجوزي: فعلت ذلك دلالا كما يدل الحبيب على الحبيب. وقال النووي: قالت ذلك إدلالًا عليهم، وعتابًا، لكونهم شكّوا في حالها مع علمهم بحسن طرائقها، وجميل أحوالها، وتنزهّها عن هذا الباطل الذي افتراه الظلمة، ولا حجة لهم ولا شبهة فيه. قالت: وإنما أحمد ربي سبحانه وتعالى، الذي أنزل براءتي، وأنعم علي بما لم أكن أتوقّعه. النووي على مسلم (١٧/ ١١٣).

=



وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡۚ﴾ [النور: ١١-٢٠] الْعَشْرَ الْآيَاتِ(١)، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي.

=

وقال ابن القيم في الزاد (٣/٢٣٦) عند ذكر الحكم الربّانية الجليلة من تلك الحادثة وقول الصديقة ما قالت: علم معرفَتها، وقوةَ إيمانها، وتوليتها النعمة لربِّها، وإفرادَه بالحمد في ذلك المقَام، وتجريدَها التوحيد، وقوةَ جأشها، وإدلالَها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يُوجب قيامَها في مقام الراغب في الصُّلح، الطالب له، وثقتها بمحبة رسولِ اللهِ ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالاً للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسنُ مقامات الإدلال، فوضعتهُ موضِعَه، ولله ما كان أحبَّها إليه حين قالت: «لا أَحْمَدُ إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي» ولله ذلك الثباتُ والرزانةُ منها، وهو أحبُّ شيء إليها، ولا صبرَ لها عنه، وقد تنكَّر قلبُ حبيبها لها شهراً، ثم صادفَتِ الرِّضى منه والإقبال، فلم تُبادِرْ إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه مع شدة محبتها له.

(١) على طريقة إلغاء الكسر، لأنها ثلاث عشرة آية.

قال الزمخشري في شأن آيات قصة الإفك: لم يقع في القرآن من التغليظ في معصية ما وقع في قصة الإفك، بأوجز عبارة وأشبعها، لاشتمال على الوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام القول في ذلك، واستشناعه بطرق مختلفة، وأساليب متقنة، كل واحد منها كاف في بابه. بل ما وقع منها من وعيد عبدة الأوثان، إلا بما هو دون ذلك، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، وتطهير من هو منه بسبيل. نقله عنه الحافظ في الفتح: (٨/ ٤٧٨) قلت: وفي قوله بأنه لم يأت لأهل الوعيد مثله فيه نظر، بل قد جاء أشدّ منه وأعظم وعيدًا لأهل الشرك ولأهل النفاق.



قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ـ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بن أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ ـ: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ[١] مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢][٢] قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا[٣]. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ[٤] بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ

---

(١) أي عنها.

(٢) ولا يأتَل: يأتل: يفتعل، من الألية، وهي القسم، يقال: آلى وائتلى وتألّى. جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين ابن الجزري. (٢/ ٢٧٢).

(٣) ووقع عند الطبراني أنه صار يعطيه ضعف ما كان يعطيه قبل ذلك. وقد أخرج الحاكم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال أبو بكر يعاتب مسطحًا في قصة عائشة: يا عوف، ويحك، هل لا قلت عارفة من الكلام، ولم تبتغ به طعمًا؟! وكان هو وأمه من المهاجرين الأولين، وكان أبوه مات وهو صغير، فكفله أبو بكر، لقرابة أم مسطح منه. شرح البخاري لابن بطال: (٨/ ٤٢).
ومسطح من أهل بدر، قال الذهبي في السير (١/ ١٨٨): «إياك يا جري أن تنظر إلى هذا البدري شزرًا لهفوة بدت منه، فإنها قد غفرت، وهو من أهل الجنة. وإياك يا رافضي أن تلوّح بقذف أم المؤمنين بعد نزول النص فتجب لك النار».

(٤) زينب بنت جحش الأسدية، أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة، وبسببها نزلت آية الحجاب.
وفي الصحيحين عن عائشة قال النبي ﷺ: «**أسرعكن لحاقًا بي أطولكم يدًا**»، =



أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي[١]، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي[٢] مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ[٣]. قَالَتْ: وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا[٤]، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ[٥].

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ، ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ، لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ[٦] أُنْثَى قَطُّ! قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ

=

فكانت أول نسائه لحوقًا به، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق. قال ابن عبد البر: كان اسمها برة، فلما دخلت على رسول الله سماها زينب. وانظر ترجمتها في: الاستيعاب ص: ١٨٤٩، والإصابة (٧/٦٦٧ ـ ٦٧٠).

(١) أحمي سمعي وبصري: أي أصونهما وأمنعهما من أن أنسب إليهما ما لم يدركاه، فلا أقول سمعت ولم أسمع، وأبصرت ولم أبصر.

(٢) تساميني: من المساماة، من السمو والعلو، أي أنها تطلب من السمو والعلو والحظوة مثل الذي أطلب. والمراد أي تفاخرني وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ، وتعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي عنده.

(٣) فعصمها الله بالورع: أي منعها به عما لا يحل.

(٤) أي تجادل لها، وتتعصّب، وتحكي ما قال أهل الإفك، لتنخفض منزلة عائشة وتعلو مرتبة أختها زينب.

(٥) قلت: وقد طهّرها الله بالحدّ، والتوبة تجبّ ما قبلها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٦) قوله: ما كشفت من كنف أنثى: الكنف: هو الستر ويراد به كذلك الجانب، والمراد: ما كشفت على امرأة ما سترته من نفسها، إشارة إلى التعفّف. ومنه ما جاء في حديث

=



فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَقَال البُخاري: حَدَّثَنَا مُوسَى بن إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مَسْرُوقُ بن الْأَجْدَعِ[١] قَالَ: حَدَّثَتْنِي أُمُّ رُومَانَ[٢] ـ وَهِيَ أُمُّ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ قَالَتْ: بَيْنَا أَنَا قَاعِدَةٌ أَنَا وَعَائِشَةُ، إِذْ

=

النجوى عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مرفوعًا: «**يدني الله عز وجلّ عبده يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه**» أي ستره. فالكنف عند الإطلاق هو الستر. قال ثابت: الكنف هاهنا هو الثوب الذي يكنفها، أي: يسترها، ومنه قولهم: هو في حفظ الله وكنفه. قال أبو حاتم: وبعض العرب يقول: أنت في كنفي. وكنفا الطائر: جناحاه. ذكره الخطابي.

وقيل: إنه كناية عن عدم جماع النساء جميعهن ومخالطتهن. قال الحافظ ـ وهو ابن حجر عند الإطلاق ـ:في رواية سعيد بن أبي هلال عن هشام بن عروة في قصة الإفك أن الرجل الذي قيل فيه ما قيل لما بلغه الحديث قال: والله ما أصبت امرأة قطّ حلالًا ولا حرامًا. وفي حديث ابن عباس عند الطبراني: وكان لا يقرب النساء. فالذي يظهر أن مراده بالنفي المذكور ما قبل هذه القصة، ولا مانع من أن يتزوج بعد ذلك، فهذا الجمع لا اعتراض عليه إلا بما جاء عن ابن إسحاق أنه كان حصورًا ـ أي لا يأتي النساء لنقص آلته ـ لكنه لم يثبت، فلا يعارض الحديث الصحيح.

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفي. تابعي فقيه ثبت، روى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاذ وعائشة وأمها أم رومان. وعنه الشعبي والنخعي ومكحول الشامي وأبو إسحاق السبيعي. توفي عام (٦٣)هـ. وانظر ترجمته في: تهذيب التهذيب: (١٠/١٠٩– ١١١) والتقريب: (٦٦٠١).

(٢) وقد تكلم الخطيب في سماع مسروق من أُمّ رومان واستبعده؛ لاعتماد الخطيب على

=

وَلجَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصارِ فَقالَتْ: فَعَلَ اللَّهُ بِفُلَانٍ وَفعَلَ[(١)]، فَقَالَتْ أُمُّ رُومَانَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: ابْنِي فِيمَنْ حَدَّثَ الْحَدِيثَ، قَالَتْ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: كَذَا وَكَذَا! قَالَتْ عَائِشَةُ: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: وَأَبُو بَكْرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَخَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا، فَمَا أَفَاقَتْ إِلَّا وَعَلَيْهَا حُمَّى بِنَافِضٍ، فَطَرَحْتُ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا فَغَطَّيْتُهَا[(٢)]. فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا شَأْنُ هَذِهِ؟**» قُلْتُ: يَا

=

رواية ضعيفة تفيد بوفاتها سنة تسع، وقد ردّ الحافظ ابن حجر ذلك، وأثبت أنها عُمّرت، ورجح أن مسروقاً سمع منها في خلافة عمر.

وانظر: فتح الباري (٧/٥٥٦ – ٥٥٧). زاد المعاد (٣/٢٦٦ – ٢٦٧)، الفجر الساطع على الصحيح الجامع (٣/ ١٠١).

(١) فعل الله بفلان: أي ولدها، ولم يُسمّ من الأنصار غير حسان وابن أبيّ، ولم تكن أميها على قيد الحياة حينها، إلا إن قصدت الرضاع ونحوه، ذكره القسطلّاني. وقال ابن حجر: ولم أقف على اسمه ولا على اسم أمه، وهي غير المرأة التي دخلت على عائشة وبكت معها، وطريق الجمع بين هذه الرواية وبين غيرها: أنها سمعت الخبر أولًا من أم مسطح، فسمعته منها أولًا مجملًا، ثم سمعته من أمّها كذلك، ثم أخبرتها الأنصارية بحضرة أمها، فحصل القطع بوقوع ذلك الحديث.

(٢) وفي رواية الأسود عن عائشة: فألقت على أمي كل ثوب في البيت.

قال البقاعي في نظم الدرر (٥/ ٢٤٢): واستمر أهل الإفك في هذا أكثر من شهر، والله تعالى عالم بما يقولون، وبأن قولهم يكاد يقطع أكباد أحب خلقه إليه، وهو قادر على تكذيبهم عند أول ما خاضوا فيه، ولكنه سبحانه أراد لناس رفعة الدرجات، ولآخرين الهلاك، فيا لله ما لقي النبي ﷺ والصديق وآله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكل من أحبهم، وهم خير الناس، والله سبحانه وتعالى يُملي للأفّاكين ويمهلهم، وكأن =

رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَتْهَا الْحُمَّى بِنَافِضٍ. قَالَ: «**فَلَعَلَّ فِي حَدِيثٍ تُحُدِّثَ بِهِ؟**» قَالَتْ: نَعَمْ. فَقَعَدَتْ عَائِشَةُ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَئِنْ حَلَفْتُ، لَا تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنْ قُلْتُ، لَا تَعْذِرُونِي، مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَيَعْقُوبَ وَبَنِيهِ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قَالَتْ: وَانْصَرَفَ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عُذْرَهَا. قَالَتْ: بِحَمْدِ اللَّهِ، لَا بِحَمْدِ أَحَدٍ، وَلَا بِحَمْدِكَ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٢- ١٣] وذَكَرَ حديثَ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[١].

=

الحال كما قال أبو تمام الطائي:

كـذا فليجـلّ الخَطـبُ وليفـدح الأمـرُ   فليس لعـينٍ لم يفـض ماؤها عـذرُ

(١) قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٢ – ١٩].

=

=

قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نظم الدرر: ولما أخبر سبحانه وتعالى بعقابهم، وكان من المؤمنين من سمعه فسكت، وفيهم من سمعه فتحدث به متعجباً من قائله، أو مستثبتاً في أمره، ومنهم من كذبه، أتبعه سبحانه بعتابهم، في أسلوب خطابهم، مثنياً على من كذّبه فقال مستأنفاً محرضاً: ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هلّا ولم لا، إذ سمعتموه، ولما كان هذا الإفك قد تمالأ عليه رجال ونساء قال: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منكم، والمؤمنات، وكان الأصل ظننتم، ولكنه التفت إلى الغيبة تنبيهاً على التوبيخ، وصرح بالنساء، ونبه على الوصف المقتضي لحسن الظن تخويفاً للذي ظن السوء من سوء الخاتمة: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ حقيقة خيراً، وهم دون من كذب عليها، فقطعوا ببراءتها لأن الإنسان لا يظن بالناس إلا ما هو متصف به أو بإخوانهم، لأن المؤمنين كالجسد الواحد، أو ظنوا ما يظن بالرجل لو خلا بأمه، وبالمرأة إذا خلت بابنها، فإن نساء النبي ﷺ أمهات المؤمنين ـ قلت: ولعل المراد وصف المؤمنين بالنفس الواحدة، ولها شواهد قرآنية كقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فسماها ذاتًا بالإفراد، مع أنهم لا يُحصون كثرة ـ.

﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ﴾ أي كذب عظيم ﴿مُّبِينٌ﴾أي واضح في نفسه، موضح لغيره، وبيانه وظهوره أن المرتاب يكاد يقول: خذوني، فهو يسعى في التستر جهده، فإتيان صفوان بعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا راكبة على جمله داخلاً به الجيش في نحر الظهيرة، والناس كلهم يشاهدون ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ينزل عليه الوحي، إدلالاً بحسن عمله، غافلاً عما يظن به أهل الريب، أدلّ دليل على البراءة وكذب القاذفين، ولقد عمل أبو أيوب الأنصاري وصاحبته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بما أشارت إليه هذه الآية.

ثم علّل سبحانه بيان كذب الآفكين بأن قال موبخاً لمن اختلقه وأذاعه، ملقّناً لمن ندبه على ظنّ الخير: ﴿لَّوْلَآ﴾ أي: هلا، ولم لا، ﴿جَآءُو﴾ أي: المفترون له أولاً

=

=

﴿عَلَيْهِ﴾ إن كانوا صادقين ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ فالقذف لا يباح إلا بها . ولما لم يأتوا بالشهداء كذّبهم فقال: ﴿فَإِذْ﴾ أي: فحين ﴿لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي الموصوفين ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: البعداء من الصواب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الملك الأعلى، بل وفي هذه الواقعة بخصوصها في علمه ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي الكذب العظيم ظاهراً وباطناً.

ولما بين لهم بإقامة الدليل على كذب الخائضين في هذا الكلام أنهم استحقوا الملام، وكان ذلك مرغباً لأهل التقوى، بين أنهم استحقوا بالتقصير في الإنكار عموم الانتقام في سياق مبشر بالعفو فقال عاطفاً على ﴿وَلَوْلَا﴾ الماضية ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: معاملته لكم بمزيد الإنعام اللازم للرحمة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بقبول التوبة، والمعاملة بالحلم ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالعفو عمن يريد أن يعفو عنه منكم ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي عاجلاً ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ أي اندفعتم على أي وجه كان ﴿فِيهِ﴾ بعضكم بالقول، وبعضكم بعدم الإنكار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي يحتقر معه اللوم والجلد، بأن يهلَكَ فيتّصل به عذاب الآخرة؛ ثم بين وقت حلوله وزمان تعجيله بقوله: ﴿إِذْ﴾أي مسكم حين ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ أي تجتهدون في تلقّي قبول هذا الكلام الفاحش وإلقائه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ بإشاعة البعض، وسؤال آخرين، وسكوت آخرين ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ تصوير لمزيد قبحه، وإشارة إلى أنه قولٌ لا حقيقة له، فلا يمكن ارتسامه في القلب بنوع دليل؛ وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي بوجه من الوجوه، وتنكيره للتحقير ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ بدليل سكوتكم عن إنكاره ﴿هَيِّنًا وَهُوَ﴾ أي والحال أنه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي لا يبلغ أحد مقدار عظمته ﴿عَظِيمٌ﴾ أي في حدّ ذاته، ولو كان في غير أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، فكيف وهو في جنابها المصون،

=

=

وهي زوجة خاتم الأنبياء وإمام المرسلين عليه أفضل الصلاة وأفضل التسليم؟!

ولما بين فحشه وشناعته، وقبحه وفظاعته، عطف على التأديب الأول في قوله: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ تأديباً فقال: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم﴾ أي حين سماعه من غير توقف ولا تلعثم، وفصل بين آلة التحضيض والقول المحضّض عليه بالظرف؛ لأن الظروف تنزل من الشيء منزلة نفسه لوقوعه فيها، وأنها لا انفكاك لها عنه، ولأن ذكره منبه على الاهتمام به، لوجوب المبادرة على المحضض عليه: ﴿مَّا يَكُونُ﴾ أي ما ينبغي وما يصح ﴿لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي بمثله في حق أدنى الناس، فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة أكمل الخلق، تعجباً من أن يخطر بالبال، في حال من الأحوال.

ولما كان تنزيه الله تعالى في مثل ذلك وإن كان للتعجب، إشارة إلى تنزيه المقام الذي وقع فيه التعجب تنزيهًا عظيماً؛ حسن أن يوصل بذلك قوله تعليلاً للتعجب والنفي: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ﴾ أي كذب يبهت من يواجه به، ويحيره لشدة ما يفعل في القوى الباطنة، لأنه في غاية الغفلة عنه، لكونه أبعد الناس منه؛ ثم هوّله بقوله: ﴿عَظِيمٞ﴾ والمراد: أن الذي ينبغي للإنسان أولاً أن لا يظن بإخوانه المؤمنين ولا يسمع فيهم إلا خيراً، فإن غلبه الشيطان وارتسم شيء من ذلك في ذهنه فلا يتكلم به، بل يبادر إلى تكذيبه.

ولمّا كان هذا كله وعظاً لهم واستصلاحاً، أردفه بقوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي ما دمتم أهلاً لسماع هذا القول، فقد عظّم هذا الوعظ، وألهب سامعه بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي متصفين بالإيمان، راسخين فيه، فإنكم لا تعودون، فإن عدتم فأنتم غير صادقين في دعواكم الاتصاف به ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ أي بما له من الاتصاف بصفات الجلال والإكرام ﴿لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي العلامات الموضحة للحق والباطل من كل أمر ديني أو دنيوي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فثقوا ببيانه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا

=

=

يضع شيئاً إلا في أَحْكَمِ مواضعه وإن دقَّ عليكم فهم ذلك، فلا تتوقفوا في أمر من أوامره، واعلموا أنه لم يختر لنبيه عليه الصلاة والسلام إلا الخُلَّصَ من عباده، على حسب منازلهم عنده، وقربهم من قلبه.

ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب، أدبهم تأديباً ثالثاً أشد من الأوليين، فقال واعظاً ومقبّحاً لحال الخائضين في الإفك ومحذراً ومهدداً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ عبّر بالحب إشارة إلى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته إلا محب له، ولا يحبه إلا بعيد عن الاستقامة ﴿أَن تَشِيعَ﴾ أي تنتشر بالقول أو بالفعل ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي الفعلة الكبيرة القبح ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان، فكيف بمن تسنّم ذروته، وتبوّأ غايته؟! ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ردعاً لهم عن إرادة إشاعة مثل ذلك، لما فيه من عظيم الأذى ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالحد وغيره مما ينتقم الله منهم به ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فإن الله يعلم هل كفّر الحدُّ عنهم جميع مرتكبهم أم لا؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي له العلم التام، فهو يعلم مقادير الأشياء ما ظهر منها وما بطن، وما الحكمة في ستره أو إظهاره أو غير ذلك من جميع الأمور ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ليس لكم علم من أنفسكم، فاعلموا بما علمكم الله، ولا تتجاوزوه تضلوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإنه سبحانه لمّا ختم بالحكم عليهم بالجهل، وكان التقدير كما أرشد إليه ما يأتي

=

=

من العطف على غير معطوف: فلولا فضل الله عليكم ورحمته بكم لعجّل هلاك المحبين لشيوع ذلك بعذاب الدنيا، ليكون موصولاً بعذاب الآخرة؛ عطف عليه قولَهُ مكرراً التذكير بالمِّنَّة بترك المعاجلة حاذفاً الجواب، منبهاً بالتكرير والحذف إلى قوة المبالغة وشدة التهويل: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ أي ولولا أن الله الذي له القدرة التامة، فسبقت رحمته غضبه ﴿رَءُوفٌ﴾ بكم في نصب ما يزيل جهلكم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الحدود الزاجرة عن الجهل، الحاملة على التقوى، التي هي ثمرة العلم، ﴿رَّحِيمٌ ﴾ بما يثبت لكم من الدرجات على ما منحكم به من ثمرات ذلك الحفظ من الأعمال المرضية، والجواب محذوف تقديره: لتركَكم في ظلمات الجهل تعمهون، فثارت بينكم الفتن حتى تفانيكم، ووصلتم إلى العذاب الدائم بعد الهم اللازم.

ولما أخبرهم بأنه ما أنزل لهم هذا الشرع على لسان هذا الرسول الرؤوف الرحيم إلا رحمة لهم، بعد أن حذرهم موارد الجهل، نهاهم عن التمادي فيه، في سياق معلم أن الداعي إليه الشيطان العدو، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي لا تقتدوا به، ولا تسلكوا مسالكه التي يحمل على سلوكها بتزيينها في شيء من الأشياء، وكأنه أشار بصيغة الافتعال إلى العفو عن الهفوات.

ولما كان التقدير: فإنه من يتنكّب عن طريقه يأت بالحسنى والمعروف، عطف عليه قوله: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ أي بعزم ثابت من غير أن يكون مخطئاً أو ناسياً؛ وأظهر ولم يضمر لزيادة التنفير فقال: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي ويقتد به يقع في مهاوي الجهل الناشئ عنها كل شر ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما لم يجوزه الشرع، فهو أولاً يقصد أعلى الضلال، فإن لم يصل تنزّل إلى أدناه، وربما درج بغير ذلك، ومن المعلوم أن من اتبع مَنْ هذا سبيلُه عَمِلَ بعمله، فصار في غاية السفول،
=





=

وهذا الإظهار أشد في التنفير من الإضمار بإعادة الضمير.

ولما كان التقدير: فلولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان مع أمره بالقبائح، عطف عليه قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي بتطهير نفوسكم ورفعها من الدنايا إلى المعالي ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لكم بإكرامكم ورفعتكم بشرع التوبة المكفرة لما جرّ إليه الجهل من ناقص الأقوال وسفاف الأفعال ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ أي طهر ونما، وأكّد الاستغراق بقوله: ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ وعمّ الزمان بقوله: ﴿أَبَدًا﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، من جميع أدناس نفسه وأمراض قلبه، وإن كان العباد وأخلاقهم في الانتشار والكثرة بحيث لا يحصيهم غيره، فلذلك زكّى منكم من شاء فصانه عن هذا الإفك، وخذل من شاء.

ثم ختم الآية بما لا تصح التزكية بدونه فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿سَمِيعٌ﴾ أي لجميع أقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يخطر في بالهم، وينشأ عن أحوالهم وأفعالهم، فهو خبير بمن هو أهل للتزكية ومن ليس بأهل لها، فاشكروا الله على تزكيته لكم من الخوض في مثل ما خاض فيه غيركم ممن خذله نوعاً من الخذلان، واصبروا على ذلك منهم، ولا تقطعوا إحسانكم عنهم، فإن ذلك يكون زيادة في زكاتكم، وسبباً لإقبال من علم فيه الخير منهم، فقبلت توبته، وغسلت حوبته، وهذا المراد من قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي يحلف مبالغاً في اليمين ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ الذين جعلتهم بما آتيتهم من العلم والأخلاق الصالحة أهلاً لبرّ غيرهم ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ أي بما أوسعت عليهم في دنياهم.

ولما كان السياق والسباق واللحاق موضحاً للمراد؛ لم يحتج إلى ذكره أداة النفي فقال: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ ثم ذكر الصفات المقتضية للإحسان فقال: ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾

=

=

وعددها بأداة العطف تكثيراً لها وتعظيماً لأمرها، وإشارة إلى أن صفة منها كافية في الإحسان، فكيف إذا اجتمعت؟! فقال سبحانه: ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾أي الذين لا يجدون ما يغنيهم وإن لم تكن لهم قرابة ﴿وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ لأهلهم وديارهم وأموالهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ أي الذي عم الخلائق بجوده لما له من الإحاطة بالجلال والإكرام، فهم وإن انتفى عنهم الوصفان الأولان فإن هذه الصفات مؤذنة بأنهم ممن زكى الله، وتعدادها بجعلها علّة للعفو دليل على أن الزاكي من غير المعصومين قد يزل، فتدركه الزكاة بالتوبة فيرجع كما كان، وقد تكون الثلاثة لموصوف واحد، لأن سبب نزولها مسطح رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فالعطف إذن للتمكن في كل وصف منها.

ولما كان النهي عن ذلك غير صريح في العفو، وكان التقدير: فليؤتوهم، عطف عليه مصرحاً بالمقصود قوله: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ﴾ أي عن زللهم بأن يمحوه ويغطوه بما يسلبونه عليه من أستار الحلم حتى لا يبقى له أثر. ولما كان المحو لا ينفي التذكر قال: ﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ أي يعرضوا عنه أصلاً ورأساً، فلا يخطروه لهم على بال ليثمر ذلك الإحسان، ومنه الصفوح، وهو الكريم.

ولما كانت لذة الخطاب تنسي كل عتاب، أقبل سبحانه بفضله ومنّه وطوله على أولي الفضل، مرغباً في أن يفعلوا بغيرهم ما يحبون أن يفعل بهم، مرهباً من أن يشدد عليهم إن شددوا فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾أي يا أولي الفضل ﴿أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ أي ما قصرتم في حقه. وناهيك بشهادة الله جل جلاله للصديق بأنه من أولي الفضل فيا له من شرف ما أجلاه، ومن سؤدد وفخار ما أعلاه، ولا سيّما وقد صدّقه رضي الله عنه بالعفو عمن شنّع على ثمرة فؤاده، ومهجة كبده، وهي أنه لا يقطع النفقة عنه أبداً، فيا لله من أخلاق ما أبهاها، وشمائل ما أطهرها وأزكاها، وأشرفها وأسناها.

ولما كان الجواب قطعاً كما أجاب الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: بلى والله إنا لنحب أن يغفر الله

=

=

لنا، وكان كأنه قيل: فاغفروا لمن أساء إليكم، فالله حكم عدل، يجازيهم على إساءتهم إليكم إن شاء، والله عليم شكور، يشكر لكم ما صنعتم إليهم، عطف عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ ومن صفته ذلك، إن شاء يغفر لكم ذنوبكم بأن يمحوها فلا يدع لها أثراً، ويرحمكم بعد محوها بالفضل عليكم كما فعلتم معهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٣- ٢٥]

ولما كان الختم بهذين الوصفين بعد الأمر بالعفو ربما جرّأ على مثل هذه الإساءة، وصل به مرهّباً من الوقوع في مثل ذلك قوله معمماً للحكم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾ أي بالفاحشة ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ أي اللائي جعلن أنفسهن من العفة في مثل الحصن. ولما كان الهام بالسيئ والمقدم عليه عالماً بما يرمي به منه، جاعلاً له نصب عينيه، أكد معنى الإحصان بقوله: ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ أي عن السوء حتى عن مجرد ذكره. ولما كان وصف الإيمان حاملاً على كل خير ومانعاً ن كل سوء، نبه على أن الحامل على الوصفين المتقدمين إنما هو التقوى، وصرف ما لهن من الفطنة إلى ما لله عليهن من الحقوق فقال: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾. ولما ثبت بهذه الأوصاف البعد عن السوء، ذكر جزاء القاذف كفّاً وتحذيراً منه بصيغة المجهول، لأن المحذور اللعن لا كونه المعين، وتنبيهاً على وقوع اللعن من كل من يأتي منه فقال: ﴿لُعِنُواْ﴾ أي أبعدوا عن رحمة الله، وفعل معهم فعل المبعد من الحد وغيره ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ثم زاد في تعظيم القذف لمن هذه أوصافها فقال: ﴿وَلَهُمۡ﴾ أي في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ وقيّد بوصف الإيمان، لأن قذف الكافرة وإن كان محرماً ليس فيه هذا المجموع، وهذا

=

=

الحكم وإن كان عاماً فهو لأجل الصدّيقة بالذّات وبالقصد الأول، وفيما فيه من التشديد الذي قلّ أن يوجد مثله في القرآن، من الإعلام بعَلِيِّ قدرها، وجليِّ أمرِها، في عظيم فخرها، ما يجل عن الوصف.

ثم أتبع ذلك ذكر اليوم الذي يكون فيه أثر ذلك على وجه زاد الأمر عظماً فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يوم القيامة في ذلك المجمع العظيم ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ إن أنكرت ألسنتهم كذباً وفجوراً ظناً أن الكذب ينفعها ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من هذا القذف وغيره؛ ثم زاد في التهويل بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي إذ تشهد عليهم هذه الجوارح ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة، وله الكمال كله ﴿دِينَهُمُ﴾ أي جزاءهم ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي الذي يظهر لكل أحد من أهل ذلك المجمع العظيم أنهم يستحقونه، فلا يقدر أحد على نوع طعن فيه ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ أي إذ ذاك، لانقطاع الأسباب، ورفع كل حجاب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ أي وحده ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي الثابت أمره فلا أمر لأحد سواه ـ الذي لا يستحق العبادة سواه ـ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ الذي لا أوضح من شأنه في ألوهيته وعلمه وقدرته وتفرده بجميع صفات الكمال، وتنزهه عن جميع سمات النقص، فيندمون عل ما فعلوا في الدنيا مما يقدح في المراقبة وتجري عليه الغفلة. قال ابن كثير: وأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، لا سيّما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سبّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية؛ فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وفي بقيّة أمهات المؤمنين رضي الله عنهن قولان أصحهما أنهن كهي، والله أعلم. انتهى.

وقد علم من هذه الآيات وما سبقها من أول السورة وما لحقها إلى آخرها أن الله تعالى ما غلّظ في شيء من المعاصي ما غلّظ في قصة الإفك، ولا توعّد في شيء ما توعد

=



=

فيها، وأكّد وبشّع، ووبّخ وقرّع، كل ذلك إظهاراً لشرف رسوله ﷺ، وغضباً له، وإعظاماً لحرمته، وصوناً لحجابه.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] فلما تضمن ما ذكر من وصفه تعالى علمه بالخفيات، أتبعه ما هو كالعلة لآية ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ دليلاً شهودياً على براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ أي من النساء، وقدم هذا الوصف لأن كلامهم فيه، فإذا انتفى ثبت الطيب ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ أي من الرجال. ولما كان ذلك لا يفهم أن الخبيث مقصور على الخبيثة قال: ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ أي من الرجال أيضاً ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ أي من النساء. ولما أنتج هذا براءتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنها قرينة أطيب الخلق، أكّده بقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ بذلك قضى العليم الخبير أن كل شكل ينضم إلى شكله، ويفعل أفعال مثله، وهو سبحانه قد اختار لهذا النبي الكريم لكونه أشرف خلقه خلّص عباده من الأزواج والأولاد والأصحاب ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] «**خيركم قرني**» وكلما ازداد الإنسان منهم من قبله ﷺ قرباً ازداد طهارة، وكفى بهذا البرهان دليلاً على براءة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكيف وقد أنزل الله العظيم في براءتها صريح كلامه، وحاطه من أوله وآخره بهاتين الآيتين المشيرتين إلى الدليل العادي، وقد خرّج مسلم في الأدب من صحيحه وأبو داود في سننه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**» وفي رواية عنه رفعها: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**» ولفظ

=



وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: بَاب قَوْلِهِ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «تَلَقَّوْنَهُ» يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، «تُفِيضُونَ» تَقُولُونَ(١). حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا

= حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**فإذا التقت تشامّ كما تشامّ الخيل، فما تعارف منها ائتلف..**».

وأنشدوا لأبي نُوَاس في المعنى:

إن القلـــوب لأجنــــاد مجنـــدةٌ ... لله في الأرض بـــالأهواء تعـــترفُ

فـــما تعـــارف منهـــا فهـــو مؤتلـــف ... ومـــا تنـــاكر منهـــا فهـــو مختلـــف

ولما ثبت هذا كانت نتيجته قطعاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي العالو الأوصاف بالطهارة والطيب ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ ببراءة الله، وبراءة كل من له تأمل في مثل هذا الدليل ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي القَذَفَةِ الأخابث، لأنها لا تكون زوجة أطيب الطيبين إلا وهي كذلك. ولما أثبت لهم البراءة، استأنف الإخبار بجزائهم فقال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فالله عز وجل قد كسا عائشة من الشرف ما كساها، وحلاها برونقه من مزايا الفضل ما حلاها، رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وأرضاها. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، مختصرًا (٥/٢٣٥ ـ ٢٤٨)

(١) قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يتحدث به ويلقيه بين الناس حتى ينتشر. والثاني: أن يتلقاه بالقبول إذا حُدِّثَ به ولا ينكره. وحكى ابن أبي مليكة أنه سمع عائشة تقرأ: إذ تلِقونه، بكسر اللام مخففة، وفي تأويل هذه القراءة وجهان: أحدهما: ترددونه، قاله اليزيدي. الثاني: تسرعون في الكذب وغيره. =



=

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هذا بيان لسبب العذاب، وهو تلقي الباطل بالألسنة، والقول بالأفواه، وهما نوعان محرمان: القول بالباطل والقول بلا علم. ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فالأول تحضيض على الظن الحسن، وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف، ففي الأول قوله: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ويقول النبي ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**» وكذا قوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ دليل على حسن مثل هذا الظن الذي أمر الله به، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لعائشة: «**ما أظن فلانًا وفلانًا يدريان من أمرنا هذا شيئًا**» فهذا يقتضي جواز بعض الظن كما احتج البخاري بذلك؛ لكن مع العلم بما عليه المرء المسلم من الإيمان الوازع له عن فعل الفاحشة يجب أن يظن به الخير دون الشر. وفي الآية نهي عن تلقّي مثل هذا باللسان، ونهي عن أن يقول الإنسان ما ليس له به علم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ والله تعالى جعل في فعل الفاحشة والقذف من العقوبة ما لم يجعله في شيء من المعاصي؛ لأنه جعل فيها الرجم، وقد رجم هو تعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة اللواط، وجعل العقوبة على القذف بها ثمانين جلدة، والرمي بغيرها فيه الاجتهاد، ويجوز عند بعض العلماء أن يبلغ الثمانين عند كثير منهم كما قال عليّ: لا أُوتى بأحد يفضّلني على أبي بكر وعمر إلّا جلدته حدّ المفتري. وكما قال عبد الرحمن بن عوف: إذا شرب هَذَى، وإذا هذى افترى، وحدّ الشرب ثمانون، وحدّ المفتري ثمانون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى

=

=

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ الآية، وهذا ذم لمن يحبُّ ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة أو يخبر بها محبّةً لوقوعها في المؤمنين: إما حسدًا، أو بغضًا، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها، وكلاهما محبة للفاحشة وبغضًا للذين آمنوا فكل من أحب فعلها ذكرها. وكره العلماء الغزل من الشعر الذي يُرغّبُ فيها، وكذلك ذكرها غيبة محرمة، سواء كان بنظم أو نثر، وكذلك التشبه بمن يفعلها منهي عنه، مثل الأمر بها؛ فإن الفعل يطلب بالأمر تارة، وبالإخبار تارة، فهذان الأمران للفجرة الزناة اللوطية مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين للمؤمنين، أولئك يعتبرون من الغيرة بهم، وهؤلاء يعتبرون من الاغترار؛ فإن أهل الكفر والفسوق والعصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به لهم فيهم قدوة وأسوة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ قيل: أراد الغناء، وقيل أراد قصص الملوك من الكفار من الفرس. وبالجملة كل ما رغب النفوس في طاعة الله ونهاها عن معصيته من خبر أو أمر فهو من طاعته، وكل ما رغبها في معصيته ونهى عن طاعته فهو من معصيته، فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة، مثل النهي عنها وعنهم، والذم لها ولهم، وذكر ما يبغّضها وينفّر عنها، وذكر أهلها مطلقًا حيث يسوغ ذلك، وما يشرع لهم من الذم في وجوههم ومغيبهم؛ فهذا كله حسن، يجب تارة، ويستحب أخرى، وكذلك ما يدخل فيها من وصفها ووصف أهلها من العشق على الوجه المشروع الذي يوجب الانتهاء عما نهى الله عنه والبغض لما يبغضه. وهذا كما أن الله قص علينا في القرآن قصص الأنبياء والمؤمنين والمتقين وقصص الفجار والكفار لنعتبر بالأمرين: فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم، ونبغض الآخرين وسبيلهم ونجتنب فعالهم.

=



سُلَيْمَانُ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ أُمِّ رُومَانَ أُمِّ عَائِشَةَ أَنَّهَا

=

وقد ذكر الله عن أنبيائه وعباده الصالحين من ذكر الفاحشة وعلائقها على وجه الذم ما فيه عبرة قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى آخر القصة في مواضع من كتابه. فهذا لوط خاطب أهل الفاحشة وهو رسول الله بتقريعهم بها بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهذا استفهام إنكار، ونهي إنكار، ذمٌّ ونهي، كالرجل يقول للرجل: أتفعل كذا وكذا؟ أما تتقي الله؟

ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ وهذا استفهام ثان فيه من الذم والتوبيخ ما فيه، وليس هذا من باب القذف واللمز. وكذلك قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة، فقد واجههم بذمهم وتوبيخهم على فعل الفاحشة، ثم إن أهل الفاحشة توعدوهم وتهددوهم بإخراجهم من القرية، وهذا حال أهل الفجور إذا كان بينهم من ينهاهم طلبوا نفيه وإخراجه، وقد عاقب الله أهل الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى؛ حيث أمر بنفي الزاني ونفي المخنّث، فمضت سنة رسول الله ﷺ بنفي هذا وهذا، وهو سبحانه أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب. وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وما ذكره بعد ذلك فمن كلام يوسف من قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وهذا من باب الاعتبار الذي يوجب انتهار النفوس عن معصية الله، والتمسك بالتقوى، وكذلك ما بينه في آخر السورة بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. مجموع الفتاوى(١٥/ ٣٣١-٣٣٧) باختصار.



قَالَتْ: لَمَّا رُمِيَتْ عَائِشَةُ؛ خَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا.

وقال: بَاب ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عُمَرَ بن سَعِيدِ بن أَبِي حُسَيْنٍ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ. فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ. فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنْ اتَّقَيْتُ. قَالَ: فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنْ السَّمَاءِ.

وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلَافَهُ فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا(١).

---

(١) وفي روايات أخرى: فقال لها عبد الله: يا أمتاه، إن ابن عباس من صالح بيتك، يسلّم عليك ويودعك، قالت: ائذن له إن شئت. فقال: كيف تجدينك؟ قالت بخير إن اتّقيت الله، فلما جلس قال: أبشري يا أم المؤمنين، تقدمين على فَرَطِ صِدْقٍ، وتقدمين على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر، وما بينك وبين أن تلقى محمدًا والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، فأنت بخير إن شاء الله تعالى، زوجة رسول الله ﷺ، ولم ينكح بكرًا غيرك، كنت أحب نساء رسول الله ﷺ، ولم يكن يحب إلا طيّبًا، ونزل عذرك من السماء. وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات، جاء به الروح الأمين، فليس في الأرض مسجد إلا وهو يتلى فيه أناء الليل وأطراف النهار، =

=

وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فنزل التيمّم، فوالله إنك لمباركة، إنما سميت أم المؤمنين لتسعدي، وإنه لاسمك قبل أن تولدي. عن الفتح باختصار الروايات وإدماجها. وفي هذه القصة دلالة على سعة علم ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وعظيم منزلته بين الصحابة والتابعين، وتواضع عائشة وفضلها وتشديدها في أمر دينها، وأن الصحابة كانوا لا يدخلون على أمهات المؤمنين إلا بإذن، والتنبيه على رعاية جانب الأكابر من أهل العلم والدين، وأن لا يترك ما يستحقونه من ذلك لمعارض دون ذلك في المصلحة. فتح الباري: (٨/ ٤٨٥) ولْنقف مع أُمّنا الطاهرة قليلًا:

وهيَ عائشة بنت أبي بكر الصديق، أم المؤمنين، الصديقة المبرأة من كل عيب، حبيبة رسول الله ﷺ، الفقيهة الربانية، وكنيتها أم عبد الله، كناها النبي ﷺ بابن أختها عبد الله بن الزبير. حينما استأذنته في الكنية فقال: «**اكتني بابنك عبد الله بن الزبير**» يعني ابن أختها. روت عن النبي ﷺ فأكثرت، روى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين، منهم مسروق والأسود وابن المسيب وعروة والقاسم وأبو سلمة وعمر، وولدت سنة أربع من النبوة، وتزوجها النبي ﷺ بعد موت خديجة بثلاث سنين وهي بنت سبع أو ست. وفي صحيح مسلم من حديثها: «تزوجها وهي بنت ست، وبنى بها وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثماني عشرة» وله أيضًا: «تزوجها وهي بنت سبع سنين» دخل بها في السنة الثانية من الهجرة في شوال، ومناقبها جمة منها نزول القرآن ببراءتها.

وفي الصحيحين من حديث أنس وأبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «**فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام**».

وفي الصحيحين من حديثها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة هذا**

=

=

جبريل يُقرئك السلام» قالت: فقلت: عليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى.

ولهما عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أُرِيتُكِ في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملك في سَرَقَةٍ من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي، فأقول إن يك من عند الله يُمْضِهِ**» وعند الترمذي وحسّنه بسنده عنها: أنّ جبريل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال: «**هذه زوجتك في الدنيا والآخرة**».

وأخرج البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله، لو نزلت وادياً فيه شجرة ً قد أُكِلَ منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «**في التي لم يرتع منها**» تعني أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبَى**» فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «**أمّا إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا، ورب محمد، وإذا كنت غضبى، قلتِ: لا، ورب إبراهيم**» قالت: قلتُ: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك. وللترمذي وصحّحه من حديث عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**» قلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**» قلت: وتأمّل كيف نسبَ أباها إليها لعظيم محبته لها صلوات الله وسلامه عليه.

وفي الصحيحين عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش، انقطع عقدي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، فأتى الناس أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقالوا: ما ترى ما

=

=

صنعت عائشة، أقامت برسول الله وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت: فعاتبني أبو بكر، فقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان النبي ﷺ على فخذي. فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا. فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. وفي المسند بزيادة: قالت: يقول أبي حين جاء من الله من الرخصة للمسلمين: والله ما علمت يا بنية إنك لمباركة، ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليسر.

وعند أبو داود والنسائي بسند جيد عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: استأذن أبو بكر على النبي ﷺ، فإذا عائشة ترفع صوتها عليه، فقال: يا بنت فلانة، ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ! فحال النبي ﷺ بينه وبينها. ثم خرج أبو بكر، فجعل النبي ﷺ يترضاها، وقال: «**ألم تريني حلت بين الرجل وبينك**» ثم استأذن أبو بكر مرّة أخرى، فسمع تضاحكهما، فقال: أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما.

وفي الصحيحين في ذكر خبر أم زرع، عن عروة عن عائشة...وفيه بعد أن ذكرت المرأة الحادية عشرة أوصاف زوجها...قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: «**كنت لك كأبي زرع لأم زرع**» أي في الألفة والوفاء.

وروى مسلمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن نساء النبي ﷺ كُنَّ حزبين: فحزبٌ فيه عائشة وحفصة وصفيّة وسَوْدَةُ، والحزب الآخر: أم سلمة وسائر أزواج النبي ﷺ. وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هديةٌ يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخّرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة،

=



=

فكلّم حزب أمُّ سلمة أمَّ سلمة فقلن: كلّمي رسول الله ﷺ يكلم الناس فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ هديةً فليهد إليه حيث كان من نسائه. فكلّمته أم سلمة بما قلن، فلم يقل لها شيئاً. فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن لها: كلّميه، فكلمته حين دار إليها أيضاً ولم يقل لها شيئاً، فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً، فقلن لها: كلميه حتى يكلّمك، فدار إليها فكلّمته فقال لها: لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة. قالت: فقلت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله.

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأرسلنها إلى رسول الله تقول: إن نساءك يسألنك العدل في بنت أبي بكر، فاستأذنت عليه وهو مضطجع في مرطي، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت عائشة: وأنا ساكتة، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أي بنية ألست تحبين ما أحب؟**» فقالت: بلى، قال: «**فأحبّي هذه**» قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ، فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً.

قالت عائشة فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأةً قطّ خيراً في الدين من زينب، أتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقةً، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله، ما عدا سَوْرَةٌ من حدّةٍ كان فيها تسرع منه الفيئة، قالت: فاستأذنت على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ

=



=

مع عائشة في مرطها على الحال التي دخلت فاطمة عليها وهو بها، فأذن لها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت: ثم وَقَعَتْ بي، فاستطالت عليّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طَرْفَهُ هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تبرحْ زينبُ حتى عرفتُ أنّ رسول الله ﷺ لا يكرَهُ أن أنتصر، قالت: فلما وقعتُ بها لم أنشبها حتى أثخنتُ عليها، فقال رسول الله ﷺ وتبسّمْ: «**إنها ابنة أبي بكر**».

ولمسلم عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان إذا خرج، أقرع بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان إذا كان بالليل، سار مع عائشة يتحدث. فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري، وأركب بعيرك تنظرين وأنظر. فقالت: بلى. فركبت. فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة، وعليه حفصة، فسلم عليها، ثم سار حتى نزلوا، وافتقدته عائشة. فلما نزلوا، جعلت رجليها بين الإذخر وتقول: يا ربّ، سلط علي عقربًا أو حية تلدغني، رسولك، ولا أستطيع أن أقول له شيئًا. وفي هذا بيان منزلتها من قلب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وكيف كان يخصّها دون غيرها.

وروى أحمد وأصله في الصحيحين عن بن أبي مليكة، قال: قالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي وليلتي، وبين سحري ونحري. ودخل عبدالرحمن بن أبي بكر، ومعه سواك رطب، فنظر إليه، حتى ظننت أنه يريده، فأخذته، فمضغته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إليه، فاستن به كأحسن ما رأيته مستنًّا قط: ثم ذهب يرفعه إلي، فسقطت يده، فأخذت أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل، وكان هو يدعو به إذا مرض، فلم يدع به في مرضه ذاك. فرفع بصره إلى السماء وقال: «**الرفيق الأعلى**» وفاضت نفسه. فالحمد لله الذي جمع بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا . والسحر: الرئة، والنحر: أعلى الصدر، ومعنى استن:

=



=

استاك.

وأخرج الحاكم في مستدركه بسنده ووافقه الذهبي عن عائشة: أن رسول الله ﷺ ذكر فاطمة. قالت: فتكلمت أنا. فقال: «**أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة**» قلت: بلى والله، قال: «**فأنت زوجتي في الدنيا والآخرة**».

وله كذلك ووافقه عن عبدالرحمن بن الضحاك: أن عبد الله بن صفوان أتى عائشة، فقالت: لي خلال تسع، لم تكن لأحد، إلا ما آتى الله مريم عليها السلام. والله ما أقول هذا فخرًا على صواحباتي. فقال ابن صفوان: وما هن؟ قالت: جاء الملك بصورتي إلى رسول الله، فتزوجني: وتزوجني بكرًا: وكان يأتيه الوحي، وأنا وهو في لحاف: وكنت من أحبّ الناس إليه: ونزل في آيات كادت الأمّة تهلك فيها: ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيرى: وقُبض في بيتي، لم يله أحد غير الملك إلا أنا.

وأجمل بالمديحة الحسّانيّة حين قال شاعر الإسلام، وصدق:

رأيتُـكِ ولْيَغْفِـرْ لـك الله حـرَّةً   مـن المحصـنات غـير ذات غوائـلِ
حَصَـانٌ رَزَانٌ مـا تُـزَنُّ بريبـةٍ   وتصـبحُ غرثـى مـن لحـومِ الغوافـلِ

وللترمذي وصحّحه عن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قطّ، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا.

وله وحسّنه أن رجلا نال من عائشة عند عمّار فقال: اغرب مقبوحًا منبوحًا، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ؟! والمنبوح هو الذي يضرب له مَثَلُ الكلب.

وله وصحّحه عن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة. وقال معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: والله ما سمعت خطيبًا ليس رسول الله ﷺ أبلغُ من عائشة.

وقال مسروق: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن

=



=

الفرائض. وكان مسروق إذا حدث عن عائشة قال: حدثتني الصديقة ابنة الصديق، البريئة المبرأة من فوق سابع سماء. وقال عطاء بن أبي رباح: كانت أفقه الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامّة. وقال عروة: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطبّ ولا بشعر من عائشة، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا. وقال الزهري: لو جُمِعَ علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ وعلمِ جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل. وعن هشام، عن أبيه، قال: لقد صحبت عائشة ـ وكانت خالته ـ، فما رأيت أحدًا قط كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا طب، منها. وعن عروة قال: ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتًا وأكثر. وعن الأحنف، قال: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء بعدهم، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة. وقال موسى بن طلحة: ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة. وعن الشعبي: أن عائشة قالت: رويت للبيد نحوًا من ألف بيت، وكان الشعبي يذكرها، فيتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة؟!

وعن هشام بن عروة، عن أبيه: أنها أنشدت بيت لبيد:

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم وبقيتُ في خُلْفٍ كجلد الأجربِ

فقالت: رحم الله لبيدًا، فكيف لو رأى زماننا هذا؟! قال عروة: رحم الله أم المؤمنين، فكيف لو أدركت زماننا هذا؟! قال هشام: رحم الله أبي، فكيف لو رأى زماننا هذا؟! قلت: رحمهم الله، فكيف لو أدركوا زماننا هذا؟!

والأكناف: الجوانب والنواحي، والخُلْفُ: ما جاء من بعد، يقال: هو خلْف سوء من أبيه بتسكين اللام، وخلَف صدق من أبيه بتحريكها: إذا قام مقامه.

=



=

وعن الشعبي قال: قيل لعائشة: يا أم المؤمنين، هذا القرآن تلقيته عن رسول الله ﷺ، وكذلك الحلال والحرام: وهذا الشعر والنسب والأخبار سمعتها من أبيك وغيره: فما بال الطب؟ قالت: كانت الوفود تأتي رسول الله ﷺ، فلا يزال الرجل يشكو علّة، فيسأله عن دوائها، فيخبره بذلك، فحفظت ما كان يصفه لهم وفهمته.

وبلغ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن عبد الله بن الزبير كان في دار لها باعتها بمئة ألف، ثم قسمت الثمن، فتسخط عبد الله بيع تلك الدار، فقال: أما والله لتنتهين عائشة عن بيع رباعها، أو لأحجرنّ عليها. قالت عائشة: أو قال ذلك؟ قالوا: قد كان ذلك. قالت: لله علي ألا أكلمه، حتى يفرّق بيني وبينه الموت. فطالت هجرتها إياه، فنقصه الله بذلك في أمره كله. فاستشفع بكل أحد يرى أنه يثقل عليها، فأبت أن تكلمه. فلما طال ذلك، كلّمَ المسور بن مخرمة، و عبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، أن يشملاه بأرديتهما ثم يستأذنا، فإذا أذنت لهما، قالا: كلنا؟ حتى يُدخلاه على خالته عائشة، ففعلا ذلك. فقالت: نعم كلكم، فليدخل. ولا تشعر. فدخل معهما ابن الزبير، فكشف الستر، فاعتنقها، وبكى، وبكت عائشة بكاء كثيرًا، وناشدها ابن الزبير اللهَ والرحمَ، ونشدها مسور وعبد الرحمن بالله والرحم، وذكرا لها قول رسول الله ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**» فلما أكثروا عليها، كلّمته، بعدما خشي ألا تكلمه. ثم بعثت إلى اليمن بمال، فابتيع لها أربعون رقبة، فأعتقتها.

وبعث إليها معاوية بمئة ألف فما أمست حتى فرّقتها. وقيل: إنه قضى عنها ثمانية عشر ألف دينار، ورآها عروة تصدّقت بسبعين ألفًا، وإنها لترقَعُ جانب درعها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وعند ابن سعد عن أم ذرة، قالت: بعث ابن الزبير إلى عائشة بمال في غرارتين، يكون مئة ألف، فدعت بطبق، فجعلت تقسم في الناس، فلما أمست، قالت: هاتي يا جارية فطوري. فقالت أم ذرة: يا أم المؤمنين، أما استطعت أن

=



=

تشتري لنا لحما بدرهم؟ قالت: لا تعنفيني، لو أذكرتيني لفعلت. وعن عطاء: أن معاوية بعث إلى عائشة بقلادة بمئة ألف، فقسمتها بين أمهات المؤمنين. وفرض عمر لأمهات المؤمنين عشرة آلاف، عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين، وقال: إنها حبيبة رسول الله ﷺ.

وقال شعبة: أخبرنا عبدالرحمن بن القاسم، عن أبيه: أن عائشة كانت تصوم الدهر. ولفظ القاسم: أن عائشة كانت تسرد الصوم. قلت: أي تصوم الدهر، ولا تفطر إلا في الأيام المحرمة كالعيدين والتشريق وأيام الحيض.

وعن إبراهيم النخعي، قال: قالت عائشة: يا ليتني كنت ورقة من هذه الشجرة! وهذا من ورعها وعظيم خوفها من الله، وشدة تواضعها وإزرائها بنفسها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها، وألحقنا بها في السابقين المقربين.

وعن ابن أبي مليكة: حدثني أبو عمرو ذكوان مولى عائشة، قال: قدم درج من العراق، فيه جوهر إلى عمر، فقال لأصحابه: تدرون ما ثمنه؟ قالوا: لا. ولم يدروا كيف يقسمونه، فقال: أتأذنون أن أرسل به إلى عائشة، لحب رسول الله ﷺ إياها؟ قالوا: نعم. فبعث به إليها. فقالت: ماذا فتح على ابن الخطاب بعد رسول الله؟ اللّهم، لا تبقني لعطيته لقابل.

وتوفيت أُمّنا سنة سبع وخمسين على المشهور، في ليلة سابع عشر شهر رمضان، وأمرت أن تدفن ليلًا فدفنت بعد الوتر بالبقيع، وصلى عليها أبو هريرة، ونزل في قبرها خمسة: عبد الله وعروة ابنا الزبير والقاسم بن محمد وعبد الله بن محمد بن أبي بكر وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، ودفنت به مع صواحبها رضي الله عنهن أجمعن. وفي المستدرك بإسناد صالح، عن أم سلمة: أنها لما سمعت الصرخة على عائشة، قالت: والله لقد كانت أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، إلا أباها.

وللحاكم عن سالم سبلان: أنها ماتت في الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان بعد
=



وقال: بَاب ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨] حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بن بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، أَنْبَأَنَا شُعْبَةُ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: دَخَلَ حَسَّانُ بن ثَابِتٍ عَلَى عَائِشَةَ، فَشَبَّبَ وَقَالَ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ(١)

= الوتر. فأمرت أن تدفن من ليلتها، فاجتمع الأنصار، وحضروا، فلم ير ليلة أكثر ناسًا منها، نزل أهل العوالي، فدفنت بالبقيع. قال الذهبي: مدّة عمرها: ثلاث وستون سنة وأشهر.

وانظر: الوافي بالوفيات الصفدي (١٦/ ٣٤٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٧٠) طرح التثريب، زين الدين عبد الرحيم العراقي (١/ ٣٣٧ - ٣٣٩).

(١) قَالَ حسّانُ بن ثَابِتٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يعْتَذرُ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا:

رأيتُكِ ولْيَغْفِرْ لكَ اللهُ حرَّةً ... مِن المحْصَناتِ غيرِ ذاتِ غَوائلِ
حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
عَقِيلَةُ حَيّ مِنْ لُؤَيّ بن غَالِبٍ ... كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذّبَةٌ قَدْ طَيّبَ اللهُ خِيمَهَا ... وَطَهّرَهَا مِنْ كُلّ سُوءٍ وَبَاطِلِ
فَإِنْ كُنْت قَدْ قُلْت الّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ ... فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إلَيّ أَنَامِلِي
وَكَيْفَ وَوُدّي مَا حَيِيت وَنُصْرَتِي ... لِآلِ رَسُولِ اللهِ زَيْنُ الْمَحَافِلِ
لَهُ رَتَبٌ عَالٍ عَلَى النّاسِ كُلّهِمْ ... تَقَاصَرُ عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ
فَإِنّ الّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَائِطٍ ... وَلَكِنّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَاحِلِ

قال السُّهيلي: حَصَانٌ رَزَانٌ: بِتَوَالِي الْفَتَحَاتِ، مُشَاكَلَةَ خِفّةِ اللّفْظِ لخفّة الْمعْنى، أي المسَمّى بِهَذه الصّفَاتِ خفيفٌ عَلَى النّفس، وحَصَانٌ من الْحِصْنِ والتّحصّنِ وهو الِامْتِنَاعُ عَلَى الرّجَال من نَظَرِهِمْ إلَيها. وقيل: الإحصان في كلام العرب هو مطلق =

=

المنع، فتكون المرأة محصنة بالإسلام، لأن الإسلام يكفها عن ما لا يحل، وتكون محصنة بالعفاف والحياء من أن تفعل ما تعاب به، وتكون محصنة بالحرية وبالتزويج أيضًا. والمرأة حصان بفتح الحاء بينة الحصن، أي مستعملة لما يوجبه عليها الإحصان من الامتناع عما لا يحل ولا يحسن، والحاصن أيضا المتعففة.

وقوله: ما تزن بريبة: أي لا تُتَّهم، يقال أزننت فلانًا بكذا أي أتهمته، فهو يُزَنُّ بكذا.

وقوله: وتصبح غرثى من لحوم الغوافل: أي خميصة البطن من لحوم الناس، أي اغتيابهم، وضرب الغرث مثلًا، وهو عدم الطعم وخلو الجوف، وفي التنزيل: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا﴾ [الحجرات: ١٢] ضرب المثل لأخذه في العرض بأكل اللحم، لأن اللحم ستر على العظم، والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه من ستر. وقال ميتًا، لأن الميت لا يحس، وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب.

وقوله من لحوم الغوافل: يريد العفائف الغافلة قلوبهن عن الشر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [النور: ٢٣] جعلهن غافلات، ولا خطر الشر على قلوبهن، فهن في غفلة عنه، وهذا أبلغ ما يكون من الوصف بالعفاف.

وقوله: له رتب عال على الناس كلهم: فالرتب ما ارتفع من الأرض وعلا. والرتب أيضًا: قوّة في الشيء وغلظ فيه. والسورة: رتبة رفيعة من الشرف، مأخوذة اللفظ من سور البناء.

وقوله: فإن الذي قد قيل ليس بلائطٍ: أي بلاصق، يقال: ما يليط ذلك بفلان، أي ما يلصق به. ومنه سمي الربا: لياطًا، لأنه أُلصق بالبيع وليس ببيع.

وقوله: فلا رفعت سوطي إلي أناملي: دعاء على نفسه، وفيه تصديقٌ لمن قال إن حسان لم يُجلد في الإفك ولا خاض. الروض الأُنُف للسهيلي: (٤/ ٢٩-٣٧).

=

=

وفي المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس أحمد الأنصاري القرطبي (٢٠/ ١٤٥): ويعني حسان بهذا البيت ـ حصانٌ رزانٌ ـ: أن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا في غاية العفَّةِ والنزاهة عن أن تُزنَّ بريبة؛ أي تُتَّهم بها. ثم وصفها بكمال العقل والوقار والورع، المانع لها من أن تتكلم بعرض غافلة، وشبَّهها بالغرثى؛ لأنَّ بعض الغوافل قد كان هو آذاها فما تكلمت فيها، فكأنها كانت بحيث تنتصر ممن آذاها، بأن تقابلها بما يؤذيها، لكن حجزها عن ذلك دينها، وعقلها، وورعها. انتهى.

قلتُ: والمعنى الذي ذكره في دعائه على نفسه قد سبقه إليه النابغة الذبياني في اعتذاره للمنذر بقوله:

ما قلتُ من سيءٍ مما أتيتَ به ... إذاً فلا رفعتْ سوطي إليّ يدي

وقد أنكر بعض أهل العلم خوض حسان في الإفك، وقد تقدّم شيء من هذا، ونزيده بالقول:

قال ابن عبد البر: وقد أنكر قوم كون حسان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ خاض في الإفك وأنه جلد، وجاء أن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا برأته من ذلك. وقد ذكر الزبير بن بكار أنها قالت في حق حسان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبّه بلسانه عن رسول الله ﷺ، فقيل لها: أليس هو ممن لعنه الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك؟ قالت: لم يقل شيئًا ولكنه القائل:

فإن كان ما قد قيل عني قلتُهُ ... فلا رفَعَتْ سوطي إلي أناملي

وعن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالي وهو يقرأ سورة النور مستلقيًا على سريره، فلما بلغ ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ جلس ثم قال: يا أبا بكر من تولّى كبره؟ أليس علي بن أبي طالب؟ قال الزهري: فقلت في نفسي: ماذا أقولُ؟ إن قلت: لا، لا آمنُ أن ألقى منه شرًّا! وإن قلتُ: نعم، جئتُ بأمر عظيم! ثم قلت

=



=
لنفسي: لقد عوّدني الله على الصدق خيرًا، فقلت: لا. فضرب بقضيبة السرير قال: فمن؟ يكرر ذلك مرارًا. قلت: عبد الله بن أبيّ ابن سلول.

وفي البخاري: كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تنكر أن يُسبَّ عندها حسان وتقول: إنه الذي قال:

فــإن أبي ووالـــدتي وعـــرضي لعـــرض محمــد مــنكم وِقــاءُ

تنظر: السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي: (٢/ ٦١٨ ـ ٦٢١)

شيء من خبر حسان وصفوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

عن عامر الشعبي أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان:

هجــوتَ محمــدًا فأجبــتُ عنــه وعنـــــد الله في ذاكَ الجـــــزاءُ

وأورد ابن عساكر وابن سعد والبيهقي في الدلائل والذهبي في تاريخ الإسلام وغيرهم خبر فتنة رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول في عصابة من المنافقين حين رأوا أن الله قد نصر النبي ﷺ وأصحابه، فأظهروا قولًا سيئًا في منزلٍ نزله رسول الله ﷺ في سفر، وكان في أصحاب رسول الله ﷺ رجل يقال له جعال ورجل من بني غفار يقال له جهجاه، فعلت أصواتهما. وقيل: إن جهجاه خرج بفرس لرسول الله ﷺ وفرس له يومئذ يسقيهما، فأوردهما على الماء فوجد على الماء فتية من الأنصار، فتنازعوا على الماء فاقتتلوا، فقال عبد الله بن أبي يومئذ: هذا ما جزونا، آويناهم ومنعناهم ثم هؤلاء هم يقاتلونا، ولمز صفوان بشأن الإفك، وبلغ حسان بن ثابت الذي بين جهجاه الغفاري وبين الفتية الأنصاريين فغضب وقال:

أَمسى الجَلاَبِيبُ قد عَزُّوا وقد كَثُروا وابــنُ الفُرَيْعــةِ أَمسـى بَيْضَــةَ البَلَـدِ
=

=
في أبيات أُخَر، والجلابيب: الغرباء، وقيل: السفلة. والفريعة: أم حسان. وقوله: أمسى بيضة البلد: أي منفردًا لا يدانيه أحد. وبيضة البلد: أي المقيم فلا يضعن، إما لعزّته وكثرته، وإما لذلّته وقلّته. فتُراد مدحًا وذمًّا، وهي في هذا الموضع مدح لنفسه، وقد يكون ذمًّا لتهييج قومه، وذلك إذا أريد أنه ذليل ليس معه غيره.

فقال صفوان: ما أراه إلا عناني، أي بالجلابيب.

فلما قدموا المدينة جاء صفوان إلى جعيل بن سراقة فقال انطلق بنا نضرب حسان فوالله ما أراد غيرك وغيري، لنحن أقرب إلى رسول الله ﷺ منه. فأبى جعيل أن يذهب قال: لا أفعل إن لم يأمرني رسول الله ﷺ ولا تفعل أنت حتى تؤامر رسول الله ﷺ في ذلك. فأبى صفوان عليه فخرج مصلتا السيف حتى ضرب حسان بن ثابت في نادي قومه قائلًا:

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيْفِ عنِّي فإنّني ... غلامٌ إذا هُوجِيتُ لستُ بشاعرِ

قلت: يعني أن جزاءك ضربة سيفٍ ثائر، لا بيت شعر سائر. فوثبت الأنصارُ إليه فأوثقوه رباطًا، وكان الذي تولى ذلك منهم ثابت بن قيس بن شماس، فمرّ بهم عمارة بن حزم فقال: ما يصنعون؟ أَمِنْ أمرِ رسول الله ﷺ ورضاه، أم من أمر فعلتموه؟ قالوا: ما علم به رسول الله ﷺ؟ فقال: لقد اجترأت خل عنه. ثم جاؤوا سعد بن عبادة سيد الخزرج - الذين منهم حسان - وهو مقبلٌ على ناضحه بين القربتين، فذكروا له ما فعل حسان وما فعلوا فقال: أشاورتم في ذلك رسول الله؟ قالوا: لا. فقعد إلى الأرض وقال: وانقطاع ظهراه! أتأخذون بأيديكم ورسول الله بين ظهرانيكم؟! فخرج في قومه من الخزرج حتى أتاهم فقال: عمدتم إلى رجل من قوم رسول الله ﷺ - أي مهاجري - تؤذونه وتهجونه بالشعر وتشتمونه، وقد زعمتم أنكم نصرتموهم! فغضب سعد لرسول الله ﷺ. وفي رواية أن رسول الله
=

=

أمرهم بحبسه حتى ينظر ما يؤول جرحُ حسان. فقالوا لسعد: فإن رسول الله ﷺ أمر بحبسه وقال: «**إن مات صاحبكم فاقتلوه**» قال سعد: والله إن أحب إلى رسول الله ﷺ للعفو، ولكن رسول الله ﷺ قد قضى لكم بالحق، وإن رسول الله ﷺ ليحب أن يترك صفوان، والله لا أبرح حتى يطلق، فأطلقوه من الوثاق، فذهب به سعد إلى بيته فكساه حلّة، ثم خرج صفوان حتى دخل المسجد ليصلي فيه، فرآه رسول الله ﷺ فقال: «**صفوان؟**» قالوا: نعم، يا رسول الله. قال: «**من كساه؟**» قالوا: كساه سعد بن عبادة، قال: «**كساه من ثياب الجنة**».

فلما أصبحوا غدوا على النبي ﷺ فذكروا له ذلك فقال: «**أين ابن المعطل؟**» فقام إليه، فقال: هاأنذا يا رسول الله، فقال: ما دعاك إلى ما صنعت قال: آذاني وكثّر عليّ، ولم يرض حتى عرّض بي في الهجاء، فاحتملني الغضب، وهاأنذا، فما كان عليّ من حق فخذني به، فقال رسول الله ﷺ: «**ادعوا لي حسان**» فأُتى به فقال: «**يا حسان، أتشوَّهْتَ على قومي أن هداهم الله للإسلام؟!**» يقول: تنفّست عليهم يا حسان، «**أحْسِنْ فيما أصابك**» فقال: هي لك يا رسول الله، فقال: «**أحسنت**» فأعطاه رسول الله ﷺ سيرين أخت مارية القبطية، فولدت له عبد الرحمن، فكان بعدُ يفتخر أنه ابن خالة إبراهيم بن رسول الله ﷺ. وأعطاه أرضاً له، وأعطاه أيضًا سعد بن عبادة رضي الله عنه حائطًا كان يتحصّل منه مال كبير بها عفا عن حقّه.

وقيل: إنما أعطاه سيرين لذبّه عن رسول الله ﷺ بشعره، قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: إعطاء رسول الله ﷺ سيرين أخت مارية لحسان ابن ثابت يُروى من وجوه أكثرها أن ذلك ليس بسبب ضرب صفوان له، بل لذبّه بلسانه عن رسول الله ﷺ.

هذا وقد استشهد صفوان بن المعطل السلمي شهيدًا في سنة تسع عشرة في أرمينيا حين كان على رأس سريّة، وقد حاصر حصنًا يقال له «بولا» فرموه فقتلوه، فدفن قدّام الحصن قريباً منه. قال أبو إسحاق السنجاري: أتينا بولا في بعثٍ فقال لي شيخ

=



قَالَتْ: لَسْتَ كَذَاكَ ـ وفي رواية: لكنَّكَ لَسْتَ كَذَلِكَ ـ قُلْتُ: تَدَعِينَ مِثْلَ هَذَا يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النور: ١١] فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنْ الْعَمَى؟! وَقَالَتْ: وَقَدْ كَانَ يَرُدُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ(١).

= من أهلها قد بلغ مائة سنة أو زاد عليها: أتريد أن أريك قبر صفوان بن المعطل؟ قلت: نعم، فإذا هو من بابها على رمية بحجر، وقال: رميناه فقتلناه، فبلغ عمر قتله فدعا علينا دعوة إنا لنعرفها إلى الساعة. وقال عبد الملك بن القعقاع: حدثني مشايخ من الأرمن عن آبائهم: أن صفوان بن المعطل السلمي قاتل فَدُقَّتْ ساقُهُ فلم يزل يطاعن حتى مات.

وقال الذهبي بعد ذكر روايات مخالفة لقتله: فهذا تباين كثير في تاريخ موته فالظاهر أنهما اثنان، أي رجلان. والله أعلم.

لطيفة: قال صفوان بن المعطل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجنا حجاجاً فلما كان بالعرج ـ عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج ـ إذا نحن بحية تضطرب، فلم تلبث أن ماتت، فأخرج لها رجل خرقة من عيبته فلفّها فيه ودفنها، وخدّ لها في الأرض. فلما أتينا مكة فإنا بالمسجد الحرام إذ وقف علينا شخص فقال: أيكم صاحب عمرو بن جابر؟ قلنا: ما نعرفه. قال: أيكم صاحب الجانّ؟ قلنا: هذا، قال: جزاك الله خيرًا، أما إنه كان من آخر التسعة موتًا الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن. رواه أحمد في مسنده (٢٢٦٦٢).

(١) قوله: فقالت: أي عذاب أشد من العمى: كأنه قالت على تقدير فرض شمول الآية لحسان، وإلا فهي في ابن أبيّ، والله تعالى أعلم. حاشية السندي على صحيح البخاري: (٣/ ١٧).

وإلى شيء من أخبار شاعر الإسلام حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهو حسان بن ثابت بن المنذر من بني النجار الخزرجي الأنصاري الأزدي من كهلان بن سبأ بن =



=

يشجب بن يعرب بن قحطان. ويكنى حسان بن ثابت أبا الوليد. وهو فحل من فحول الشعراء، بل هو أشعر أهل المدر، قال أبو عبيدة: أجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر.

وكان أحد المعمرين من المخضرمين، قيل إنه قد عمّر مئة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام! وشاهد ذلك ما رواه الزبير بن بكار بسنده عن حسان بن ثابت قال: إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان، إذا بيهودي بيثرب يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فلما اجتمعوا إليه قالوا: ويلك، مالك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة. قال: ثم أدركه اليهودي ولم يؤمن به!

قال أبو الفرج الأصبهاني: فهذا يدل على مدة عمره في الجاهلية، لأنه ذكر أنه أدرك ليلة ولادة النبي ﷺ وله يومئذ ثمان سنين، والنبي ﷺ بعث وله أربعون سنة، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، فقدم المدينة ولحسان يومئذ على ما ذكره ستون سنة أو إحدى وستون سنة، وحينئذ أسلم. وعن أبي الزناد قال: عمِّر حسان بن ثابت عشرين ومئة سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام.

وعن سليمان بن يسار قال: رأيت حسان بن ثابت وله ناصية قد سدلها بين عينيه. وكان حسان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ولا يخضب سائر لحيته! فقال له ابنه عبد الرحمن: يا أبت لم تفعل هذا؟ قال: لأكون كأني أسد والغٌ في دم! قلت: فلا عجب أن يشبه نفسه بالأسد الضارب بذنبه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ قال: كان يهجو رسول الله ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزّبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاصي، فقال قائل لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أهج عنا القوم الذين قد هجونا. فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن أذن لي رسول الله ﷺ فعلت. فقال رجل: يا رسول الله، ائذن لعلي كي يهجو عنّا هؤلاء القوم الذين قد هجونا. قال: «**ليس**

=

=

هناك أو ليس عنده ذلك» ثم قال للأنصار: «**ما منع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم**» فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مِقْوَلٌ بين بصرى وصنعاء.

فقال: «**اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم وجبريل معك**». وفي رواية: فأخرج لسانه أسود، فوضعه على طرف أرنبته وقال: يا رسول الله، لو شئت لفريت به المزاد. فقال: «**يا حسان وكيف وهو مني وأنا منه؟**» قال: والله لأسلنه منك كما يسل الشعر من العجين، قال: «**فأت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك**» فأتى أبا بكر فأعلمه ما قال رسول الله ﷺ فقال: كف عن فلانة، واذكر فلانة. فكان مما قال:

هَجَوْت محمداً فأجَبْتُ عنه ... وعندَ اللهِ في ذاك الجَزَاءُ
فإنّ أَبي ووالدَه وعِرْضي ... لِعِرضِ محمدٍ منكم وِقَاءُ
أتهجوه ولستَ له بكُفْءٍ ... فشَرُّكُما لخيرِكُما الفِدَاء

ولما أُنشدت قريش شعر حسان قالت: إن هذا الشتم ما غاب عن ابن أبي قحافة. قلت: إذ هو أعلم العرب بأنسابها، وقد أعطى حسان مادة خصبة لرمي القوم فأحسن الرمي. حتى إن بعض أهل مكة قالوا حينها: لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا! وإنك لترى ذلك واضحًا في ثنايا تلك الأبيات المصمية القاتلة، فمنها ما قاله لأحد قرابة النبي ﷺ من بني هاشم الذي كان يهجو رسول الله ﷺ أشد الهجاء - وقد أسلم بعدُ وحسن إسلامه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فرماه حسان بنبالٍ سنّها أبو بكر فقال:

وإنّ سَنَامَ المَجْدِ من آلِ هاشمٍ ... بنو بِنْتِ مَخْزومٍ ووالدُك العَبْدُ
ومَنْ ولدتْ أبناء زُهْرةَ منكُم ... كرامٌ ولم يَلْحَقْ عجائزَك المَجْدُ
وإنّ امْرَأً كانتْ سُمَيّةُ أُمَّهُ ... وسَمْراءُ مغلوبٌ إذا بَلَغ الجَهْدُ
وأنتَ هَجِينٌ نِيطَ في آل هاشمٍ ... كما نِيطَ خَلْفَ الرَّاكبِ القَدَحُ الفَرْدُ

=



=

فقال العباس: ومالي وما لحسان، يعني في ذكره نتيلة فقال فيها:

ولَسْتَ كَعبَّاسٍ ولا كابن أُمِّهِ ... ولكن هَجِينٌ ليس يُورَى له زَنْدُ

وقال في رجل من قريش بعد بدر يهجوه بقصيدة منها:

تَرَكَ الأَحِبَّة أنْ يُقَاتِلَ دونَهم ... ونجَا برأس طِمرَّةٍ ولجَامِ

وقالت عائشة: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وهي متذوقة وحافظة للشعر كأبيها - سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت الشاعر: «**إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كافحت عن الله عز وجل وعن رسول الله**» وعن ابن بريدة قال: أعان جبريل عليه السلام حسان بن ثابت في مديح النبي ﷺ بسبعين بيتًا. - قلت: ومن ذلك الذبّ عنه.

وعن جويرية بن أسماء قال: بلغني أن رسول الله قال: «**أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى**» قلت: لأن حسان كان يبلغ الكبد بنفوذ شعره، - فهو بمثابة صاروخ بالستي! - إذ تحمله الرواة وتتناقله الركبان لعمقه وجزالته وبديع معانيه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن عوف بن محمد قال: قال النبي ﷺ ليلة وهو في سفر: «**أين حسان بن ثابت؟**» فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «**احْدُ**» - أي أنشد بالحُداء - فجعل ينشد، ويصغي إليه النبي ﷺ ويستمع، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى كان رأس الراحلة يمس الورك، حتى فرغ من نشيده، فقال النبي ﷺ: «**لهذا أشد عليهم من وقع النبل**».

بل قد كان ينشده في مسجد الرسول ﷺ، فعن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ: أن عمر مرّ بحسان بن ثابت وهو ينشد في مسجد رسول الله ﷺ، فانتهره عمر فقال حسان: قد أنشدت فيه من هو خير منك، فانطلق عمر. الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: (١/ ١٠٢).

=



=

قلت: ومما يدل على تفرّده بهامة الشعر خبر مفاخرته برسول الله ﷺ مع ثابت بن قيس أمام وفد تميم فغلباهم، وقد بسطتها في (وقد يجمع الله الشتيتين).

ومن جميل شعره الإيماني:

شَهِدتُ بإِذن الله أن محمداً ... رسولُ الذي فوق السّمواتِ من عَلُ

وأنَّ أخا الأحقاف إذ يَعْذُلونه ... يقومُ بدِين الله فيهم فيَعدِلُ

وأنَّ أبا يحيى ويحيى كِلاهما ... له عَمَلٌ في دينِه مُتَقَبَّلُ

وأنّ الذي عادَى اليهودَ ابن مَرْيَم ... رسولٌ أتى من عند ذي العرش مُرْسَلُ

وأنَّ الذي بالجِزْعِ من بطن نَخْلةٍ ... ومَنْ دونَها فِلٌّ من الخير مَعْزِلُ

فيروى أن النبي ﷺ قال حينها: «**أنا أشهد معك**».

ولتسمح لي نفس القارئ الكريم بنفح شيء من أرج الأدب العربي العزيز، فإنه ليعز عليّ عزوف كثير من طلبة العلم عن رياض الأدب، ورغبتهم عنها، بل وازورارهم عن مطالعتها، فضلًا عن روايتها! لما ظنوه من أنها قادحة في المروءة، مذهبة للوقار، ميبسة للرواء، غير حقيقةٍ بالارتياض والتمتع والامتاع، أو أنها من خوارم الجلالة العلمية! بل أعنق بعضهم في زعمه بأنها بضاعة السفهاء! وقد بسطت القول في نقض ذلك بالأدلة والشواهد والبراهين والأمثلة في كتاب: (وقد يجمع الله الشتيتين) وقد عقد القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصلاً نفيسًا في تفسيره الجامع لأحكام القرآن عند قول الله تعالى ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ بيّن فيه أنواع الشعر التي وقع عليها وعلى أهلها الذم، ولابن رشيق القيرواني مقدمة باذخة حافلة لكتابه الموسوم بالعمدة في محاسن الشعر وآدابه، استأذن القارئ الكريم بسوقها علّها تنفخ في نفس بعض المعنيين سلاسة الأدب الرفيع، وصَبَا العبق الشذي، وتصقل عارضتهم وأساليبهم بجودة اللفظ الجزيل، وسأختصرها وأقتصرها مُكرهًا لضيق المقام،

=



=

ومن أراد الربيع المخصب فثمّ وابل هطّال. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم؛ لفضل اللسان على اليد، والبعد عن امتهان الجسد. وكلام العرب نوعان: منظوم، ومنثور. ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، ورديئة، فإذا اتفقت الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أن الدُّر وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب؛ وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد في الأسماع، وتدحرج عن الطباع، ولم تستقر منه إلا المفرطة في اللفظ وإن كانت أجمله، والواحدة من الألف، وعسى أن لا تكون أفضله، فإن كانت هي اليتيمة المعروفة، والفريدة الموصوفة؛ فكم في سقط الشعر من أمثالها ونظرائها لا يعبأ به، ولا ينظر إليه، فإذا أخذه سلك الوزن، وعقد القافية؛ تألفت أشتاته، وازدوجت فرائده وبناته، واتخذ اللابس جمالاً، والمدخر مالاً، فصار قرطة الآذان، وقلائد الأعناق، وأماني النفوس، وأكاليل الرؤوس، يقلب بالألسن، ويخبأ في القلوب، مصوناً باللب، ممنوعاً من السرقة والغصب.

وقد اجتمع الناس على أن المنثور في كلامهم أكثر، وأقل جيداً محفوظاً، وأن الشعر أقل، وأكثر جيداً محفوظاً؛ لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنثور.

وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد، وسمحائها =



=

الأجواد؛ لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا.

وقيل: ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون؛ فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره.

ولعل بعض الكتاب المنتصرين للنثر، الطاعنين على الشعر، يحتج بأن القرآن كلام الله تعالى منثور، وأن النبي ﷺ غير شاعر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ فالذي عليه في ذلك أكثر مما له؛ لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أمياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة؛ آية للنبوة، وحجة على الخلق، وإعجازاً للمتعاطين، وجعله منثوراً ليكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يحبه من الكلام، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمترسلين وليس بترسل، وإعجازه الشعراء أشد برهاناً، ألا ترى كيف نسبوا النبي ﷺ إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم؟ فقالوا: هو شاعر، لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته، وأنه يقع منه ما لا يلحق، والمنثور ليس كذلك، فمن ههنا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: لتقوم عليكم الحجة، ويصح قبلكم الدليل، ويشهد لذلك رواية يونس عن الزهري أنه قال: معناه ما الذي علمناه شعراً، وما ينبغي له

=



=

أن يبلغ عنا شعرًا.

وقال غيره: أراد وما ينبغي له أن يبلغ عنا ما لم نعلمه، أي: ليس هو ممن يفعل ذلك؛ لأمانته ومشهور صدقه. ولو أن كون النبي ﷺ غير شاعر غض من الشعر لكانت أميته غضاً من الكتابة، وهذا أظهر من أن يخفي على أحد.

واحتج بعضهم بأن الشعراء أبداً يخدمون الكتاب، ولا تجد كاتباً يخدم شاعراً، وقد عميت عليهم الأنباء، وإنما ذلك لأن الشاعر واثق بنفسه. مدل بما عنده على الكاتب والملك؛ فهو يطلب ما في أيديهما ويأخذه، والكاتب بأي آية يفضل الشاعر فيرجو ما في يده؟ وإنما صناعته فضلة عن صناعته، على أن يكون كاتب بلاغة، فأما كاتب الخدمة في القانون وما شاكله فصانع مستأجر، مع أنه قد كان لأبي تمام والبحتري قهارمة وكتاب، وكان من عميان الشعراء كتاب أزمة كبشار وأبي علي البصير، وكان ابن الرومي من أكبر كتاب الدواوين، فغلب عليه الشعر؛ لأنه غلاب. وكما تجد من يمدح السوقة في الشعراء فكذلك تجد للسوقة كتاباً، وللتجار الباعة، في زمننا هذا وقبله.

ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه، وينسبه إلى أمه، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقل السوقة؛ فلا ينكر ذلك عليه، بل يراه أوكد في المدح، وأعظم اشتهاراً للممدوح، كل ذلك حرص على الشعر، ورغبة فيه، ولبقائه على مر الدهور واختلاف العصور، والكاتب لا يفعل ذلك إلا أن يفعله منظوماً غير منثور، وهذه مزية ظاهرة وفضل بين.

ولما أوعد رسول الله ﷺ كعب بن زهير ضاقت به الأرض، فأتى إلى رسول الله ﷺ متنكراً، فلما صلى النبي ﷺ صلاة الفجر وضع كعب يده في يد رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد أتى مستأمناً تائباً، أفتؤمنه فآتيك

=

=

به؟ قال: هو آمن، فحسر كعب عن وجهه وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله هذا مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير، فأمنه رسول الله رسول الله ﷺ، وأنشد كعب قصيدته التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

يقول فيها بعد تغزله وذكر شدة خوفه ووجله:

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ال ... قرآن فيه مواعيظ وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم ... أذنب، ولو كثرت في الأقاويل

فلم ينكر عليه النبي ﷺ قوله، وما كان ليوعده على باطل، بل تجاوز عنه ووهب له بردته، فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم.

وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: الشعر فيه كلامٌ حسن وقبيح، فخذ الحسن واترك القبيح، وقال على بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الشعر ميزان القول، ورواه بعضهم: الشعر ميزان القوم.

ويروى عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالت: مر الزبير بن العوام رضي الله عنه بمجلس لأصحاب النبي ﷺ، وحسان ينشدهم، وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره، فقال: مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة؟ لقد كان ينشد رسول الله ﷺ فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه إذا أنشده.

وكتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري: مر من قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب.

وقال معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب.

=

=

وقال: اجعلوا الشعر أكبر همّكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة:

أبت لي همتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيحِ
وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيحِ
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن عرض صحيحِ

ويروى أن أعرابياً وقف على علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال له علي: خط حاجتك في الأرض، فإني أرى الضر عليك، فكتب الأعرابي على الأرض إني فقير فقال له علي: يا قنبر؛ ادفع إليه حلتي الفلانية، فلما أخذها مثل بين يديه فقال:

كسوتني حلة تبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه ... كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به ... فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

فقال علي: يا قنبر، أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلأدبك، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أنزلوا الناس منازلهم**».

وقيل لسعيد بن المسيب: إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر، فقال: نسكوا نسكًا أعجميًا.

وقال ابن سيرين: الشعر كلام عقد بالقوافي، فما حسن في الكلام حسن في الشعر، وكذلك ما قبح منه. وسئل في المسجد عن رواية الشعر في شهر رمضان وقد قال قوم: إنها تنقض الوضوء فقال:

=

=

نبئـت أن فتـاة كنـت أخطبهـا ... عرقوبها مثل شهر الصوم في الطّولِ

ثم قام فأم الناس، وقيل: بل أنشد:

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزاً ... ولـو رضيت رمح أسته لاستقرتِ

وقال الزبير بن بكار: سمعت العمري يقول: رووا أولادكم الشعر؛ فإنه يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحض على الخلق الجميل.

وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب. وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً. وكانت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا كثيرة الرواية للشعر. يقال: إنها كانت تروي جميع شعر لبيد. ولا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين.

وكان أبو السائب المخزومي على شرفه، وجلالته، وفضله في الدين والعلم يقول: أما والله لو كان الشعر محرماً لوردنا الرحبة كل يوم مراراً. والرحبة: الموضع الذي تقام فيه الحدود، يريد أنه لا يستطيع الصبر عنه فيحد في كل يوم مراراً ولا يتركه.

فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ فهو غلط، وسوء تأول؛ لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء، ومسوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ يريد شعراء النبي ﷺ ينتصرون له، ويجيبون المشركين عنه، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة. وقد قال فيهم النبي ﷺ: «**هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل**»، وقال لحسان بن ثابت «**اهجهم يعني قريشاً فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام، في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس، وألق أبا بكر**

=

=

يعلمك تلك الهنات» فلو أن الشعر حرام أو مكروه ما اتخذ النبي ﷺ شعراء يثيبهم على الشعر، ويأمرهم بعمله، ويسمعه منهم.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً**» فإنما هو من غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، والشعر كغيره مما جرى هذه المجرى من شطرنج وغيره سواء. وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدباً وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه، وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين، والجلة من الصحابة والتابعين، والفقهاء المشهورين، من ذلك قول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تـرى مـن لـؤي فرقـة لا يصـدها ... عن الكفر تذكير ولا بعث باعث عليه
رسـول أتـاهم صـادق فتكـذبوا ... وقـالوا لسـت فينـا بماكـث
فـإن يرجعـوا عـن كفـرهم وعقـوقهم ... فـما طيبـات الحـل مثـل الخبائـث
وإن يركبـوا طغيـانهم وضـلالهم ... فلـيس عـذاب الله عـنهم بلابـث

ومن شعر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة ويروى للأعور الشني:

هـون عليـك فـإن الأمـور ... بكـف الإله مقاديرهـا
فلـيس بآتيـك منهيهـا ... ولا قـاصر عنـك مأمورهـا

ومن شعره أيضاً، وقد روى لورقة بن نوفل في أبيات:

لا شيء ممـا تـرى تبقـى بشاشـته ... يبقـى الإله ويفنـى المـال والولـد
لم تغـن عـن هرمـز يومـاً خزائنـه ... والخلـد قـد حاولـت عـاد فـما خلـدوا

ومن شعر عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

=

=

غنى النفس يغني النفس حتى يكفها ... وإن عضها حتى يضر بها الفقر
وما عسرة فاصبر لها إن لقيتها ... بكائنة إلا سيتبعها يسر

ومن شعر علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وكان مجوداً ما قاله يمدح همدان:

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا ... نواصيها حمر النحور دوامي
وأعرض نقع في السماء كأنه ... عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند في الكلاع وحمير ... وكندة في لخم وحي جذام
تيممت همدان الذين هُمُ هُمُ ... إذا ناب دهر جنتي وسهامي
فجاوبني من خيل همدان عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت بواباً على باب جنة ... لقلت لهمدان: ادخلوا بسلام

فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم، ما منهم إلا من قال الشعر، وخامسهم الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو القائل وقد خرج على أصحابه مختضباً رواه المبرد:

نسوّد أعلاها وتأبى أصولها ... فليت الذي يسودُّ منها هو الأصلُ

ومن شعر معاوية بن أبي سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وهو لائق به، دالٌّ على صحّة ناقله:

إذا لم أجد بالحلم مني عليكم ... فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم!؟
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد ... حباك على حرب العداوة بالسلم

ومن شعر الحسين بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وقد عاتبه أخوه الحسن رَحِمَهُٱللَّهُ في امرأته:

لعمرك إنني لأحب داراً ... تحل بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جلّ مالي ... وليس للائمي عندي عتاب

وقال حمزة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يذكر بدرًا:

=

=

عشـية صـاروا حاشـدين وكلنـا مراجلـه مـن غـيظ أصـحابه تغـلي
فلـما تراءينـا أنـاخوا فعقلـوا مطايـا وعقلنـا مـدى غـرض النبـل
وقلنـا لهـم حبـل الإله نصـيرنا ومـا لكـم إلا الضـلالة مـن حبـل
فثـار أبـو جهـل هنالـك باغيـاً فخـاب ورد الله كيـد أبي جهـل

وأما العباس فكان شاعراً مفلّقاً حسن التهدي، من ذلك قوله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يوم حنين يفتخر بثباته مع رسول الله ﷺ:

ألا هـل أتـى عـرسي مكـرّي ومـوقفي بـوادي حنـين والأسـنة تشرـعُ
وقـولي إذا مـا الـنفس جاشـت لهـا قـرى وهـام تدهـدا والسـواعد تقطـع
وكيـف رددت الخيـل وهـي مغـيرة بـزوراء تعطـى باليـدين وتمنـع
نـصرنا رسـول الله في الحـرب سـبعة وقـد فـر مـن قـد فـر عنـه فأقشـعوا

ومن شعر عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا:

إذا طارقـات الهـم ضـاجعت الفتـى وأعمـل فكـر الليـل والليـل عـاكرُ
وبـاكرني في حاجـة لم يجـد بهـا سـواي ولا مـن نكبـة الـدهر نـاصر
فرجـت بـمالي همـه مـن مقامـه وزايلـه هـم طـروق مسـامر
وكـان لـه فضـل عـلي بظنـه بي الخـير إني للـذي ظـن شـاكر

ومن شعر جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قوله يوم مؤتة، وفيه قتل رحمة الله عليه:

يـا حبـذا الجنـة واقترابهـا طيبـة وبـارد شرابهـا
والـروم روم قـد دنـا عـذابها عـلي إن لاقيتهـا ضرابهـا

ومن قول عبد الله بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا:

وكـم مـن عـدو قـد أراد مسـاءتي بغيـب ولـو لاقيتـه لتنـدما
كثـير الخنـا حتـى إذا مـا لقيتـه أصر عـلى إثـم وإن كـان أقسـما

=

=

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أيقظان أنت اليوم أم أنت حالمُ ... وكيف يطيق النوم حيران هائمُ
فلو كنت يقظان الغداة لحرقت ... جفونا لعينيك الدموع السواجم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
وتشغل فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وحسبك من القضاة شريح بن الحارث، فقد كان شاعراً مجوداً، وقد استقضاه عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كتب إلى مؤدب ولده وقد وجده وقت الصلاة يلعب بجرو كلب، وأودع الأبيات رقعة وأنفذها مع ولده مختومة إلى المؤدب:

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها ... طلب الهراش مع الغواة الرجّسِ
فليأتينك غدوة بصحيفة ... كتبت له كصحيفة المتلمس
فإذا هممت بضربه فبدرة ... وإذا بلغت به ثلاثاً فاحبس
واعلم بأنك ما أتيت فنفسه ... مع ما يجرعني أعز الأنفس

وأما محمد بن إدريس الشافعي فكان من أحسن الناس شعرًا، وهو القائل:

ومتعب العيس مرتاحاً إلى بلد ... والموت يطلبه في ذلك البلدِ
وضاحك والمنايا فوق مفرقه ... لو كان يعلم غيباً مات من كمدِ
من كان لم يؤت علماً في بقاء غد ... ماذا تفكره في رزق بعد غد

وهذا باب لو تقصيته لاحتمل كتاباً مفرداً ولكني طبّقت المفصل، وذكرت بعض المشاهير من الناس.

وإنما قيل في الشعر: إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل، وإنه أسنى مروءة الدني، وأدنى مروءة السرى؛ لأمرٌ ظاهر، ومن ذلك اشتهار عرابة الأوسي بشعر الشماخ بن ضرار، وقد بذل له في سنة شديدة وسق بعير تمراً، فقال:

=



=

رأيـــت عرابـــة الأوسي يســـمو إلى الخـــيرات منقطـــع القـــرينِ
إذا مـــا رايـــة رفعـــت لمجـــد تلقاهـــا عرابـــة بـــاليمين

حتى صار ذلك مثلاً سائراً، وأثراً باقياً، لا تبلى جدته، ولا تتغير بهجته، وقدح ذلك في مروءة الشماخ، وحط من قدره؛ لسقوط همته عن درجة مثله من أهل البيوتات وذوي الأقدار.

وإنما فضل امرؤ القيس وهو من هو لما صنع بطبعه، وعلا بسجيته، عن غير طمع ولا جزع. وحكي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لو أن الشعراء المتقدمين ضمنهم زمان واحد، ونصبت لهم راية فجروا معاً، علمنا من السابق منهم، وإذ لم يكن فالذي لم يقل لرغبة ولا لرهبة، فقيل: ومن هو؟ فقال: الكندي، قيل: ولم؟ قال: لأني رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة.

وممن رفعه ما قاله من الشعر الحارث بن حِلّزة اليشكري، وكان أبرصًا، فأنشد الملك عمرو بن هند معلّقته: آذنتنا ببينِها أسماءُ. وبينه وبينه سبعة حجب؛ فما زال يرفعها حجاباً فحجاباً لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينهما حجاب، ثم أدناه وقربه، وأمثاله كثير.

وممن رفعه ما قيل فيه من الشعر بعد الخمول المحلّق، وذلك أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به، وكانت للمحلق امرأة عاقلة وقيل: بل أم فقالت له: إن الأعشى قدم، وهو رجل مفوه، مجدود في الشعر ما مدح أحداً إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا وضعه، وأنت رجل كما علمت فقيراً خامل الذكر ذو بنات، وعندنا لقحة نعيش بها فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما تشتري به شراباً يتعاطاه؛ لرجوت لك حسن العاقبة، فسبق إليه المحلق، فأنزله ونحر له، ووجد المرأة قد خبزت خبزاً، وأخرجت نحياً فيه سمن، وجاءت بوطب لبن، فلما أكل الأعشى وأصحابه، وكان في عصابة قيسية، قدم إليه الشراب واشتوى له من

=

=

كبد الناقة، وأطعمه من أطايبها، فلما جرى فيه الشراب وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه، وذكر البنات، فقال الأعشى: كفيت أمرهن، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ... وما بي من سقم وما بي معشقُ

ورأى المحلق اجتماع الناس، فوقف يستمع، وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله، إلى أن سمع:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة ... كجابية الشيخ العراقي تفهقُ

ترى القوم فيها شارعين وبينهم ... مع القوم ولدان من النسل دردق

لعمري قد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار باليفاع تحرّق

تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمُحلّقُ

رضيعَيْ لَبَان ثدي أمٍّ تحالفا ... بأسحمَ داجٍ عوضُ لا نتفرَّقُ

ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متن الهندواني رونقُ

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى الملحق يهنئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته؛ لمكان شعر الأعشى، فلم تمسِ منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها.

وكذلك بنو أنف الناقة، كانوا يغضبون من هذا الاسم، حتى إن الرجل منهم يسأل: ممن هو؟ فيقول: من بني قريع، فيتجاوز جعفرًا أنف الناقة بن قريع، ويلغي ذكره فرارًا من هذا اللقب، إلى أن دفعهم الحطيئة بعد ضيافة الزبرقان بن بدر وأحسن إليه فقال:

سيرِي أُمامُ فإنَّ الأكثرين حصًا ... والأكرمين إذا ما ينسبون أبًا

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يساوي بأنف الناقة الذنبًا

=



=

فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة.

وعلى الضد من ذلك فالشعر يهتك ويضع، فمن ذلك أن بني العجلان، كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قرى الأضياف، إلى أن هجاهم به النجاشي فضجروا منه، وسُبُّوا به، واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: وما قال؟ فأنشدوه:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني عجلان رهط ابن مقبلِ

فقال عمر بن الخطاب: إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب، فقالوا: إنه قال:

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر رضيرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كذلك، أو كلاماً يشبه هذا، قالوا: فإنه قال:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر: ذلك أقل للسكاك، يعني الزحام، قالوا: فإنه قال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه، قالوا: فإنه قال:

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجلِ

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم خادمهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما أسمع ذلك، فقالوا: فاسأل حسان بن ثابت، فسأله فقال: ما هجاهم ولكن سلح عليهم! وكان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أبصر الناس بما قال النجاشي، ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات، فلما قال حسان ما قال سجن النجاشي، وقيل: إنه حده - أي عزّره بالجلد -.

ومن أثر الشعر في النفوس ما ذكره العتبي: أن رجلاً من أهل المدينة ادعى حقا على رجل، فدعاه إلى ابن حنطب قاضي المدينة، فقال: من يشهد بما تقول؟ فقال:

=



وقال: بَاب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ

=

زنقطة، فلما ولَّى قال القاضي: ما شهادته له إلا كشهادته عليه، فلما جاء زنقطة القاضي قال له: فداك أبي وأمي، أحسن والله الشاعر حيث يقول:

من الحنطبيين الذين وجوههم ... دنانير مما شيف في أرض قيصرا

فأقبل القاضي على الكاتب، فقال: كبير ورب السماء، ما أحسبه شهد إلا بالحق فأجز شهادته.

وكان لأمية بن حرثان ولد اسمه كلاب، هاجر إلى البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه، فقال أمية:

سأستعدي على الفاروق رباً ... له عمد الحجيج إلى بساق

إن الفاروق لم يردد كلاباً ... على شيخين هامهما زواقي

فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بإشخاص كلاب، فما شعر أمية إلا به يقرع الباب.

ولأبي الدلهان:

وللشعراء ألسنة حداد ... على العورات موفية دليله

ومن عقل الكريم إذا اتقاهم ... وداراهم مداراة جميلة

إذا وضعوا مكاويهم عليه ... وإن كذبوا فليس لهن حيلة

وقال بعض الحذّاق: ليس للجودة في الشعر صفة، إنما هو شيء يقع في النفس عند المميز: كالفرند في السيف، والملاحة في الوجه.



عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١٩-٢٠] تَشِيعُ: تَظْهَرُ(١).

---

(١) قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هؤلاء الذين يحبون أن تشيع، فكيف بمن أشاع الفاحشة والعياذ بالله؟! ولمحبة شيوع الفاحشة في الذين آمنوا معنيان:

المعنى الأول: محبة شيوع الفاحشة في المجتمع المسلم، ومن ذلك من يبثون الأفلام الخليعة، والصحف الخبيثة الداعرة، فإن هؤلاء لا شك أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، ويريدون أن يفتتن المسلم في دينه بسبب ما يشاع من هذه المجلات الخليعة الفاسدة والأفلام الخليعة الفاسدة أو ما أشبه ذلك، وكذلك تمكين هؤلاء مع القدرة على منعهم داخل في محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فالذي يقدر على منع هذه المجلات وهذه الأفلام الخليعة ويمكّن من شيوعها في المجتمع المسلم هو ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي عذاب مؤلم في الدنيا والآخرة.

المعنى الثاني: محبة أن تشيع الفاحشة في شخص معين، وليس في المجتمع الإسلامي كله، فهذا أيضًا له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، فمن أحب أن تشيع الفاحشة في زيد من الناس لسبب ما، هذا أيضا له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، لاسيما فيمن نزلت الآية في سياق الدفع عنه وهي أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، لأن هذه الآية في سياق آيات الإفك، والإفك هو الكذب الذي افتراه من يكرهون النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ومن يحبون أن يتدنّس فراشه، ومن يحبون أن يعيّر بأهله، من المنافقين وأمثالهم، وقضية الإفك مشهورة. وقد أنزل الله تعالى في هذه القصة عشر آيات من القرآن ابتدأها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والذي تولى كبره هو رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ المنافق، =



=

فإنه هو الذي كان يشيع الخبر، لكنه خبيث لا يشيعه بلفظ صريح فيقول مثلا: إن فلانًا زنى بفلانة، لكنه يشيع ذلك بالتعريض والتلميح، لأن المنافقين جبناء يتسترون ولا يصرحون بها في نفوسهم فيقول عز وجل: ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ وفي هذا توبيخ من الله عز وجل للذين تكلموا في هذا الأمر يقول: هلّا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، وذلك أن أم المؤمنين أمهم، فكيف يظنون بها ما لا يليق؟! وكان الواجب عليهم لما سمعوا هذا الخبر أن يظنوا بأنفسهم خيرا ويتبرؤا منه وممن قاله، ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ يعني هلا جاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون على هذا الأمر ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ ولو صدقوا، ولهذا لو أن شخصا شاهد إنسانا يزني وجاء إلى القاضي وقال: أنا أشهد أن فلانًا يزني، قلنا: هات أربعة شهداء، فإذا لم يأت بأربعة شهداء جلدناه ثمانين جلدة، فإن جاء برجل ثان معه جلدناهما كل واحد ثمانين جلدة، وثالث أيضا نجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ ولولا الفضل والرحمة من الله لأصابكم فيما أفضتم فيه العقاب المذكور، وفي قوله: ﴿مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ دليل على أن الحديث انتشر وفاض واستفاض واشتهر، لأنه أمر جلل عظيم خطير، والعادة جرت بأن الأمور الكبيرة تنتشر بسرعة، وتملأ البيوت، وتملأ الأفواه والآذان، ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ

=



=

﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ من غير رويّة ومن غير بيّنة ومن غير يقين، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ لأنه قذفٌ لأطهر امرأة على وجه الأرض، هي وصاحباتها زوجات رسول الله ﷺ، فالأمر صعب وعظيم، وفي ذلك أيضا ـ أي من تلقّيهم الإفك ـ تعريضٌ برسول الله ﷺ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ ولكنها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا طيّبة، وزوجها طيّب، فزوجها محمد رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم، وهي الصديقة بنت الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعني هلا إذ سمعتموه ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا هو الواجب عليك أن تنزه الله أن يقع مثل هذا من زوج النبي ﷺ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ وتأمل كيف جاءت هذه الكلمة التي تتضمن تنزيه الله عز وجل إذ أنه لا يليق بحكمة الله ورحمته وفضله وإحسانه، أن يقع مثل هذا من زوج رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني لا تعودوا لمثل هذا أبدا إن كنتم مؤمنين، ثم قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والحمد لله على بيانه، ولهذا أجمع العلماء على أن من رمى أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بما جاء في حديث الإفك فإنه كافر مرتد، كالذي يسجد للصنم، فإن تاب وأكذب نفسه، وإلا قتل كافرًا لأنه كذب القرآن. وكل من رمى زوجة من زوجات الرسول ﷺ بما برأ الله منه عائشة فإنه يكون كافرًا مرتدًّا، يجب أن يُستتاب، فإن =

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢][1] وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامِ بن عُرْوَةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي

=

تاب وإلا قتل بالسيف، وألقيت جيفته في حفرة من الأرض، بدون تغسيل ولا تكفين ولا صلاة، لأن الأمر خطير، ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾. وسبق أن أشرنا إلى أن الثلاثة من الصحابة الخلّص تورطوا في هذه القضية، وهم حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسطح بن أثاثة وهو ابن خالة أبي بكر، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، أما زينب بنت جحش زوج الرسول ﷺ وضرة عائشة فقد حماها الله، لكن أختها تورّطت، ولما أنزل الله براءتها أمر النبي ﷺ أن يجد هؤلاء الثلاثة حدّ القذف، فجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة.

أما المنافقون فلم يحدّهم النبي ﷺ، واختلف العلماء في ذلك، فقيل: لأن المنافقين ما كانوا يجزمون، وإنما يقولون: يقال أو يذكر أو سمعنا أو ما أشبه ذلك، وقيل: لأن المنافق ليس أهلا للتطهير، فالحدُّ طهرة للمحدود، وهؤلاء المنافقون ليسوا بأهلٍ للتطهير، ولهذا لم يجلدهم الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه لو جلدهم لطهرهم من دنس هذا الشيء، لكنهم ليسوا أهلا للتطهير، فهم في الدرك الأسفل من النار، فتركهم وذنوبهم، فليس فيهم خير، وقيل غير ذلك، وعلى كل حال فإن هذه القصة قصة عظيمة فيها عبر كثيرة. شرح رياض الصالحين للعثيمين، مختصرًا: (١/ ٢٧٥ - ٢٨٥).

(١) قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله. قلت: وهي بلا شك من
=



أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ، وَمَا عَلِمْتُ بِهِ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيَّ خَطِيبًا، فَتَشَهَّدَ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا**(١) **أَهْلِي، وَايْمُ اللَّهِ**(٢) **مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي**» فَقَامَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ: فَقَالَ ائْذَنْ

=

أرجى الآيات، والمشهور أنها آية الزمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

(١) أبنوا أهلي: التأبين على وجهين: فتأبين الحي: ذكره بالقبيح، ومنه قوله: أبنوا أهلي، أي ذكروهم بسوء. والثاني: تأبين الميت، وهو مدحه بعد موته.

(٢) وايم الله: من ألفاظ القسم، وفيها لغات كثيرة. وتصح بالهمزة كذلك كسرًا وفتحًا، وصلًا وقطعًا.

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر: (١/ ٢٠٧): أيم الله: من ألفاظ القسَم، كقولك لَعمْر الله، وعَهْد الله، وفيها لغات كثيرة، وتفتح همزتها وتكسر، وهمزتها وصْل وقد تُقْطع، وأهل الكوفة من النحاة يزعمون أنها جمع يَمين، وغيرهم يقول هي اسم موضوع للقسم.

وقال أبو البركات الأنباري في الإنصاف في مسائل الخلاف (١/ ٤٠٩): وفيها لغات كثيرة تنيف على عشر لغات: أيمن الله، وإيمن الله، وأيم الله، وإيم الله، وأم الله، وم الله، وليمن الله، ومن الله.

أما ابن أُمِّ قاسم المرادي في الجنى الداني في حروف المعاني (١/ ٩٢) فذكر عشرين لغة وأوردها. وانظر كذلك: القاموس للفيروز آبادي (١٦٠٢).

=

لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ نَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ. وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الْخَزْرَجِ ـ وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بن ثَابِتٍ مِنْ رَهْطِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ـ فَقَالَ: كَذَبْتَ، أَمَا وَاللَّهِ أَنْ لَوْ كَانُوا مِنْ الْأَوْسِ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ! حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ شَرٌّ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَا عَلِمْتُ.

فَلَمَّا كَانَ مَسَاءُ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي وَمَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ، فَعَثَرَتْ وَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ: أَيْ أُمِّ تَسُبِّينَ ابْنَكِ؟ وَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَتْ الثَّانِيَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ لَهَا: أَيْ أُمِّ، أَتَسُبِّينَ ابْنَكِ؟ فَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَتْ الثَّالِثَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحٌ! فَانْتَهَرْتُهَا، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَسُبُّهُ إِلَّا فِيكِ! فَقُلْتُ: فِي أَيِّ شَأْنِي؟ قَالَتْ: فَبَقَرَتْ(١) لِي الْحَدِيثَ. فَقُلْتُ: وَقَدْ كَانَ هَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ وَاللَّهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي كَأَنَّ الَّذِي خَرَجْتُ لَهُ لَا أَجِدُ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، وَوُعِكْتُ(٢). فَقُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرْسِلْنِي إِلَى بَيْتِ أَبِي. فَأَرْسَلَ مَعِي الْغُلَامَ. فَدَخَلْتُ الدَّارَ فَوَجَدْتُ أُمَّ رُومَانَ فِي السُّفْلِ وَأَبَا بَكْرٍ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ. فَقَالَتْ أُمِّي: مَا جَاءَ بِكِ يَا بُنَيَّةُ؟ فَأَخْبَرْتُهَا. وَذَكَرْتُ لَهَا الْحَدِيثَ، وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مِثْلَ مَا بَلَغَ مِنِّي فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، خَفِّفِي عَلَيْكِ الشَّأْنَ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا حَسَدْنَهَا وَقِيلَ فِيهَا. وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مَا بَلَغَ مِنِّي(٣). قُلْتُ: وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ.

---

(١) فبقرت: البقر هو الفتح والتوسعة والشق، والمعنى: ففَتَحَتْ لي الحديث وكشفته وأوضحته.

(٢) الوعك: اضطراب الحمى.

(٣) لم يبلغ منها ما بلغ مني: أي لم يؤثر فيها مثل ما أثر فيّ. وقولها: خففي عليك الشأن، =

قُلْتُ: وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَاسْتَعْبَرْتُ، وَبَكَيْتُ. فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي وَهُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ، فَنَزَلَ فَقَالَ لِأُمِّي: مَا شَأْنُهَا؟ قَالَتْ: بَلَغَهَا الَّذِي ذُكِرَ مِنْ شَأْنِهَا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكِ أَيْ بُنَيَّةُ إِلَّا رَجَعْتِ إِلَى بَيْتِكِ، فَرَجَعْتُ.

وَلَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتِي، فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ، مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَرْقُدُ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلَ خَمِيرَهَا أَوْ عَجِينَهَا. وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اصْدُقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى أَسْقَطُوا لَهَا بِهِ(١). فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تِبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ.

=

وفي رواية: هوّني عليك، وفي رواية: خفضي.

لها ضرائر: جمع ضُرَّة، وقيل للزوجات ضرائر لأن كل واحدة يحصل لها الضرر من الأخرى بالغيرة.

واستعبرتُ: أي جرى دمعي. قال في القاموس: العَبرةُ: الدمعة، واستعبر جرت عبرته وحزن.

أقسمت عليك يا بنية إلا رجعت إلى بيتك: هذا مثل قولهم نشدتك بالله إلا فعلت أي ما أطلب منك. ينظر: تحفة الأحوذي: (٩/ ٢٤-٢٦).

(١) وأسقطوا لها به: أسقطوا به: أي: قالوا لها السقط من القول، وهو الرديء، يريد: أنهم سبوها، وقوله «به» أي بسبب هذا المعنى: وهو الذي سئلت عنه من أمر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيكون المعنى سبوها بهذا السبب. وقيل: أي سمّوا لها التهمة وصرحوا لها بِقَالَةِ الناس.



وَبَلَغَ الْأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قِيلَ لَهُ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا كَشَفْتُ كَنَفَ أُنْثَى قَطُّ! قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ[(١)].

قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ، وَقَدْ اكْتَنَفَنِي أَبَوَايَ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي. فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنْ كُنْتِ قَارَفْتِ**[(٢)] **سُوءًا، أَوْ ظَلَمْتِ، فَتُوبِي إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ**» وفيه: ... فَوَعَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَالْتَفَتُّ إِلَى أَبِي، فَقُلْتُ لَهُ: أَجِبْهُ. قَالَ: فَمَاذَا أَقُولُ؟ فَالْتَفَتُّ إِلَى أُمِّي، فَقُلْتُ: أَجِيبِيهِ. فَقَالَتْ: أَقُولُ مَاذَا؟

فَلَمَّا لَمْ يُجِيبَاهُ؛ تَشَهَّدْتُ، فَحَمِدْتُ اللَّهَ، وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْهَدُ إِنِّي لَصَادِقَةٌ، مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدَكُمْ. لَقَدْ تَكَلَّمْتُمْ بِهِ، وَأُشْرِبَتْهُ[(٣)] قُلُوبُكُمْ، وَإِنْ قُلْتُ: إِنِّي قَدْ

---

(١) فبلغ الأمر: أي أمر الإفك. ذلك الرجل: وهو صفوان. الذي قيل له: أي عنه من الإفك ما قيل، فاللام هنا بمعنى عن، كما هي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، أي عن الذين آمنوا، أو بمعنى في، أي قيل فيه، فهي كقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي في حياتي.

(٢) قارفت: المقارفة هي الكسب والعمل في الأصل، ويقال لمن باشر معصية أو ألم بها. وروي بلفظ: ألَمْتِ، والإلمام: المقاربة، وهو من اللمم: صغار الذنوب، وقيل: اللمم مقاربة المعصية من غير إيقاع فعل.

(٣) وأشربته قلوبكم: أي: تداخل هذا الحديث قلوبكم، كما يتداخل الصبغ الثوب فيشربه.

فَعَلْتُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ، لَتَقُولُنَّ: قَدْ بَاءَتْ بِهِ[١] عَلَى نَفْسِهَا. وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا - وَالْتَمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ - إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وَأُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَاعَتِهِ، فَسَكَتْنَا[٢]. فَرُفِعَ عَنْهُ، وَإِنِّي لَأَتَبَيَّنُ السُّرُورَ فِي وَجْهِهِ، وَهُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ وَيَقُولُ: «**أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَتَكِ**» قَالَتْ: وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا، فَقَالَ لِي أَبَوَايَ: قُومِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُهُ، وَلَا أَحْمَدُكُمَا، وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي. لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ، وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ.

وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: أَمَّا زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِدِينِهَا، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ. وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ، وَحَسَّانُ بن ثَابِتٍ، وَالْمُنَافِقُ عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ، هُوَ وَحَمْنَةُ. قَالَتْ: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا

---

(١) باءت به: أي رجعت به وتحملته.

(٢) اكتنفني أبواي: قال في القاموس: اكتنفوا فلانًا أحاطوا به. والتمستُ: من الالتماس، أي طلبت. اسم يعقوب عليه السلام: حين قال: فصبر جميل، أي هو أجمل، وهو الذي لا شكوى فيه إلى الخلق. تحفة الأحوذي: (٩/ ٢٦) وقال شيخ الإسلام في الاستغاثة وهي المسمّاة: الرد على البكري: (١/ ٤٠٠): قال بعضهم: ذَكَرَ اللهُ الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل. فالصبر الجميل: الذي ليس فيه شكوى إلى المخلوق، و الهجر الجميل: الذي ليس فيه أذى، والصفح الجميل: الذي ليس فيه عتاب.



يَنْفَعَ مِسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ يَعْنِي مِسْطَحًا، إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى، وَاللَّهِ يَا رَبَّنَا إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. وَعَادَ لَهُ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ(١).

---

(١) ﴿مَا تَصِفُونَ﴾: أي على احتمال ما تصفونه. وإني لأتبين السرور: أي أعرفه. وهو يمسح جبينه: أي من العرق. تحفة الأحوذي: (٩/ ٢٧)

قلت: وكان الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ لا يتمالك نفسه من البكاء عند قراءة هذا الحديث عليه حتى تعلو مجلس درسه سكينة وخشوع ودعاء. وقد وقف ابن القيّم أثناء ذكره لغزوة المريسيع في الزاد عند هذه الحادثة فقال رحمة الله تعالى عليه:

وكانت غزوةِ المُرَيْسِيع في شعبانَ سنةَ خَمسٍ، وسببُها: أنه لما بلغه ﷺ أن الحارث ابن أبى ضِرار سيِّدَ بني المُصْطَلِق سار في قومه ومن قَدَرَ عليه مِن العرب، يُريدونَ حربَ رسول الله ﷺ، فبعثَ بُرَيْدَةَ بن الحُصيب يَعْلَمُ له ذلك فأتاهم، ولقي الحارث بن أبى ضِرار، وكلَّمه، ورجَعَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فأخبره خبرَهم، فندب رسولُ اللهِ ﷺ الناسَ فأسرعوا في الخروج، وخرج معهم جماعةٌ مِن المنافقين، لم يخرُجوا في غزاةٍ قبلَها، وخرج يومَ الإثنين لليلتين خَلتَا من شعبان، وبلغ الحارثَ بن أبى ضرار ومَنْ معه مسيرُ رسولِ الله ﷺ، وقَتْلُه عينَه الذي كان وجَّهه لِيأتِيَه بخبرِهِ وخبرِ المسلمين، فخافُوا خوفاً شديدًا، وتفرَّق عنهم مَنْ كان معهم مِن العرب، وانتهى رسولُ الله ﷺ إلى المُرَيْسِيعِ، وهو مكانُ الماءِ، فضرب عليه قُبَّتَه، ومعه عائشةُ وأمُّ سَلَمة، فتهيؤوا لِلقتال، وصفَّ رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَه، وراية المهاجِرِينَ مع أبى بكر الصِّدِّيق، ورايةُ الأنصارِ مع سعد بن عُبادة. ولم يكن بينهم =





=

قِتال، وإنما أغارَ عليهم على الماء، فَسَبى ذَرَارِيَهم، وأموالَهم. كما في «الصحيح»: أغارَ رسولُ الله ﷺ على بَنى المُصْطَلِق، وهُمْ غَارُّونَ. وذكر الحديث. وكان مِن جُملة السبي جُوَيْرِيَةُ بنتُ الحارث سَيِّدِ القومِ، وقعت في سَهْم ثابتِ بن قيس، فكاتبَهَا، فأدَّى عنها رسُولُ الله ﷺ، وتزوَّجها، فأعتقَ المسلمون بسبب هذا التزويج مئة ـ قلت: ومن الأخطاء الإملائية الشائعة بين الكتّاب كتابة مئة بالمد (مائة) وقد تواضع الأقدمون على ذلك لحاجة أصحاب الأسواق للتمييز في الكتابة بين كلمتَي: مئة وفئة، ولكن بعد الإعجام والتشكيل انتهت تلك الحاجة، فعاد الناس للأصل، وهو كتابتها على نبرة. ـ أهْلِ بيتٍ من بني المُصْطَلِق قد أسلموا، وقالُوا: أصهارُ رَسُولِ الله ﷺ. وقصة إسلام بني المصطلق رواها أحمد وغيره وذكرها ابن إسحاق في سيرته بسند حسن إذ صرّح فيه بالتحديث، فانتفى تدليسه.

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق ذكر الخبر: ثم سار صفوان بها يَقُودُهَا حتَّى قَدِمَ بها، وقد نزل الجيشُ في نحرِ الظهيرة، فلما رأى ذلك الناسُ، تكلَّم كُلٌّ منهم بِشاكِلته، وما يَليقُ به، ووجد الخبيثُ عدوُّ اللهِ ابنُ أُبيّ مُتنفَّسًا، فتنفَّس مِن كَرْبِ النفاق والحسدِ الذي بين ضُلوعه، فجعل يَستحكي الإفكَ، ويَستوشِيه، ويُشِيعه، ويُذِيعه، ويَجمعُه، ويُفرِّقه، وكان أصحابُه يتقرَّبُونَ به إليه.

فلما قَدِمُوا المدينةَ، أفاضَ أهلُ الإفكِ في الحديثِ، ورسولُ اللهِ ﷺ ساكِتٌ لا يتكلَّم، ثم استشار أصحابَه في فراقها، فأشار عليه عليٌّ رضي الله عنه أن يُفارِقَهَا، ويأخُذَ غيرها تلويحاً لا تصريحاً، وأشار عليه أُسامةُ وغيرُه بإمساكِها، وألا يلتفِتَ إلى كلام الأعداء، فعليٌّ لمّا رأى أنّ ما قِيل مشكوكٌ فيه، أشار بترك الشَّكِّ والرِّيبة إلى اليقين، ليتخلَّص رسولُ اللهِ ﷺ من الهمِّ والغمِّ الذي لحقه مِن كلام الناس، فأشار بحسم الداء، وأُسامة لما عَلِمَ حُبَّ رسولِ اللهِ ﷺ لها ولأبيها، وعَلِمَ مِن عِفّتها

=

=

وبراءتها، وحَصانتها ودِيانتها ما هي فوقَ ذلك، وأعظمُ منه، وعرفَ مِن كرامةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ على ربِّه ومنزلته عنده، ودفاعِه عنه، أنه لا يجعلُ ربةَ بيته وحبيبته من النساء، وبنتَ صِدِّيقه بالمنزلة التي أنزلها بِهِ أربابُ الإفك، وأن رسولَ الله ﷺ أكرمُ على ربه، وأعزُّ عليه من أن يجعل تحته امرأة بَغيّاً، وعلم أنَّ الصِّدِّيقةَ حبيبةَ رسول الله ﷺ أكرمُ على ربها مِن أن يَبْتَلِيهَا بالفَاحِشَةِ، وهيَ تحتَ رسوله.

ومَنْ قَوِيَتْ معرفته لله، ومعرفته لرسوله، وقدره عندَ اللهِ في قلبه، قال كما قال أبو أيوب وغيره مِن سادات الصحابة، لما سمعوا ذلك: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٦]

وتأمّل ما في تسبيحهم للهِ، وتنزيههم له في هذا المقامِ مِن المعرفةِ به، وتنزيهه عما لا يليقُ به، أن يجعلَ لِرسوله وخليلِه وأكرمِ الخلق عليه امرأةً خبيثةً بغيًّا، فمن ظنَّ به سُبحانه هذا الظَّنَّ، فقد ظَنَّ به ظنَّ السَّوْءِ، وعرف أهلُ المعرفة باللهِ ورسوله أن المرأة الخبيثةَ لا تليقُ إلا بمثلها، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦]، فقطعوا قطعاً لا يَشُكُّونَ فيهِ أن هذا بُهتان عظيم، وفِريةٌ ظاهرة.

فإن قيل: فما بالُ رسولِ الله ﷺ توقَّفَ في أمرها، وسألَ عنها، وبحَثَ، واستشارَ، وهو أعرفُ باللهِ، وبمنزلتِهِ عِندهُ، وبما يليقُ به، وهَلاَّ قال: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٦]، كما قاله فضلاءُ الصحابة؟

فالجوابُ: أن هذا مِن تمامِ الحِكَمِ البَاهِرةِ التي جعل اللهُ هذهِ القِصةَ سبباً لها، وامتحاناً وابتلاءً لرسولِهِ ﷺ، ولجميع الأمة إلى يومِ القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواماً، ويضعَ بها آخرينَ، ويزيدَ اللهُ الذين اهتَدَوْا هُدىً وإيماناً، ولا يزيدُ الظالمين إلا خَساراً. واقتضى تمامُ الامتحان والابتلاء أن حُبِسَ عن رسول الله ﷺ الوحيُ

=

=

شهراً في شأنها، لا يُوحى إليه في ذلك شيء لتتمَّ حِكمتُهُ التي قدَّرها وقضَاهَا، وتظهرَ على أكمل الوجوه، ويزدادَ المؤمنونَ الصادِقُونَ إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحُسْنِ الظنِّ باللهِ ورسولهِ، وأهلِ بيتهِ، والصِّدِّيقينَ مِن عباده، ويزدادَ المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويُظْهِرَ لِرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتمّ العبوديةُ المُرادة مِن الصِّدِّيقةِ وأبويها، وتتمَ نعمةُ اللهِ عليهم، ولِتشتد الفاقةُ والرغبةُ مِنها ومِن أبويها، والافتقارُ إلى اللهِ والذلُّ له، وحُسن الظن به، والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأسَ مِن حصول النُّصرةِ والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفّت هذا المقَام حقَّهُ، لـمّا قال لها أبواها: قُومي إليه، وقد أنزلَ اللهُ عليه براءتها، فقالت: واللهِ لا أقُومُ إلَيْهِ، ولا أَحْمَدُ إلاَّ اللهَ، هُو الذي أنْزَلَ بَرَاءَتِي.

وأيضاً فكان مِن حكمةِ حَبْس الوحي شهراً، أن القضية مُحِّصَتْ وتمحَّضتْ، واستشرفَتْ قلوبُ المؤمنين أعظَمَ استشرافٍ إلى ما يُوحيه اللهُ إلى رسوله فيها، وتطلَّعت إلى ذلك غايةَ التطلُّع، فوافى الوحيُ أحوجَ ما كان إليه رسولُ الله ﷺ وأهلُ بيته، والصِّدِّيقُ وأهلُه، وأصحابُه والمؤمنون، فورد عليهم ورودَ الغيثِ على الأرضِ أحوجَ ما كانت إليه، فوقع منهم أعظمَ موقع وألَطَفَه، وسُرُّوا به أتمَّ السُّرورِ، وحصل لهم به غايةُ الهناء، فلو أطلع اللهُ رسولَه على حقيقة الحالِ مِن أوَّلِ وَهلة، وأنزل الوحيَ على الفور بذلك، لفاتت هذه الحِكمُ وأضعافُها بل أضعافُ أضعافها.

وأيضاً فإن الله سُبحانه أحبَّ أن يُظْهِرَ منزلَةَ رسوله وأهلِ بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يُخرِجَ رسولَه عن هذه القضية، ويتولَّى هو بنفسه الدفاعَ والمنافحَة عنه ـ قلت: المنافحة هي المناضلة والمخاصمة والمدافعة والإجابة ـ والردَّ على أعدائه، وذمِّهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا يُنسب إليه، بل يكونُ هو وحدَه المتوليَ لذلك، الثائرَ لرسوله وأهل بيته.

=

=

وأيضاً فإن رسولَ اللهِ ﷺ كان هو المقصودَ بالأذى، والتي رُمِيَتْ زوجتُه، فلم يكن يليقُ به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنّه الظنَّ المقاربَ للعلم ببراءتها، ولم يظنَّ بها سُوءاً قطُّ، وحاشاه، وحاشاها، ولذلك لما استعذر مِن أهل الإفك، قال: **«مَنْ يَعْذِرُني»** ـ: أي من يقوم بعذري ويُشهِرُه إن جزيتُ الأفّاكَ على سوء صنيعه، فلا يلومني. ومن ذلك قولهم: قد أعذَر من أنذر، أي قام عذره في عدم ملامته إن عاقب ـ **«في رَجُلٍ بَلَغَني أذَاهُ في أَهْلي، واللهِ مَا عَلِمْتُ عَلى أَهْلي إلاَّ خَيْراً، ولَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلاَّ خَيْراً، ومَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلي إلاَّ مَعي»**، فكان عنده مِنَ القرائن التي تشهدُ ببراءة الصِّدِّيقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لِكمال صبره وثباته، ورِفقه، وحُسنِ ظنه بربه، وثِقته به، وفّى مقامَ الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقَّه، حتى جاءه الوحيُ بما أقرَّ عينَه، وسرَّ قلبَه، وعظَّمَ قدرَه، وظهر لأُمته احتفالُ ربه به، واعتناؤه بشأنه.

ولما جاء الوحيُ ببراءتها، أمرَ رسولُ الله ﷺ بمن صرَّح بالإفك، فَحُدُّوا ثمانين ثمانين، ولم يُحد الخبيثُ عبد الله بن أُبَيّ، مع أنه رأسُ أهل الإفك، فقيل: لأن الحدودَ تخفيفٌ عن أهلها وكفَّارة، والخبيثُ ليس أهلاً لذلك، وقد وَعَدَهُ الله بالعذابِ العظيمِ في الآخرةِ، فيكفيهِ ذلك عن الحد، وقيل: بل كان يستوشي الحديثَ ويجمعُه ويحكيه، ويُخرجه في قوالب مَن لا يُنسب إليه، وقيل: الحدُّ لا يثبتُ إلا بالإقرار، أو ببيِّنة، وهو لم يُقر بالقذف، ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكُره بين أصحابه، ولم يشهدُوا عليه، ولم يكن يذكُره بين المؤمنين.

وقيل: حدُّ القذف حقُّ الآدمي، لا يُستوفى إلا بمطالبته، وإن قيل: إنه حقٌّ لله، فلا بُدَّ مِن مطالبة المقذوف، وعائشةُ لم تُطالب به ابنَ أُبَيَّ. وقيل: بل تَرَك حدَّه لمصلحة هي أعظمُ مِن إقامته، كما ترك قتله مع ظهورِ نفاقه، وتكلمِه بما يُوجب قتله مراراً، وهي تأليفُ قومه، وعدمُ تنفيرهم عن الإسلام، فإنه كان مطاعاً فيهم، رئيساً

=



=

عليهم، فلم تُؤمن إثارةُ الفتنة في حدِّه، ولعله تُرِكَ لهذِهِ الوجوهِ كُلِّهَا.

فجلد مِسْطَحَ بن أثاثة، وحسانَ بن ثابت، وحَمْنَةَ بنتَ جَحْشٍ، وهؤلاء مِن المؤمنين الصَّادقين تطهيراً لهم وتكفيراً، وترك عبد الله بن أُبَيٍّ إذاً، فليس هو من أهل ذاك.

ومَن تأمَّل قولَ الصِّدِّيقةِ وقد نزلت براءتُهَا، فقال لها أبواها: قُومي إلى رسول اللهِ ﷺ، فقالت: «واللهِ لا أقومُ إلَيْهِ، ولا أَحْمَدُ إلا اللهَ»، علم معرفَتها، وقوةَ إيمانها، وتوليتها النعمة لربِّها، وإفرادَه بالحمد في ذلك المقَام، وتجريدَها التوحيد، وقوةَ جأشها، وإدلالَها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يُوجب قيامَها في مقام الراغب في الصُّلح، الطالب له، وثقتها بمحبة رسولِ اللهِ ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالاً للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسنُ مقامات الإدلال، فوضعتهُ موضِعَه، ولله ما كان أحبَّها إليه حين قالت: «لا أَحْمَدُ إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي» ولله ذلك الثباتُ والرزانةُ منها، وهو أحبُّ شيء إليها، ولا صبرَ لها عنه، وقد تنكَّر قلبُ حبيبها لها شهراً، ثم صادفَتِ الرِّضى منه والإقبال، فلم تُبادِرْ إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه مع شدة محبتها له، وهذا غايةُ الثبات والقوة. زاد المعاد، ابن القيم (٢٥٨ـ٢٦٨) باختصار.

وذكر الواقدي في مغازيه وغيره أثناء روايته لهذه الغزاة مثالاً على بركة طاعة رسول الله ﷺ وشؤم مخالفته، فأورد بسنده عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال:

كنت رفيق عبد الله بن رواحة في غزوة المريسيع، فأقبلنا حتى انتهينا إلى وادي العقيق في وسط الليل، فإذا الناس معرسون ـ أي نازلون للمبيت ليلاً فالتعريس: نزول المسافر آخر الليل للاستراحة. أما الإدلاج فهو السير آخر الليل، وفي الحديث: **«من خاف أدلج»** ـ قلنا: فأين رسول الله ﷺ؟ قالوا: في مقدم الناس قد نام. فقال لي عبد الله بن رواحة: يا جابر هل لك بنا في التقدّم والدخول على أهلنا؟ فقلت: يا أبا محمد لا أحب أن أخالف الناس، لا أرى أحدًا تقدّم. قال ابن رواحة:

=





وكم في ثنايا تلك المحنة من منحٍ جسام وآلاء عظام، فقد رفعت

=

والله ما نهانا رسول الله ﷺ عن تقدم. قال جابر: أما أنا فلست ببارح. فودّعني وانطلق إلى المدينة، فأنظر إليه على ظهر الطريق ليس معه أحد، فطرق أهله بلحارث بن الخزرج، فإذا مصباح في وسط بيته، وإذا مع امرأته إنسان طويل ـ أي نائمٌ قريب منها ـ فظنّ أنه رجل، وسقط في يديه، وندم على تقدمه. وجعل يقول: الشيطانُ مع الغِرِّ! فاقتحم البيتَ رافعًا سيفه قد جرّده من غمده يريد أن يضربهما. ثم فكّر وادّكر ـ وفي هذا فضيلة التأني والتثبت ـ، فغمز امرأته برجله، فاستيقظت فصاحت وهي توسن ـ من الوسن وهو النعاس، أي قامت من نومها فجأة ـ فقال: أنا عبد الله، فمن هذا؟ قالت: رجيلة ماشطتي، سمعنا بمقدمكم فدعوتها تمشطني فباتت عندي.

فبات، فلمّا أصبح خرج معترضًا لرسول الله ﷺ، فلقيه ببئر أبي عتبة، ورسول الله ﷺ يسير بين أبي بكر وبشير بن سعد، فالتفت رسول الله ﷺ إلى بشير فقال: «**يا أبا النعمان**» فقال: لبيك . قال: «**إن وجه عبد الله ليخبرك أنه قد كره طروق أهله**» ـ وفيه عظيم فراسة رسول الله ﷺ ـ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**خبرك يا ابن رواحة؟**» فأخبره كيف كان تقدَّمَ، وما كان من ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تطرقوا النساء ليلًا**» قال جابر: فكان ذلك أول ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

قال جابر: فلم أر مثل العسكر ولزومه والجماعة، لقد أقبلنا من خيبر، وكنا مررنا على وادي القُرى فانتهينا إلى الجُرفِ ـ موضع قرب المدينة ـ ليلًا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: لا تطرقوا النساء ليلًا، قال جابر: فانطلق رجلان فعصيا رسول الله ﷺ، فرأيا جميعًا ما يكرهان! . المغازي: (١/ ٤٤١ ـ ٤٤٢).





للصديقين منارًا، وأورتْ زَنْدَ هِمَمِ الصَّالحين نارًا، وأعلنت في الخافقين للنبي ﷺ ولآله ولآل أبي بكر كرامةً ورفعةً وفخارًا(١).

---

(١) ملخص العبر من هذه الواقعة:

جامعُ الفوائدِ والعبرِ من هذا الخبرِ

فبعد العَبَرات عِبر، وقد ذكرنا بعضها في تضاعيف الهوامش ولله سبحانه وبحمده في طيّ محنه وابتلاءاته منحٌ ونعم وآلاء. وقد ذكر أهل العلم الغوّاصون في المعاني والممتحون للغرر والحكم فوائد أخلاقية وفرائد فقهية وقلائد مسلكية وخرائد حديثية، حريٌّ بالأمة الوقوف عليها وحقيقٌ بها تدارسها واعتوارها ونشرها. ومن تلك العبر، وقد رَبَتْ على المئة، وقد ذكر شطرها الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأخذها عنه من بعده:

قال الحافظ في الفتح: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز الحديث عن جماعة ملفّقًا مجملًا. وفيه مشروعية القرعة حتى بين النساء، وفي المسافرة بهن، والسفر بالنساء حتى في الغزو. وجواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل، ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس، إذا تضمن ذلك إزلة توهّم النقص عن الحاكي إذا كان بريئًا، عند قصد نصح من يبلغه ذلك، لئلا يقع فيما وقع فيه مَنْ سَبَق، وأن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير في الإثم أولى من تركه يقع في الإثم، وتحصيل الأجر للموقوع فيه. وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام. وأن الهودج يقوم مقام البيت في حجب المرأة. وجواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير، ولو كان ذلك مما يشقّ عليه، حيث يكون مطيقًا لذلك. وفيه خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب. وجواز تستّر المرأة بالشيء المنفصل عن البدن. وتوجه المرأة لقضاء حاجتها وحدها وبغير إذن خاص من زوجها بل اعتماداً على الإذن العام المستند إلى العرف العام. وجواز تحلّي المرأة في السفر بالقلادة ونحوها. وصيانة المال ولو قلّ للنهي عن إضاعة
=



=

المـال، فإن عقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جوهر. وفيه توقّف رحيل العسكر على إذن الأمير. واستعمال بعض الجيش ساقه يكون أمينًا ليحمل الضعيف ويحفظ ما يسقط وغير ذلك من المصالح. والاسترجاع عند المصيبة. وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي. وفيه إغاثة الملهوف وعون المنقطع وإنقاذ الضائع وإكرام ذوي القدر وإيثارهم بالركوب وتجشم المشقة لأجل ذلك. وحسن الأدب مع الأجانب خصوصًا النساء، لا سيما في الخلوة، والمشي أمام المرأة ليستقر خاطرها، وتأمن مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشي. وفيه ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضي النقص وإن لم يتحقق، وفائدة ذلك: أن تتفطن لتغيير الحال فتعتذر أو تعترف. وأنه لا ينبغي لأهل المريض أن يُعلموه بما يؤذي باطنه لئلّا يزيد ذلك في مرضه. وفيه السؤال عن المريض. وإشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة، فإذا كان السبب محققًّا فيترك أصلًا، وإن كان مظنونًا فيخفف، وإن كان مشكوكًا فيه أو محتملًا فيحسن التقليل منه، لا للعمل بما قيل، بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل في حقِّه، لأن ذلك من خوارم المروءة. وفيه أن المرأة إذا خرجت لحاجة تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن عليها. وفيه ذبُّ المسلم عن المسلم خصوصًا من كان من أهل الفضل، وردع من يؤذيهم ولو كان منهم بسبيل، وبيان فضيلة أهل بدر. وإطلاق السبّ على لفظ الدعاء بالسوء على الشخص. وفيه البحث عن الأمر القبيح إذا أُشيعَ وتعرُّفُ صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه، واستصحاب حال من أتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفًا بالخير، إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك. وفيه فضيلة قويّة لأم مسطح لأنها لم تُحاب ولدها في وقوعه في حق عائشة، بل تعمدت سبّه على ذلك. وفيه تقوية لأحد الاحتمالين في قوله ﷺ عن أهل بدر: «**إن الله قال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» وأن =

=

الراجح أن المراد بذلك أن الذنوب تقع منهم لكنها مقرونة بالمغفرة تفضيلًا لهم على غيرهم بسبب ذلك المشهد العظيم، ومرجوحية القول الآخر أن المراد أن الله تعالى عصمهم فلا يقع منهم ذنب. وفيه مشروعية التسبيح عند سماع ما يعتقد السامع أنه كذب، وتوجيهه هنا أنه سبحانه وتعالى ينزَّهُ أن يحصل لقرابة رسول الله ﷺ تدنيسٌ فيشرع شكره بالتنزيه في مثل هذا، ـ قلت: لو قال أهله لكان أولى من مطلق القرابة، لأن عرض أهله متصل به ـ . وفيه خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها ولو كانت إلى بيت أبويها. وفيه البحث عن الأمر المقول ممن يدل عليه المقول فيه، والتوقف في خبر الواحد ولو كان صادقًا ـ قلت: أي فيما يسوء ـ وطلب الارتقاء من مرتبة الظن إلى مرتبة اليقين، وأن خبر الواحد إذا جاء شيئًا بعد شيء أفاد القطع، لقول عائشة: لأَستيقنَ الخبر من قبلهما، وأن ذلك لا يتوقف على عدد معين. ـ قلت: وقد ذكر العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الرحلة إلى مكة زبدة تأمله العميق ونظره الثاقب لمسألة حديث الآحاد على وجه العموم فقال مُزيلًا لإشكال قديم: حديث الآحاد إذا صحّ سنده فهو قطعيّ من حيث العمل لدلالة الشريعة على ذلك، وظنّي من جهة صدق نفسه، والقول بقطعيته الخبرية مع تجويز الكذب على غير معصوم مكابرة. أهـ.

وفيه استشارة المرء أهل بطانته ممن يلوذ به بقرابة وغيرها، وتخصيص من جرّبت صحّة رأيه منهم بذلك ولو كان غيره أقرب، والبحث عن حال من اتهم بشيء وحكاية ذلك للكشف عن أمره، ولا يعد ذلك غيبة. وفيه استعمال: لا نعلمُ إلا خيرًا في التزكية، وأن ذلك كافٍ في حق من سبقت عدالته ممن يطّلع على خفيّ أمره. وفيه التثبّت في الشهادة، وفطنة الإمام عند الحادث المهم. والاستنصار بالأخصّاء على الأجانب. وتوطئة العذر لمن يراد إيقاع العقاب به أو العتاب له. واستشارة الأعلى لمن هو دونه. واستخدام من ليس في الرقّ. وأن من استفسر عن حال شخص فأراد بيان ما فيه من عيب فليقدّم ذكر

=

=

عذره في ذلك إن كان يعلمه، كما قالت بريرة في عائشة حيث عاتبتها بالنوم عن العجين، فقدّمت قبل ذلك أنها جارية حديثه السن. وفيه أن النبي ﷺ كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحي، لأنه ﷺ لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي. وأن الحمية لله ورسوله لا تذمّ. وفيه فضائل جمّة لعائشة ولأبويها ولصفوان ولعلي بن أبي طالب وأسامة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. وفيه أن التعصّب لأهل الباطل يُخرج عن اسم الصلاح. وجواز سب من يتعرض للباطل ونسبته إلى ما يسوءه وإن لم يكن ذلك في الحقيقة فيه، لكن إذا وقع منه ما يشبه ذلك جاز إطلاق ذلك عليه تغليظًا له. وإطلاق الكذب على الخطأ، والقسم بلفظ: لعمر الله. وفيه الندب إلى قطع الخصومة وتسكين ثائرة الفتنة وسد ذريعة ذلك واحتمال أخف الضررين بزوال أغلظهما. وفضل احتمال الأذى. وفيه مباعدة من خالف الرسول ﷺ ولو كان قريبًا حميمًا. وفيه أن من آذى النبي ﷺ بقول أو فعل يقتل لأن سعد بن معاذ أطلق ذلك ولم ينكره النبي ﷺ. وفيه مساعدة من نزلت فيه بليّة بالتوجّع والبكاء والحزن. وفيه تثبت أبي بكر الصديق في الأمور، لأنه لم ينقل عنه في هذه القصة مع تمادي الحال فيها شهرًا كلمة فما فوقها، إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال: والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام، وقع ذلك في حديث ابن عمر عند الطبراني. وفيه ابتداء الكلام في الأمر المهم بالتشهد والحمد والثناء وقول أما بعد. وتوقيف من نقل عنه ذنب على ما قيل فيه بعد البحث عنه. وأن قول كذا وكذا يكنى بها عن الأحوال كما يكنى بها عن الأعداد، ولا تختص بالأعداد. وفيه مشروعية التوبة، وأنها تقبل من المعترف المقلع المخلص، وأن مجرد الاعتراف لا يجزئ فيها. وأن الاعتراف بما لم يقع لا يجوز، ولو عرف أنه يصدق في ذلك، ولا يؤاخذ على ما يترتب على اعترافه، بل عليه أن يقول الحق أو يسكت. وأن الصبر تُحمد عاقبته ويغبط صاحبه. وفيه تقديم الكبير في الكلام. وتوقف من اشتبه عليه الأمر في الكلام. وفيه تبشير من

=

=

تجددت له نعمة، أو اندفعت عنه نقمة. وفيه الضحك والفرح والاستبشار عند ذلك. ومعذرة من انزعج عند وقوع الشدة، لصغر سن ونحوه. وإدلال المرأة على زوجها وأبويها. وتدريج من وقع في مصيبة فزالت عنه لئلا يهجم على قلبه الفرح من أول وهله فيُهلكه، يؤخذ ذلك من ابتداء النبي ﷺ بعد نزول الوحي ببراءة عائشة بالضحك، ثم تبشيرها، ثم إعلامها ببراءتها مجملة، ثم تلاوته الآيات على وجهها، وقد نص الحكماء على أن من أشتدّ عليه العطش لا يُمكّن من المبالغة في الرّي في الماء، لئلا يفضي به ذلك إلى الهلكة، بل يجرّع قليلًا قليلًا. وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج. وفضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوي على ذلك خفّ عنه الهم والغم، كما وقع في حالتي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها بقولها: والله المستعان. وفيه الحث على الإنفاق في سبيل الخير، خصوصًا في صلة الرحم. ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه أو صفح عنه، وأن من حلف أن لا يفعل شيئًا من الخير استحب له الحنث. وجواز الاستشهاد بآي القرآن في النوازل، والتأسي بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم. وفيه التسبيح عند التعجّب واستعظام الأمر. وذم الغيبة، وذم سماعها، وزجر من يتعاطاها، لا سيما إن تضمّنت تهمة المؤمن بما لم يقع منه، وذم إشاعة الفاحشة، وتحريم الشك في براءة عائشة.

وفيه تأخير الحد عمن يخشى من إيقاعه به الفتنة. وفيه منع الحكم حالة الغضب، لما بدا من سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة من قول بعضهم لبعض حالة الغضب حتى كادوا يقتتلون، فإن الغضب يخرج الحليم المتقي إلى ما لا يليق به، فقد أخرج الغضب قومًا من خيار هذه الأمة بحضرة رسول الله ﷺ إلى مالا يشك أحد من الصحابة أنها منهم زلّة. ويؤخذ من سياق عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جميع قصتها المشتملة على براءتها بيان ما أجمل في الكتاب والسنة لسياق أسباب ذلك، وتسمية من يعرف من أصحاب القصص لما في ضمن ذلك من الفوائد الأحكامية

=

=

والآدابية وغير ذلك. فتح الباري، ابن حجر: (٨/ ٤٧٤ ـ ٤٨٢) بتصرف يسير. وقد قدمته مع تأخر زمانه لاحتواء فتحه على جلّ فوائد من سبقه رحمهم الله.

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: وفى حديث الإفك من الفقه: تشكّي السلطان والإمام بمن يؤذيه فى أهله وفى غير ذلك إلى المسلمين والاستعذار منه. وفيه فضيلة من شهد بدرًا من المسلمين، وأن الدعاء عليهم مما يجب أن ينكر كما أنكرته عائشة على أم مسطح في ابنها مع ما للأبوين من المقال مما ليس لغيرهما. وفيه أن النبي ﷺ لم يكن يأتيه الوحي متى أراد، لبقائه شهرًا لا يوحى إليه. وفيه ترك حدّ من له منعة، والتعرض لما يُخشى من تفرّق الكلمة وظهور الفتنة، كما ترك النبي ﷺ التعرض لحدّ عبد الله بن أبيّ بن سلول. وفيه غضب المسلمين لعرض إمامهم وسلطانهم. وفيه أن الشبهة تُسقط العقوبة كما سقط الحدّ.

وفيه أن من آذى رسول الله ﷺ في أهله أو في عرضه أنه يقتل؛ لقول أسيد: إن كان من الأوس قتلناه، ولم يردّ عليه النبي ﷺ شيئًا، فكذلك من سبّ عائشة بما برأها الله منه، أنّه يقتل لتكذيبه القرآن المبرئ لها وتكذيبه الله ورسوله. وقال قوم: لا يقتل من سبّها بغير ما برأها الله منه. قال المهلب: والنظر عندي يوجب أن يُقتل من سبّ أزواج النبي ﷺ بما رميت به عائشة أو بغير ذلك؛ لأن قول أسيد: إن كان من الأوس قتلناه، إنما قال ذلك قبل نزول القرآن، ولم يرد النبي ﷺ قوله، ولو كان قوله غير الصواب لما وسع النبي ﷺ السكوت عنه؛ لأنه مفروض عليه بيان حدود الله، ومن سبّ أزواجه ﷺ فقد آذاه وتنقّصه، فهو متّهم بسوء العقيدة فى إيمانه بالنبي ﷺ، فهو دليل على إبطانه النفاق. وفيه معاقبة المؤذي بقطع المعروف عنه. وفيه الأخذ بالعفو والصفح عن المسيء، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب. شرح صحيح البخاري، لابن بطال: (٨/ ٤٢ ـ ٤٤) باختصار مع حذف المكرر قدر الطاقة.

ومن الاستنباطات المذكورة في عمدة القاري للعيني باختصار: جواز رواية =



=

الحديث عن جماعة عن كل واحد قطعة مبهمة منه، وإن كان فعل الزهري وحده فقد أجمع المسلمون على قبوله منه والاحتجاج به. وفيه عدم وجوب قضاء مدة السفر للنسوة المقيمات، وهذا مجمع عليه إذا كان السفر طويلًا، وقال النووي: وحكم السفر القصير حكم الطويل على المذهب الصحيح. وفيه جواز لبس النساء القلائد في السفر كالحضر. وفيه أن من يركب المرأة على البعير وغيره لا يكلمها إذا لم يكن محرماً إلا لحاجة لأنهم حملوا ولم يكلموا من يظنونها فيه. وفيه فضيلة الاقتصاد في الأكل للنساء وغيرهن ولا يكثرن منه، بحيث يهبلهن اللحم. وفيه جواز تأخر بعض الجيش ساعة ونحوها لحاجة تعرض لهم. وفيه استحباب الاسترجاع عند المصائب، سواء كانت في الدين أو في الدنيا، وسواء كانت في نفسه أو من يعزّ عليه. وفيه تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي سواء كان صالحًا أو غيره. وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وفيه أنه يستحب أن يُسَرّ عن الإنسان ما يقال فيه إذا لم يكن في ذكره فائدة كما كتموا عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا هذا الأمر شهرًا ولم تسمعه بعد ذلك إلا بعارض عرض، وهو قول أم مسطح: تعس مسطح. وفيه استحباب ملاطفة الرجل زوجته وحسن معاشرتها. وفيه أنه يستحب للمرأة إذا أرادت الخروج لحاجة أن يكون معها رفيقة لها لتأنس بها ولا يتعرض لها. وفيه كراهة الإنسان صاحبه وقريبه إذا آذى أهل الفضل أو فعل غير ذلك من القبائح، كما فعلت أم مسطح في دعائها عليه. وفيه جواز التعجب بلفظ التسبيح. وفيه جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة لمن له بها تعلق وأما غيره فمنهي عنه وهو تجسس وفضول. وفيه خطبة الإمام الناس عند نزول أمر مهم. وفيه فضائل ظاهره لصفوان بشهادة النبي ﷺ بما شهد، وبفعاله الجميلة. وفيه المبادرة إلى قطع الفتن والخصومات والمنازعات. وفيه تفويض الكلام إلى الكبار دون الصغار لأنهم أعرف. وفيه براءة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا من الإفك وهي براءة قطعية بنص القرآن فلو
=

=

تشكك فيها إنسان صار كافرًا مرتدًّا بإجماع المسلمين. وفيه تجديد شكر الله تعالى على تجدد النعمة. وفيه فضائل لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٢٢]. وفيه استحباب صلة الأرحام وإن كانوا مسيئين. وفيه استحباب الصدقة والإنفاق في سبيل الخيرات. وفيه استحباب لمن حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي بالذي هو خير ويكفّر عن يمينه. وفيه فضيلة زينب أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا. وفيه التثبّت في الشهادة. وفيه أن الخطبة مبتداة بالحمد لله والثناء عليه. وفيه جواز سبّ المتعصب لمبطل كما سب أسيد بن حضير سعد بن عبادة لتعصبه للمنافق وقال: إنك منافق تجادل عن المنافقين، وقد ذكرنا أنه لم يرد به النفاق الحقيقي. وفيه جواز تعديل النساء، لأنه سأل بريرة وزينب عن عائشة وهما من أخبرتا بفضلها وكمال دينها، وبه احتج أبو حنيفة في جواز تعديل النساء بعضهن بعضًا. وفيه جواز تحلي النساء بالذهب والفضة واللؤلؤ والخرز ونحوها. عمدة القاري، للعيني: (٢٠/ ٣١٤ ـ ٣١٧) مختصرًا.



من سيما المؤمنين وشيم الصالحين إحسان ظنهم بإخوانهم

من شيم المؤمنين إحسان الظنون بعباد الله، فلا يتبعون سوء الظنّ إلا عند غلبة الشبهة، مع ذلك فلا يحققون سوء ظنهم بل يحملون لإخوانهم أعظم المعاذير، فيقول الصالح لنفسه وقد بلغه عن أخيه سوءٌ: لعلّه لم يقصد، لعلّه كان ناسيًا، لعلّه كان غافلًا، لعلّه لعلّه.. فيستطيل في تلمّس أعذار أخيه، فيكسب بذلك أربح التجارات، إذ قد ربح أجره، وربح راحة نفسه، وربح محبّة الناس له، وربح النجح في أموره لحسن نيته فالله شكور حميد، وربح حسن العاقبة في الدنيا، فكم ممن قصد الإضرار بعبدٍ ثم تاب وأناب وشكر ذلك المضرور على إحسانِ ظنٍّ نفعه ولم يضرّه. والطباع سراقه، والجبلّات نزّاعة، وإنّما الحلم بالتحلّم وكذلك إحسان الظن بالدُربة والممارسة وتعلّم أسباب ذلك وتلمّح موارده والبحث عن متمماته، وفحص غوائل النفس وتنظيف دغائلها على من لا يستحقون سوى الإحسان قال المتنبي:

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُه ... وصدَّق ما يعتادُه من توهُّمِ
وعادى محبِّيه بقولِ عداتِه ... فأصبح في دَاجِ من الشَّكِّ مظلمِ

وقالوا: «من جعل لنفسه من حُسْن الظَّن بإخوانه نصيبًا، أراح قلبه». يعني إنَّ الرَّجل إذا رأى من أخيه إعراضًا أو تغيرًا، فحمله منه على وجه جميل، وطلب له الأعذار، خفَّف ذلك عن قلبه، وقَلَّ منه غيظه واغتمامه[١] وقال محمَّد بن

(١) الأمثال، لابن سلام (١٨٤).

حرب: «صواب الظَّن، الباب الأكبر من الفراسة». قلتُ: وهذا بابٌ كبير، قد تزعم النفوس إحسان دخوله، بينما قد حوى لها الحتوف! والسلامة لا يعدلها شيء.

وقالوا: السِّتر لما عاينت، أحسن من إذاعة ما ظننت(١).

وقد كان بدور الأمة الصَّحابة رضوان الله عليهم، مثالًا يُحتذى بهم في حُسْن الظَّن بالمؤمنين، فهذا أبو أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول النَّاس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب. أكنت أنت يا أمَّ أيوب فاعلة ذلك؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله(٢).

ولا غرو فقد اختارهم الله لصحبه نبيه المختار ﷺ، وقد علَّمهم رسول الله ﷺ حُسْن الظَّن، وبيَّن لهم أنَّ الأصل في المؤمن السَّلامة، وأنَّ الإنسان لا بدَّ له من التماس الأعذار لمن حوله، وعليه أن يطرد الشُّكوك والرِّيبة التي قد تدخل في قلبه، فيترتَّب عليها من الآثار ما لا يُحْمَد عقباه.

❁❁❁❁

(١) غرر الخصائص الواضحة، لأبي إسحاق الوطواط (٥٤٢).
(٢) رواه الطبري في تفسيره، (١٧/ ٢١٢).



من وسائل تحصيل حسن الظن بعباد الله

١-دعاء الله سبحانه، والابتهال إليه حتى يمن عليك بقلب سليم، فالدُّعاء علاج ناجع، ووسيلة نافعة، بل هو سيد الوسائل مع صدق التعلق بالله وحده، ليس لهذه الصِّفة فحسب، بل لجميع الأمور الدينيَّة والدنيويَّة.

٢-الاقتداء بالرَّسول ﷺ، وصحابته الكرام، وسلف الأمَّة الصَّالح في حُسْن ظنِّهم ببعضهم، وتعاملهم مع الإشاعات والأكاذيب، ومحافظتهم على أواصر الحبِّ والمودَّة بينهم.

٣-التَّربية الحسنة للأبناء منذ نعومة أظفارهم على حُسْن الظَّن، فينمو الفرد، ويترعرع في ظلِّ هذه الصِّفة الحميدة، فتتجذَّر في نفسه، وتتأصَّل في داخله، وتصبح سجيَّة له لا تنفك عنه أبدًا بإذن الله.

٤-أن ينزل المرء نفسه منزلة غيره، وهو علاج ربَّاني، ودواء قرآني، أرشد الله إليه المؤمنين، وعلَّمهم إيَّاه، حيث قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فأشعرهم تبارك وتعالى أنَّ المؤمنين كيان واحد، وضرر الفرد منهم ضرر للجماعة بأكملها. ولو استشعر كلُّ مؤمن هذا الأمر عند صدور فعل أو قول من أخيه، فوضع نفسه مكانه، لدعاه ذلك إلى إحسان الظَّن بالآخرين.

٥-محاولة زيادة الإيمان بفعل الخيرات والطَّاعات، وعلاج أمراض القلب من الحسد والغلِّ والخيانة وغيرها، فمتى ما زاد إيمان المرء وصفى قلبه



من هذه الأمراض والأوبئة، حَسُن ظنُّه بإخوانه.

٦- حمل الكلام على أحسن محامله ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

٧- أن يلتمس المؤمن الأعذار للمؤمنين، قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد، فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه»[١]. وفي التماس الأعذار راحة للنَّفس من عناء الظَّن السَّيئ، الذي يشغلها ويقلقها، وفيه أيضًا إبقاء على المَوَدَّة، وحفاظ عليها من الزوال والانتهاء، كما قال دعبل الخزاعي:

تَـأَنَّ ولا تعجـل بلومـك صـاحبًا   لعـلَّ لـه عـذرًا وأنـتَ تلـومُ

٨- إجراء الأحكام على الظاهر، ويوكل أمر الضَّمائر إلى الله عز وجل، ويتجنَّب الحكم على النِّيَّات، فإنَّ الله لم يكلِّفنا أنَّ نفتِّش في ضمائر النَّاس. والاكتفاء بظاهر الشَّخص، والحكم عليه من خلاله، من أعظم بواعث حُسْن الظَّن، وأقوى أسبابها.

٩- أن يستحضر العبد الآفات التي تنتج عن سوء الظَّن، وما يترتب عليه من آثار، فهو دافع لأن يُحْسِن الرَّجل ظنَّه بغيره.

١٠- البعد عن كلِّ من اتصف بما يضادُّ هذه الصِّفة الحسنة، ممن لا يتورَّعون عن إلقاء التُّهم على عباد الله جزافًا، بلا تثبُّت. وهؤلاء هم أسوأ النَّاس، فقد قيل لبعض العلماء: من أسوأ النَّاس حالًا؟ قال: «من لا يثق بأحد لسوء ظنه، ولا يثق به أحد لسوء فعله».

---

(١) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، للأماسي (١/ ٧٠).



قال أبو حامد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الخطأ في حُسْن الظَّن بالمسلم، أسلم من الصَّواب بالطَّعن فيهم، فلو سكت إنسان مثلًا عن لعن إبليس، أو لعن أبي جهل، أو أبي لهب، أو من شاء من الأشرار طول عمره، لم يضرَّه السُّكوت، ولو هفا هفوة بالطَّعن في مسلم بما هو بريء عند الله تعالى منه فقد تعرض للهلاك، بل أكثر ما يُعْلم في النَّاس لا يحل النُّطق به؛ لتعظيم الشَّرع الزَّجر عن الغيبة، مع أنَّه إخبار عما هو متحقِّق في المغتاب. فمن يلاحظ هذه الفصول، ولم يكن في طبعه ميلٌ إلى الفضول، آثر ملازمته السُّكوت وحُسْن الظَّن بكافة المسلمين، وإطلاق اللِّسان بالثَّناء على جميع السَّلف الصَّالحين. هذا حكم الصَّحابة عامَّة»(١).

هذا وقد أجاز العلماء بعض صور سوء الظن، قال أبو حاتم: «وأمَّا الذي يستحب من سوء الظَّن، فهو كمن بينه وبين آخر عداوة أو شحناء في دين أو دنيا، يخاف على نفسه من مَكْرِه، فحينئذ يلزمه سوء الظَّن بمكائده ومَكْرِه؛ كي لا يصادفه على غرَّة بمكره فيهلكه»(٢).

قلت: ومن ذلك من أظهر المعصية وتخلف عن الطاعة بلا عذر، كما قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كنَّا إذا فقدنا الرَّجل في صلاة العشاء وصلاة الفجر، أسأنا به الظَّنَّ»(٣). وشتان بين ظنهم وظن أحد الناس الذي فقد جاره عن شهود الجماعة

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي (١/٧٩).

(٢) روضة العقلاء، لابن حبان البستي (١٢٧).

(٣) رواه الطبراني (١٢/٢٧١) (١٣٠٨٥)، والبيهقي (٣/٥٩) (٥١٥٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٤٣): رجال الطبراني موثقون. وصحَّح إسناده الألباني في الصحيحة (٧/٢٠٩).



بضعة أشهر، فأخذ في الكلام في عرضه، والحطّ من قدره، وأن فيه من سيما المنافقين.. ولم يكلّف نفسه السؤال عنه، ولا احتمال حسن الظن به. وفي أحد المجالس بعدما أرغى وأزبد وانتفخ بالباطل، ردّ عليه أحد جيرانه: إن فلانًا الذي ما زلت تتكلم فيه قد أُصيب بالسرطان ستّة أشهر، ثم مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأسقط في يد صاحبنا! ولكن بعد خراب البصرة!

إن حسن الظن هو القاعدة، وسوؤه مع مبرّره هو الاستثناء، فإن انقلب الاستثناء قاعدة هلك الناس! قال عمر بن الخطّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا يحلُّ لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظنُّ بها سوءًا، وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجًا». وقال أيضًا: «لا ينتفع بنفسه من لا ينتفع بظنه»(١). وهو محتمل للأمرين: حسن الظن، أي بحيازة خيري الدنيا والآخرة على ما ذكرناه، أو سوء الظن على سبيل الاحتياط، عند الريبة وقوّة الشبهة وخوف الغائلة في دين أو دنيا، كما قيل: «إن سوء الظن من حسن الفطن». وقد كان الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لا يكاد يقول: أظن في كذا.. إلا صدق ظنّه، ولا عجب فقد كان من المُحَدَّثِين.

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من علم من أخيه مروءة جميلة فلا يسمعنَّ فيه مقالات الرِّجال، ومن حَسُنت علانيته فنحن لسريرته أرجى»(٢). قلت: ويكأن نور النبوّة على هذا الكلام العَلَوِي، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وعن سعيد بن المسيَّب قال: «كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٤٧).
(٢) ذكره ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٩/٢٦١).



الله: أن ضع أمر أخيك على أحسنه، ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنَّن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا»(١).

وقال المهلب: «قد أوجب الله تعالى أن يكون ظنُّ المؤمن بالمؤمن حسنًا أبدًا، إذ يقول: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فإذا جعل الله سوء الظَّن بالمؤمنين إفكًا مبينًا، فقد ألزم أن يكون حُسْن الظَّن بهم صدقًا مبينًا»(٢). وروى معمر عن إسماعيل بن أمية قال: «ثلاث لا يعجزن ابن آدم، ـ أي يغلبانه أحيانًا عند ضعف نفسه ـ: الطِّيرة، وسوء الظَّن والحسد. قال: فينجيك من سوء الظَّن أن لا تتكلم به، وينجيك من الحسد أن لا تبغي أخاك سوءًا، وينجيك من الطِّيرة أن لا تعمل بها»(٣).

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وعلى المؤمن الناصح لنفسه أن لا يبحث لها عن المعاذير والمخارج وأن لا يركبها قلائص التأويل التي لا تغني عنه من الحق شيئًا في إساءة الظن بما لم يؤذن له فيهم من المؤمنين، بل عليه أن يسيء الظن بنفسه، ويحسن الظن بالعباد، وقد

---

(١) الاستذكار، لابن عبد البر (٨/ ٢٩١).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/ ٢٦١).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/ ٢٦١).





حسم رسول الله ﷺ الأمر فقال: «**إيَّاكم والظَّن، فإنَّ الظَّن أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»(١).

ولمّا تكلّم أحدهم على الحسن ثم ندم واعتذر؛ أوصاه الحسن بقوله: «لا تخرجنّ من بيتك وفي نفسك أنك أفضل من مؤمن تلقاه قط.

قال الغزالي: «فلا يُستباح ظنُّ السُّوء إلا بما يُستباح به المال، وهو نفس مشاهدته أو بيِّنةٍ عادلةٍ. فإذا لم يكن كذلك، وخطر لك وسواس سوء الظَّن، فينبغي أن تدفعه عن نفسك، وتقرِّر عليها أنَّ حاله عندك مستور كما كان، وأنَّ ما رأيته منه يحتمل الخير والشَّر. فإنْ قلت: فبماذا يُعرف عقد الظَّن والشُّكوك تختلج، والنَّفس تحدِّث؟ فتقول: أمارة عقد سوء الظَّن أن يتغيَّر القلب معه عما كان، فينفِر عنه نُفُورًا ما، ويستثقله، ويفتر عن مراعاته، وتفقُّده وإكرامه، والاغتمام بسببه. فهذه أمارات عقد الظَّن وتحقيقه»(٢).

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٢٨)، وأحمد (٨١٠٣)، والبخاري في الأدب المفرد، (٦٠٦٤).

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي (٣/١٥١).



إطلالة نبوية

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى:

«بَابٌ إِذَا تَصَدَّقَ عَلَى غَنِيٍّ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ»

حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ. فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ»(١).

وبالله التوفيق والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله ومَن تبعهم بإحسان.



(١) البخاري (١٣٥٥).




شبكة
الألوكة



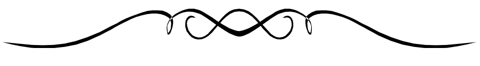


موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

١) مقدّمات في أقوال وأعمال القلوب
٢) التوحيد والإخلاص
٣) العبودية
٤) الصدق مع الله تعالى
٥) محبّةُ الله تعالى
٦) الشّوقُ إلى الله تعالى
٧) الأُنسُ بالله تعالى
٨) الإرادة
٩) العزم
١٠) الرّجاء
١١) الرّغبة
١٢) التّوكّلُ على الله تعالى
١٣) حُسنُ الظّنّ بالله تعالى
١٤) الثقةُ بالله تعالى
١٥) الافتقارُ إلى الله تعالى
١٦) الاستغناءُ بالله تعالى
١٧) التعلُّقُ بالله تعالى
١٨) الالتجاءُ إلى الله تعالى
١٩) الاعتصامُ بالله تعالى
٢٠) سلامةُ الصّدر
٢١) العفاف
٢٢) الصَّبر
٢٣) الرّضا
٢٤) الشكر
٢٥) الحمد
٢٦) ...



الصف والتنسيق والإخراج الفني
خالد محمد جاب الله
مكة المكرمة ـ جوال: 0502543917

